الرسالة الاولى

شرح حديث «ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم» الخ

للحافظ ابن رجب الحنبلى المتوفى سنة ٧٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ☆ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين☆وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين قال الشيخ الامام العالم العلامة شيخ الاسلام بقية السلف الكرام زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الشيخ الامام شهاب الدين احمد ابن الشيخ الامام ابن رجب البغدادى الحنبلى رحمه الله تعالى أخرج الامام احمد والنسائى والترمذى وابن حبان في صحيحه من حديث كعب بن مالك الانصارى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال « ماذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » قال الترمذى حسن صحيح وروى من وجه آخر عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عمر وابن عباس وأبي هريرة واسامة بن زيد وجابر وابى سعيد الخدرى وعاصم بن عدى الانصارى رضى الله عنهم أجمعين وقد ذكرناها كلها والكلام عليها في كتاب شرح الترمذى ولفظ حديث جابر رضى الله عنه « ماذئبان ضاريان باتا في غنم غاب رعاؤها بأفسد للناس من حب الشرف والمال لدين المؤمن » وفي حديث ابن عباس رضى الله عنه حب المال والشرف بدل الحرص فهذا مثل عظيم جدا ضربه النبي صلى الله عليه وسلم لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا وان فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين باتا في الغنم قد غاب عنها رعاؤها ليلا فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها ومعلوم انه لاينجو من الغنم من افساد الذئبين المذكورين والحالة هذه الاقليل فاخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان حرص المرء على المال والشرف افساد لدينه ليس بأقل من افساد الذئبين لهذه الغنم بل إما أن يكون مساويا واما أكثر يشير

الى انه لايسلم من دين المسلم مع حرصه على المال والشرف في الدنيا الا القليل كما انه لا يسلم من الغنم مع افساد الذئبين المذكورين فيها الا القليل فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا (فاما الحرص) على المال فهو على نوعين أحدها شدة محبة المال مع شدة طلبه من وجوهه المباحة والمبالغة في طلبه والجد في تحصيله وا كتسابه من وجوهه مع الجهد والمشقة وقد ورد ان سبب الحديث كان وقوع بعض أفراد هذا النوع كما أخرجه الطبراني من حديث عاصم بن عدي رضى الله عنه قال اشتريت مائة سهم من سهام خيبر فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال «ماذئبان ضاريان ضلا في غنم أضاعها ربها بأفسد من طلب المسلم المال والشرف لدينه» قلت ولو لم يكن في الحرص على المال الا تضييع العمر الشريف الذى لا قيمة له وقد كان يمكن صاحبه فيه اكتساب الدرجات العلى والنعيم المقيم فضيعه بالحرص في طلب رزق مضمون مقسوم لايأتى منه الاماقدر وقسم ثم لاينتفع به بل يتركه لغيره ويرتحل عنه فيبقى حسابه عليه ونفعه لغيره فيجمع لمن لا يحمده ويقدم على من لايعذره لكفاه بذلك ذما للحرص فالحريص يضيع زمانه الشريف ويخاطر بنفسه التى لاقيمة لها في الاسفار وركوب الاخطار لجمع مال ينتفع به غيره كما قيل

ومن ينفق الايام في جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

قيل لبعض الحكماء ان فلانا جمع مالا فقال فهل جمع أياما ينفقه فيها قيل لا قال ما جمع شيئا☆وفى بعض الآثار الاسرائيلية الرزق مقسوم والحريص محروم ابن آدم اذا أفنيت عمرك في طلب الدنيا فمتى تطلب الآخرة

اذا كنت في الدنيا عن الخير عاجزا فما أنت في يوم القيامة صانع؟

قال ابن مسعود رضى الله عنه اليقين أن لاترضى الناس بسخط الله ولاتحسد أحدا على رزق الله ولاتلوم أحدا على مالم يؤتك الله فان الرزق لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهة كاره فان الله بقسطه جعل الروح والفرح في اليقين والرضى. وجعل الهم والحزن في الشك والسخط . وقال بعض السلف اذا كان القدر حقا فالحرص باطل واذا كان الغدر في الناس طبعا فالثقة بكل أحد عجز واذا كان الموت لكل أحد راصدا فالطمأنينة الى الدنيا حمق . كان عبدالواحد بن زيد يحلف بالله لحرص المرء على الدنيا أخوف عليه عندى من أعدى أعدائه وكان يقول يا أخوتاه لاتغبطوا حريصا على ثروته وسعته في مكسب ولا مال وانظروا له بعين المقت له في اشتغاله اليوم بما يرديه غدا في المعاد ثم يتكبر . وكان يقول الحرص حرصان حرص فاجع وحرص نافع فاما النافع فحرص المرء على طاعة

الله وأما الحرص الفاجع فحرص المرء على الدنيا فالحرص على الدنيا معذب صاحبه مشغول لايسر ولا يلذ بجمعه لشغله فلا يفرغ من محبة الدنيا لاخرته لالتفاته لما يفنى وغفلته عما يدوم ويبقى ولبعضهم في هذا المعنى

لاتغبطن أخا حرص على سعة ... وانظر اليه بعين الماقت القالى
ان الحريص لمشغول بثروته ... عن السرور بما يحوى من المال

ولآخر في هذا المعنى

ياجامعا مانعا والدهر يرمقه ... مفكرا أى باب منه يغلقه
جمعت مالا ففكر هل جمعت له ... يا جامع المال أياما تفرقه
المال عندك مخزون لوارثه ... ما المال مالك الا يوم تنفقه
ان القناعة من يحلل بساحتها ... لم يلق في ظلها هما يؤرقه

وكتب بعض الحكماء الى أخ له كان حريصا على الدنيا أما بعد فانك أصبحت حريصا على الدنيا تخدمها وهى تخرجك عن نفسها بالاعراض والامراض والآفات والعلل كأنك لم تر حريصا محروما ولا زاهدا مرزوقا ولا ميتا عن كثير ولا متبلغا من الدنيا باليسير * عاتب اعرابى أخاه على الحرص فقال له يا أخى أنت طالب ومطلوب يطلبك من لا تفوته وتطلب ما قد كفيته كانك يا أخى لم تر حريصا محروما ولا زاهدا مرزوقا * وقال بعض الحكماء أطول الناس هما الحسود وأهنؤهم عيشا القنوع وأصبرهم على الاذى الحريص وأخفضهم عيشا أرفضهم للدنيا وأعظمهم ندامة العالم المفرط ولبعضهم في هذا المعنى

الحرص داء قد أضـــر ... بمن ترى الا قليلا
كم من حريص طامع ... والحرص صيره ذليلا

غيره

كم أنت للحر ... ص والامانى عبد
ليس يجديك الحرص ... والسعى اذا لم يكن جد
مالما قدره الله ... من الامر بد

ولابى العتاهية يخاطب سلما الخاسر

تعالى الله ياسلم بن عمرو ... اذل الحرص اعناق الرجال

ومن كلام المأمون الحرص مفسدة للدين والمروءة وانشد بعضهم

حرص الحريص جنون ... والصبر حصن حصين
ان قدر الله شيئا ... فانه سيكون

ونازح الدار لاينفك مغتربا عن الاحبة لايدرون بالحال
بمشرق الارض طورا ثم مغربها لايخطر الموت من حرص على بال
ولو قنعت اتاك الرزق في دعة ان القنوع الغنى لا كثرة المال

ولمحمود الوراق

ايها المتعب جهدا نفسه يطلب الدنيا حريصاً جاهدا
لالك الدنيا ولا أنت لها فاجعل الهمين هما واحدا

(النوع الثانى) من الحرص على المال ان يزيد على ماسبق ذكره في النوع الاول حتى يطلب المال من الوجوه المحرمة ويمنع الحقوق الواجبة فهذا من الشح المذموم قال الله تعالى (ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون)[١] وفي سنن أبي داود عن عبدالله بن عمر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « اتقوا الشح فان الشح اهلك من كان قبلكم أمرهم بالقطيعة فقطعوا وامرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا » وفي صحيح مسلم عن جابر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « اتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » قال طائفة من العلماء الشح هو الحرص الشديد الذى يحمل صاحبه على أن يأخذ الاشياء من غير حلها و يمنعها حقوقها. وحقيقته ان تتشوف النفس الى ماحرم الله ومنع منه وان لايقنع الانسان بما احله الله له من مال او فرج أوغيرهما فان الله تعالى احل لنا الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح وحرم تناول هذه الاشياء من غير وجوه حلها واباح لنا دماء الكفار والمحاربين واموالهم وحرم علينا ماعدا ذلك من الخبائث من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح وحرم علينا اخذ الاموال وسفك الدماء بغير حقها فمن اقتصر على ماأبيح له فهو مؤمن ومن تعدى ذلك الى مامنع منه فهو الشح المذموم وهو مناف للايمان ولهذا اخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان الشح يأمر بالقطيعة والفجور وبالبخل والبخل هو امساك الانسان مافي يده والشح تناول ما ليس له ظلما وعدوانا من مال أوغيره حتى قيل انه رأس المعاصى كلها وبهذا فسر ابن مسعود رضى الله عنه وغيره من السلف الشح والبخل ومن هنا يعلم معنى حديث ابى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال « لا يجتمع الشح والايمان في قلب مؤمن » والحديث الآخر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال « افضل الايمان الصبر والسماحة »[٢] وفسر الصبر بالصبر عن المحارم والسماحة باداء الواجبات وقد يستعمل

١ ـ الحشر ٩
التغابن ١٦

الشح بمعنى البخل وبالعكس ولكن الاصل هو التفريق بينهما على ماذكرناه ومتى وصل الحرص على المال الى هذه الدرجة نقص بذلك الدين والايمان نقصا بينا فان منع الواجبات وتناول المحرمات ينقص بهما الدين والايمان بلا ريب حتى لايبقى منه الا القليل ☆

(فصل) وأما حرص المرء على الشرف فهو شد إهلاكا من الحرص على المال فان طلب شرف الدنيا والرفعة فيها والرياسة على الناس والعلو فى الارض اضر على العبد من طلب المال وضرره اعظم والزهد فيه أصعب فان المال يبذل في طلب الرياسة والشرف ☆ والحرص على الشرف على قسمين احدهما طلب الشرف بالولاية والسلطان والمال وهذا خطر جدا وهو في الغالب يمنع خير الآخرة وشرفها وكرامتها وعزها قال الله تعالى (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا في الارض ولافسادا والعاقبة للمتقين) وقل من يحرص على رياسة الدنيا بطلب الولايات فيوفق بل يوكل الى نفسه كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه «ياعبدالرحمن لاتسأل الامارة فانك ان اعطيتها عن مسئلة وكلت اليها وان اعطيتها عن غير مسئلة أعنت عليها» قال بعض السلف ماحرص أحد على ولاية فعدل فيها . وكان يزيد بن عبدالله بن موهب من قضاة العدل والصالحين وكان يقول من احب المال والشرف وخاف الدوائر لم يعدل فيها .وفي صحيح البخارى عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «انكم ستحرصون على الامارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة »وفيه ايضا عن ابى موسى الاشعرى رضى الله عنه ان رجلين قالا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يارسول الله أمرنا قال « انا لانولى أمرنا هذا من سأله ولامن حرص عليه» واعلم ان الحرص على الشرف يستلزم ضررا عظيما قبل وقوعه فى السعى في اسبابه وبعد وقوعه بالحرص العظيم الذى يقع فيه صاحب الولاية من الظلم والتكبر وغير ذلك من المفاسد . وقد صنف ابو بكر الآجرى وكان من العلماء الربانيين في اوائل المائة الرابعة مصنفا في اخلاق العلماء وآدابهم وهو من أجل ماصنف في ذلك (١) ومن تأمله علم منه طريقة السلف من العلماء والطرائق التى حدثت بعدهم المخالفة لطريقتهم فوصف فيه عالم السوء بأوصاف طويلة . منها انه قال قد فتنه حب الثناء والشرف والمنزلة عند أهل الدنيا يتجمل بالعلم كما يتجمل بالحلة الحسناء للدنيا ولا يجمل علمه بالعمل به وذكر كلاما طويلا الى أن قال فهذه الاخلاق ومايشبهها تغلب على قلب من لم ينتفع بالعلم فبيناهو مقارب لهذه الاخلاق

(١) سنقوم بطبعه قريبا ان شاء الله تعالى

اذ ذهبت نفسه في حب الشرف والمنزلة فأحب مجالسة الملوك وابناء الدنيا وأحب ان يشاركهم فيما هم فيه من رخاء عيشهم من منظر بهى ومركب هنى وخادم سرى ولباس لين وفراش ناعم وطعام شهى وأحب أن يغشى بابه وان يسمع قوله ويطاع أمره فلم يقدر عليه الامن جهة القضاء فطلبه فلم يمكنه الا ببذل دينه فتذلل للملوك وأتباعهم فخدمهم بنفسه وا كرمهم بماله وسكت عن قبيح ماظهر له من الدخول في ايواناتهم وفي منازلهم من افعالهم ثم قد زين لهم كثيرا من قبيح فعلهم بتأوله الخطأ ليحسن موقفه عندهم فلما فعل هذا مدة طويلة واستحكم فيه الفساد ولوه القضاء فذبح بغير سكين فصارت لهم عليه منة عظيمة ووجب عليه شكرهم فآلم نفسه لئلا يغضبهم عليه فيعزلوه عن القضاء ولم يلتفت الى غضب مولاه فاقتطع اموال اليتامى والارامل والفقراء والمساكين وأموال الوقف على المجاهدين وأهل الشرف بالحرمين واموالا يعود نفعها على جميع المسلمين فارضى بها الكاتب والحاجب والخادم فأكل الحرام واطعم الحرام وكثر الداعي عليه فالويل لمن اورثه علمه هذه الاخلاق وهذا العلم هو الذي استعاذ منه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وامر أن يستعاذ منه وهذا العالم الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم «ان أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه» وكان صلى الله عليه وسلم يقول «اللهم انى أعوذ بك من علم لاينفع ومن قلب لايخشع ومن نفس لاتشبع ومن دعاء لايسمع» وكان عليه السلام يقول «اللهم انى أسئلك علما نافعا وأعوذ بك من علم لا ينفع» هذا كله كلام الامام أبي بكر الآجرى رحمه الله تعالى وكان في أواخر الثلاثمائة ولم يزل الفساد بعده متزايدا على ماذكرناه اضعافا مضاعفة فلاحول ولا قوة الا بالله☆

ومن دقيق آفات حب الشرف طلب الولايات والحرص عليها وهو باب غامض لايعرفه الاالعلماء بالله العارفون به المحبون له الذين يعادون له من جهال خلقه المزاحمين لربوبيته وإلهيته مع حقارتهم وسقوط منزلتهم عندالله وعند خواص عباده العارفين به كما قال الحسن رحمه الله فيهم انهم وان طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين فان ذل المعصية في رقابهم أبى الله الا أن يذل من عصاه : واعلم ان حب الشرف بالحرص على نفوذ الامر والنهى وتدبير أمر الناس اذاقصد بذلك مجرد علو المنزلة على الخلق والتعاظم عليهم واظهار صاحب هذا الشرف حاجة الناس وافتقارهم اليه وذلهم له في طلب حوائجهم منه فهذا نفسه مزاحمة لربوبية الله والهيته وربما تسبب بعض هؤلاء الى ايقاع الناس في أمر يحتاجون فيه اليه ليضطرهم بذلك الى رفع حاجاتهم اليه وظهور افتقارهم واحتياجهم اليه ويتعاظم بذلك

ويتكبر به وهذا لا يصلح الا لله وحده لاشريك له كما قال تعالى (ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فاخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون) وقال (وما أرسلنا في قرية من نبي الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون) وفي بعض الآثار ان الله تعالى يبتلي عبده بالبلاء ليسمع تضرعه . وفي الآثار أيضا ان العبد اذا دعا الله تعالى وهو يحبه قال الله تعالى يا جبريل لا تعجل بقضاء حاجته فاني أحب أن أسمع تضرعه فهذه الأمور أصعب وأخطر من مجرد الظلم وأدهى وأمر من الشرك والشرك أعظم الظلم عند الله. وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال «يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني فيهما عذبته» . كان بعض المتقدمين قاضيا فرأى في منامه كأن قائلا يقول له أنت قاض والله قاض فاستيقظ منزعجا وخرج عن القضاء وتركه. وكان طائفة من القضاة الورعين يمنعون الناس أن يدعوهم بقاضي القضاة فان هذا الاسم يشبه ملك الملوك الذى ذم النبي صلى الله عليه وآله وسلم التسمية به وقال «لا مالك الا الله» وحاكم الحكام مثله أو أشد منه. ومن هذا الباب أيضا ان يحب ذو الشرف والولاية أن يحمد على أفعاله ويثنى عليه بها ويطلب من الناس ذلك ويتسبب في أذى من لا يجيبه اليه وربما كان ذلك الفعل الى الذم أقرب منه الى المدح وربما اظهر أمرا حسنا في الظاهر وأحب المدح عليه وقصد به في الباطن شرا وفرح بتمويه ذلك وترويجه على الخلق وهذا يدخل في قوله تعالى (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا و يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) الا يةفان هذه الآية انما نزلت فيمن هذه صفاته وهذا الوصف أعني طلب المدح من الخلق ومحبته والعقوبة على تركه لا يصلح الا لله وحده لاشريك له ومن هنا كان أئمة الهدى ينهون عن حمدهم على أعمالهم وما يصدر منهم من الاحسان الى الخلق ويأمرون باضافة الحمد على ذلك لله وحده لاشريك له فان النعم كلها منه . وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله شديد العناية بذلك وكتب مرة الى أهل الموسم كتابا يقرأ عليهم وفيه الامر بالاحسان اليهم وازالة المظالم التى كانت عليهم وفي الكتاب ولا تحمدوا على ذلك الا الله فانه لو وكلني الى نفسي كنت كغيري وحكايته مع المرأة التى طلبت منه أن يفرض لبناتها اليتامى مشهورة فانها كانت لها أربع بنات ففرض لاثنتين منهن وهي تحمد الله ثم فرض للثالثة فشكرته فقال انما كنا نفرض لهن حيث كنت تولين الحمد أهله فمرى هذه الثلاث يواسين الرابعة أو كما قال رضى الله عنه أراد ان يعرف ان ذا الولاية انما هو منتصب لتنفيذ أمر الله وآمر العباد بطاعته تعالى وناه

لهم عن محارم الله ناصح لعباد الله بدعائهم الى الله فهو يقصد ان يكون الدين كله لله وان تكون العزة لله وهو مع ذلك خائف من التقصير في حقوق الله تعالى أيضا فالمحبون لله غاية مقاصدهم من الخلق أن يحبوا الله ويطيعوه ويفردوه بالعبودية والالهية فكيف من يزاحمه في شيء من ذلك فهو لايريد من الخلق جزاءا ولا شكورا وانما يرجو ثواب عمله من الله كما قال الله تعالى (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون)[1] وقال صلى الله عليه وآله وسلم « لاتطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم انما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله » وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينكر على من لا يتأدب معه في الخطاب بهذا الادب كما قال « لاتقولوا ماشاء الله وشاء محمد بل قولوا ماشاء الله ثم ماشاء محمد » وقال لمن قال ماشاء الله وشئت « أجعلتني لله ندا بل ماشاء الله وحده » فمن هنا كان خلفاء الرسل وأتباعهم من امراء العدل واتباعهم وقضاتهم لايدعون الى تعظيم نفوسهم البتة بل الى تعظيم الله وحده وافراده بالعبودية والالهية ومنهم من كان لا يريد الولاية الا للاستعانة بها على الدعوة الى الله وحده وكان بعض الصالحين يتولى القضاء ويقول الا أتولاه لاستعين به على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ ولهذا كانت الرسل وأتباعهم يصبرون على الاذى في الدعوة الى الله ويتحملون في تنفيذ أوامر الله من الخلق غاية المشقة وهم صابرون بل راضون بذلك فان المحب ربما يتلذذ بما يصيبه من الاذى في رضى محبوبه كما كان عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله يقول لابيه في خلافته اذا حرص على تنفيذ الحق واقامة العدل يا أبت لوددت أني غلت بي وبك القدور في الله عز وجل * وقال بعض الصالحين وددت ان جسمي قرض بالمقاريض وان هذا الخلق كلهم أطاعوا الله عز وجل فعرض قوله على بعض العارفين فقال ان كان اراد بذلك النصيحة للخلق والا فلا ادرى ثم غشي عليه * ومعنى هذا ان صاحب هذا القول قد يكون لحظ نصح الخلق والشفقة عليهم من عذاب الله وأحب ان يفديهم من عذاب الله بأذى نفسه وقد يكون لحظ جلال الله وعظمته ومايستحقه من الاجلال والاكرام والطاعة والمحبة فود أن الخلق قاموا بذلك وان حصل له في نفسه غاية الضرر وهذا هو مشهد خواص المحبين العارفين بملاحظته فغشي على هذا الرجل العارف وقد وصف الله تعالى في كتابه ان المحبين له يجاهدون في سبيل ولايخافون لومة لائم. وفي ذلك يقول بعضهم

[1] ـ ال عمران ٧٩ ـ ٨٠

أجد الملامة في هواك لذيذة حبا لذكرك فليلمنى اللوم

(القسم الثانى) طلب الشرف والعلو على الناس بالامور الدينية كالعلم والعمل والزهد فهذا افحش من الاول واقبح وأشد فساداً وخطرا فان العلم والعمل والزهد انما يطلب به ماعند الله من الدرجات العلى والنعيم المقيم والقرب منه والزلفى لديه . قال الثورى أنما فضل العلم لانه يتقى به الله والا كان كسائر الاشياء فاذا طلب بشيء من هذا عرض الدنيا الفانى فهو ايضا نوعان * احدهما ان يطلب به المال فهذا من نوع الحرص على المال وطلبه بالاسباب المحرمة وفي هذا جاء الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم « من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه الا ليصيب به عرضا في الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » يعنى ريحها خرجه الامام احمد وابو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم وسبب هذا والله اعلم ان في الدنيا جنة معجلة وهى معرفة الله ومحبته والانس به والشوق الى لقائه وخشيته وطاعته والعلم النافع يدل على ذلك فمن دله علمه على دخول هذه الجنة المعجلة في الدنيا دخل الجنة في الآخرة ومن لم يشم رائحتها لم يشم رائحة الجنة في الآخرة ولهذا كان اشد الناس عذابا في الآخرة عالم لم ينفعه الله بعلمه وهو من أشد الناس حسرة يوم القيامة حيث كان معه آلة يتوصل بها الى أعلى الدرجات وارفع المقامات فلم يستعملها إلا في التوصل الى اخس الامور وادناها واحقرها فهو كمن كان معه جواهر نفيسة لها قيمة فباعها ببعرة اوشيء مستقذر لا ينتفع به فهذا حال من يطلب الدنيا بعلمه بل أقبح واقبح من ذلك من يطلبها باظهار الزهد فيها فان ذلك خداع قبيح جدا . وكان ابو سليمان الدارانى يعيب على من لبس عباءة وفي قلبه شهوة من شهوات الدنيا تساوى اكثر من قيمة العباءة يشير الى ان اظهار الزهد في الدنيا باللباس الدينى أنما يصلح لمن فرغ قلبه من التعلق بها بحيث لا يتعلق قلبه بها باكثر من قيمة ما لبسه في الظاهر حتى يستوى ظاهره وباطنه في الفراغ من الدنيا وما أحسن قول بعض العارفين وقد سئل عن الصوفي فقال الصوفي من لبس الصوف على الصفا * وسلك طريق المصطفى * وذاق الهوى بعد الجفا * وكانت الدنيا منه خلف القفا *

(النوع الثانى) من يطلب بالعلم والعمل والزهد الرياسة على الخلق والتعاظم عليهم وان ينقاد الخلق ويخضعون له ويصرفون وجوههم اليه وان يظهر للناس زيادة علمه على العلماء

ليعلو به عليهم ونحو ذلك فهذا موعده النار لان قصد التكبر على الخلق محرم في نفسه فاذا استعمل فيه آلة الآخرة كان أقبح وأفحش من ان يستعمل فيه آلات الدنيا من المال والسلطان. وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «من طلب العلم ليماري به السفهاء أو يجاري به العلماء أو يصرف وجوه الناس اليه أدخله الله النار» خرجه الامام أحمد والترمذي من حديث كعب بن مالك. وخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر رضي الله عنه وحذيفة رضي الله عنه وعنده «فهو في النار» وخرج ابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا لتحيزوا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار» وخرجه ابن عدي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنحوه وزاد فيه «ولكن تعلموه لوجه الله والدار الآخرة» وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال «لا تعلموا العلم لثلاث لتماروا به السفهاء أو لتجادلوا به الفقهاء أو لتصرفوا به وجوه الناس اليكم وابتغوا بقولكم وفعلكم ما عند الله فانه يبقى ويفنى ما سواه» وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ان أول الخلق تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة منهم العالم الذي قرأ القرآن ليقال قارىء وتعلم العلم ليقال عالم وانه يقال له قد قيل ذلك وامر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار» وذكر مثل ذلك في المتصدق ليقال انه جواد وفي المجاهد ليقال انه شجاع * وعن علي رضي الله عنه قال يا حملة العلم اعملوا به فانما العالم من عمل بما علم فوافق عمله علمه وسيكون اقوام يحملون العلم لايجاوز تراقيهم يخالف علمهم عملهم ويخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون حلقا حلقا فيباهي بعضهم بعضاً حتى ان الرجل ليغضب على جليسه اذا جلس إلى غيره ويدعه اولئك لاتصعد أعمالهم في مجالسهم تلك الى الله عز وجل * وقال الحسن لايكون حظ احدكم من علمه ان يقول له الناس عالم. وفي بعض الآثار ان عيسى عليه الصلاة والسلام قال كيف يكون من أهل العلم من يطلب العلم ليحدث به ولا يطلبه ليعمل به: وقال بعض السلف بلغنا أن الذي يطلب الاحاديث ليحدث بها لا يجد ريح الجنة يعني من ليس له غرض في طلبها الا ان يحدث بها دون العمل بها. ومن هذا القبيل كراهة السلف الصالح الجرءة على الفتيا والحرص عليها والمسارعة اليها والاكثار منها. وروى ابن لهيعة عن عبدالله بن جعفر مرسلا عن النبي صلى الله عليه وآله

وسلم قال «اجرؤكم على الفتيا اجرؤكم على النار» وقال علقمة كانوا يقولون اجرؤكم على الفتيا اقلكم علما. وعن البراء قال أدركت عشرين ومائة من الانصار من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسئل أحدهم عن المسئلة مامنهم من رجل الاود أن اخاه كفاه. وفي رواية فيردها هذا الى هذا وهذا الى هذا حتى يرجع الى الاول. وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال ان الذي يفتي الناس في كل مايستفتونه به لمجنون. وسئل عمر بن عبدالعزيز عن مسئلة فقال ماأنا على الفتيا بجرىء وكتب الى بعض عماله انى والله ماانا بحريص على الفتيا ماوجدت منها بدا وقال ابن عيينة ليس هذا الامر لمن ود أن الناس احتاجوا اليه انما هذا الامر لمن ود أنه وجد من يكفيه. وعنه انه قال اعلم الناس بالفتاوى اسكتهم وأجهلهم بها انطقهم. وقال سفيان الثورى ادركنا الفقهاء وهم يكرهون ان يجيبوا في المسائل والفتيا حتى لايجدوا بداً من ان يفتوا واذا اعفوا منها كان احب اليهم. وقال الامام احمد من عرض نفسه للفتيا فقد عرضها لامر عظيم الا انه قد تلجيء اليه الضرورة قيل له فايما افضل الكلام ام السكوت قال الامساك احب الى قيل له فاذا كانت الضرورة فجعل يقول الضرورة الضرورة وقال الامساك اسلم له وليعلم المفتى انه يوقع عن الله امره ونهيه وانه موقوف ومسئول عن ذلك. قال الربيع بن خيثم أيها المفتون انظروا كيف تفتون. وقال عمرو بن دينار لقتادة لما جلس للفتيا تدرى في أى عمل وقعت وقعت بين الله وبين عباده وقلت هذا يصلح وهذا لايصلح. وعن ابن المنكدر قال ان العالم داخل بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل بينهم. وكان ابن سيرين اذا سئل عن الشيء من الحلال والحرام تغيرلونه وتبدل حتى كأنه ليس بالذى كان. وكان النخعي يسأل فتظهر عليه الكراهة ويقول ماوجدت احدا تسأله غيرى وقال قد تكلمت ولووجدت بدا ماتكلمت وان زمانا اكون فيه فقيه اهل الكوفة لزمان سوء. وروى عن عمر رضى الله عنه انه قال انكم لتستفتوننا استفتاء نود كأنا لانسئل عما نفتيكم به. وعن محمد بن واسع قال اول من يدعى الى الحساب الفقهاء وعن مالك رضى الله عنه انه كان اذا سئل عن المسئلة كأنه واقف بين الجنة والنار. وقال بعض العلماء لبعض المفتين اذا سئلت عن مسئلة فلا يكن همك تخليص السائل ولكن تخليص نفسك أولا. وقال لآخر اذا سئلت عن مسئلة فتفكر فان وجدت لنفسك مخرجا فتكلم والا فاسكت. وكلام السلف في هذا المعنى كثير جدا يطول ذكره واستقصاؤه.

ومن هذا الباب أيضا كراهة الدخول على الملوك والدنو منهم وهو الباب الذى يدخل منه علماء الدنيا الى نيل الشرف والرياسات فيها . وخرج الامام احمد وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث ابن عباس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى أبواب السلاطين افتتن » وخرج أحمد وأبو داود نحوه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه واله وسلم. وفي حديثه « وما ازداد أحد من السلطان دنوا الا ازداد من الله بعدا » وخرج ابن ماجه من حديث ابن عباس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « ان أناسا من أمتى سيتفقهون في الدين ويقرؤون القرآن ويقولون نأتى الامراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا ولا يكون ذلك كما لا يجتنى من القتاد الا الشوك كذلك لا يجتنى من قربهم الا الخطايا » وخرجه الطبراني ولفظه « ان أناسا من أمتي يقرؤن القرآن ويتعمقون في الدين يأتيهم الشيطان يقول لو أتيتم الملوك فاصبتم من دنياهم واعتزلتموهم بدينكم الا ولا يكون ذلك كما لا يجتنى من القتاد الا الشوك كذلك لا يجتنى من قربهم الا الخطايا » وخرج الترمذى من حديث ابى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه واله وسلم قال « تعوذوا بالله من جب الحزن قالوا وما جب الحزن قال واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم مائة مرة قيل يارسول الله من يدخله قال القراء المراءون بأعمالهم » وخرج ابن ماجه نحوه وزاد فيه « وان من أبغض القراء الى الله الذين يزورون الامراء الجورة » . ويروى من حديث على رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه واله وسلم نحوه . ومن أعظم ما يخشى على من يدخل على الملوك الظلمة أن يصدقهم بكذبهم ويعينهم على ظلمهم ولو بالسكوت عن الانكار عليهم فان من يريد بدخوله عليهم الشرف والرياسة وهو حريص عليهما لا يقدم على الانكار عليهم بل ربما حسن لهم بعض أفعالهم القبيحة تقربا اليهم ليحسن موقفه عندهم ويساعدوه على غرضه. وقد خرج الامام احمد والترمذى والنسائى وابن حبان في صحيحه من حديث كعب بن عجرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه واله وسلم قال « سيكون بعدى أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه وليس بوارد على الحوض ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو مني وأنا منه وهو وارد على الحوض » وخرج الامام احمد معنى هذا الحديث من حديث حذيفة رضى الله عنه وابن عمر رضى الله عنه وخباب بن الارت وأبى سعيد الخدرى والنعمان بن بشير رضى الله عنهم . وقد كان كثير من السلف ينهون عن الدخول على

الملوك لمن أرادأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر أيضا . وممن نهى عن ذلك عمر بن عبد العزيز وابن المبارك والثورى وغيرهم من الائمة . وقال ابن المبارك ليس الآمر الناهى عندنا من دخل عليهم فأمرهم ونهاهم انما الآمر الناهى من اعتزلهم وسبب هذا ما يخشى من فتنة الدخول عليهم فان النفس قد تخيل للانسان اذا كان بعيدا عنهم أنه يأمرهم وينهاهم ويغلظ عليهم فاذا شاهدهم قريبا مالت النفس اليهم لان محبة الشرف كامنة في النفس له ولذلك يداهنهم ويلاطفهم وربما مال اليهم وأحبهم ولا سيما ان لاطفوه وأكرموه وقبل ذلك منهم . وقد جرى ذلك لعبدالله بن طاوس مع بعض الامراء بحضرة أبيه طاوس فوبخه طاوس على فعله ذلك . وكتب سفيان الثورى الى عباد بن عباد وكان في كتابه اياك والامراء أن تدنو منهم أو تخالطهم في شيء من الاشياء واياك أن تخدع ويقال لك لتشفع وتدرء عن مظلوم أو ترد مظلمة فان ذلك خديعة ابليس وانما اتخذها فجار القراء سلما وما كفيت عن المسئلة والفتيا فاغتنم ذلك ولا تنافسهم واياك أن تكون ممن يحب أن يعمل بقوله أو ينشر قوله أو يسمع قوله فاذا ترك ذلك منه عرف فيه واياك وحب الرياسة فان الرجل يكون حب الرياسة أحب اليه من الذهب والفضة وهو باب غامض لا يبصره الا البصير من العلماء السماسرة فتفقد بقلب واعمل بنية واعلم انه قد دنا من الناس أمر يشتهى الرجل ان يموت والسلام . ومن هذا الباب أيضا كراهة أن يشهر الانسان نفسه للناس بالعلم والزهد والدين أو باظهار الاعمال والاقوال والكرامات ليزار وتلتمس بركته ودعاؤه وتقبل يده وهو محب لذلك ويقيم عليه ويفرح به ويسعى فى أسبابه ومن هنا كان السلف الصالح يكرهون الشهرة غاية الكراهة منهم أيوب والنخعي وسفيان وأحمد وغيرهم من العلماء الربانيين وكذلك الفضيل وداود الطائى وغيرهما من الزهاد والعارفين وكانوا يذمون أنفسهم غاية الذم ويسترون أعمالهم غاية الستر . دخل رجل على داود الطائى فسأله ما جاء بك فقال جئت لازورك فقال اما أنت فقد أصبت خيرا حيث زرت في الله ولكن أنا انظر ماذا لقيت غدا اذا قيل لى من أنت حتى تزار من الزهاد أنت لا والله من العباد أنت لا والله من الصالحين أنت لا والله وعدد خصال الخير على هذا الوجه ثم جعل يوبخ نفسه ويقول ياداود كنت في الشبيبة فاسقا فلما شبت صرت مرائيا والمرائى شر من الفاسق . وكان محمد ابن واسع يقول لو أن للذنوب رائحة ما استطاع أحد أن يجالسنى . وكان ابراهيم النخعي اذا دخل عليه أحد وهو يقرأ في المصحف غطاه . وكان أويس وغيره من الزهاد اذا عرفوا في مكان ارتحلوا عنه . وكان كثير من السلف يكره أن يطلب منه الدعاء ويقول لمن يسأله الدعاء

أي شيء أنا . وممن روى عنه ذلك عمر بن الخطاب وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما وكذلك مالك بن دينار . وكان النخعي يكره أن يسأل الدعاء وكتب رجل الى أحمد يسأله الدعاء فقال احمد اذا دعونا نحن لهذا فمن يدعو لنا . ووصف بعض الصالحين اجتهاده في العبادة لبعض الملوك فعزم على زيارته فبلغه ذلك فجلس على قارعة الطريق يأكل فوافاه الملك وهو على تلك الحالة فسلم عليه فرد عليه السلام وجعل يأكل أكلا كثيرا ولا يلتفت الى الملك فقال الملك مافي هذا خير ورجع فقال الرجل الحمد لله الذي رد هذا عني وهو لائم. وهذا باب واسع جدا وهنا نكتة دقيقة وهي ان الانسان قد يذم نفسه بين الناس يريد بذلك أن يرى الناس انه متواضع عند نفسه فيرتفع بذلك عندهم و يمدحونه به وهذا من دقائق أبواب الرياء وقد نبه عليه السلف الصالح قال مطرف بن عبدالله بن الشخير كفى بالنفس اطراء أن تذمها على الملأ لأنك تريد بذمها زينتها وذلك عند الله سفه ٭

(فصل) وقد تبين بما ذكرنا ان حب المال والرياسة والحرص عليهما يفسد دين المرء حتى لا يبقى منه الا ما شاء الله كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأصل محبة المال والشرف حب الدنيا وأصل حب الدنيا اتباع الهوى . قال وهب بن منبه من اتباع الهوى الرغبة في الدنيا ومن الرغبة فيها حب المال والشرف ومن حب المال والشرف استحلال المحارم وهذا كلام حسن فانه حب يحمل المال والشرف على الرغبة في الدنيا وانما تحصل الرغبة في الدنيا من اتباع الهوى لان الهوى داع الى الرغبة في الدنيا وحب المال والشرف فيها والتقوى يمنع من اتباع الهوى وتردع عن حب الدنيا . قال الله تعالى (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى)[1] وقد وصف الله تعالى أهل النار بالمال والسلطان في مواضع من كتابه فقال تعالى (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه)[2] واعلم ان النفس تحب الرفعة والعلو على أبناء جنسها ومن هنا نشأ الكبر والحسد ولكن العاقل ينافس في العلو الدائم الباقي الذي فيه رضوان الله وقربه وجواره ويرغب عن العلو الفاني الزائل الذي يعقبه غضب الله وسخطه وانحطاط العبد وسفوله وبعده عن الله وطرده عنه فهذا العلو الثاني الذي يذم وهو العتو والتكبر في الارض بغير الحق . واما العلو الاول والحرص عليه فهو محمود قال الله تعالى (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون)[3] وقال

١ ـ النازعات ٣٧ ـ ٤٠
٢ ـ الحاقة ٢٥ ـ ٩
٣ ـ المطففين ٢٦

الحسن اذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة . وقال وهيب بن الوردان استطعت أن لا يسبقك الى الله أحد فافعل . وقال محمد بن يوسف الاصبهاني العابد لو أن رجلا سمع برجل أو عرف رجلا أطوع لله منه كان ينبغي له ان يحزنه ذلك وقال غيره لو أن رجلا سمع برجل أو عرف رجلا أطوع لله منه فانصدع قلبه لم يكن ذلك بعجب . وقال رجل لمالك بن دينار رأيت في المنام مناديا ينادى أيها الناس الرحيل الرحيل فما رأيت أحدا ارتحل الا محمد بن واسع فصاح مالك وغشى عليه ففى درجات الآخرة الباقية يشرع التنافس وطلب العلو في منازلها والحرص على ذلك بالسعي في أسبابه وان لا يقنع الانسان منها بالدون مع قدرته على العلو وأما العلو الفانى المنقطع الذى يعقب صاحبه غداً حسرة وندامة وذلة وهو اناو صغارا فهو الذى يشرع الزهد فيه والاعراض عنه وللزهد فيه أسباب عديدة . فمنها نظر العبد الى سوء عاقبة الشرف في الدنيا بالولاية والامارة لمن لا يؤدى حقها في الآخرة . ومنها نظر العبد الى عقوبة الظالمين والمتكبرين ومن ينازع الله رداء الكبرياء . وفي السنن عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون الى سجن في جهنم يقال له بولس (١) تعلوهم نار الانيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال » وخرجه الترمذى وغيره من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم . وفي رواية لغيره من وجه آخر في هذا الحديث « يطؤهم الناس بأقدامهم » وفي رواية أخرى من وجه آخر « يطؤهم الجن والانس والدواب بأرجلها حتى يقضى الله بين عباده » واستأذن رجل عمر رضى الله عنه في القصص على الناس فقال له انى أخاف ان تقص عليهم فترتفع عليهم في نفسك حتى يضعك الله تحت أرجلهم يوم القيامة ومنها نظر العبد الى ثواب المتواضعين لله في الدنيا بالرفعة في الآخرة فان من تواضع لله رفعه ومنها وليس هو في قدرة العبد ولكنه من فضل الله ورحمته ما يعوض الله عباده العارفين به الزاهدين فيما يفنى من المال والشرف مما يعجله الله لهم في الدنيا من شرف التقوى وهيبة الخلق لهم في الظاهر ومن حلاوة المعرفة والايمان والطاعة في الباطن وهى الحياة الطيبة التى وعدها الله لمن عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن وهذه الحياة الطيبة لم يذقها الملوك في الدنيا

(١) بضم الباء وفتح اللام كذا ضبطه صاحب القاموس

ولا أهل الرياسات والحرص على الشرف كما قال ابراهيم بن أدهم رحمه الله لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجادلونا عليه بالسيوف. ومن رزقه الله ذلك اشتغل به عن طلب الشرف الزائل والرياسة الفانية . قال الله تعالى (ولباس التقوى ذلك خير)[١] وقال (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا)[٢] وفي بعض الآثار يقول الله عز وجل « انا العزيز فمن أراد العزة فليطع العزيز ومن أراد عز الدنيا والآخرة وشرفهما فعليه بالتقوى » وكان حجاج بن ارطاة يقول قتلني حب الشرف فقال له سوار لو اتقيت الله شرفت .وفي هذا المعنى شعر

ألا انما التقوى هي العز والـكرم وحبك للدنيا هو الذل والسقم

وليس على عبـــد تقي نقيصة اذا حقق التقوى وان حاك أو حجم

وقال صالح الباجي الطاعة امرة والمطيع لله أمير مؤمر على الامراء ألا ترى هيبته في صدورهم ان قال قبلوا وان أمر أطاعوا ثم يقول يحق لمن أحسن خدمتك ومنت عليه بمحبتك ان تذلل له الجبابرة حتى يهابوه لهيبته في صدورهم من هيبتك في قلبه وكل الخير من عندك بأوليائك .وقال بعض السلف الصالح من أسعد بالطاعة من مطيع الا وكل الخير في الطاعة الا وان المطيع لله ملك في الدنيا والآخرة .وقال ذو النون من أكرم وأعز ممن انقطع الى من ملك الاشياء بيده. دخل محمد بن سليمان أمير البصرة على حماد بن سلمة وقعد بين يديه يسأله فقال له يا أبا سلمة مالي كلما نظرت اليك ارتعدت فرقا منك قال لان العالم اذا أراد بعلمه وجه الله خافه كل شيء وان أراد ان يكثر به الكنوز خاف من كل شيء . ومن هذا قول بعضهم على قدر هيبتك لله يخافك الخلق وعلى قدر محبتك لله يحبك الخلق وعلى قدر اشتغالك بالله تشتغل الخلق باشغالك. وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوما يمشي ووراءه قوم من كبار المهاجرين فالتفت فرآهم فخروا على ركبهم هيبة له فبكى عمر رضى الله عنه وقال اللهم انك تعلم اني اخوف لك منهم فاغفر لي . وكان العمري الزاهد قد خرج الى الكوفة الى الرشيد ليعظه وينهاه فوقع الرعب في عسكر الرشيد لما سمعوا بنزوله حتى لو نزل بهم عدو مائة الف نفس لما زادوا على ذلك وكان الحسن لا يستطيع أحد أن يسأله هيبة له وكان خواص أصحابه يجتمعون ويطلب بعضهم من بعض أن يسألوه عن المسئلة فاذا حضروا مجلسه لم يجسروا على سؤاله حتى ربما مكثوا على ذلك سنة كاملة هيبة له .وكذلك كان مالك بن أنس يهاب أن يسأل حتى قال فيه القائل

يدع الجواب ولا يراجع هيبة والسائلون نواكس الاذقان

١ ـ الاعراف ٢٦
٢ ـ فاطر ١٠

نور الوقار وعز سلطان التقى فهو المهيب وليس ذا سلطان

وكان بديل العقيلي يقول من أراد بعلمه وجه الله تعالى أقبل الله عليه بوجهه وأقبل بقلوب العباد عليه ومن عمل لغير الله صرف الله وجهه عنه وصرف قلوب العباد عنه * وقال محمد بن واسع اذا أقبل العبد بقلبه على الله أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين * وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله طلقت الدنيا ثلاثا بتاً لارجعة لى فيها وصرت الى ربى وحدى وناديته بالاستعانة الهى ادعوك دعاء من لم يبق له غيرك فلما عرف صدق الدعاء من قلبي واليأس من نفسى كان اول ماورد على من اجابة هذا الدعاء أن انسانى نفسى بالكلية ونصب الخلائق بين يدى مع اعراضى عنهم وكان يزار من البلدان فلما رأى ازدحام الناس عليه قال

وليتنى صرت شيئا من غير شىء اعد
اصبحت للكل مولى لاننى لك عبد
وفي الفؤاد امور ماتستطاع تعد
لكن كتمان حالى احق بى واسد

كتب وهب بن منبه الى مكحول اما بعد فانك اصبت بظاهر علمك عند الناس شرفا ومنزلة فاطلب بباطن علمك عند الله منزلة وزلفى واعلم ان احدى المنزلتين تمنع من الاخرى . ومعنى هذا ان العلم الظاهر من تعلم الشرائع والاحكام والفتاوى والقصص والوعظ ونحو ذلك مما يظهر للناس يحصل به لصاحبه عندهم منزلة وشرفا والعلم الباطن المودع في القلوب من معرفة الله وخشيته ومحبته ومراقبته والانس به والشوق الى لقائه والتوكل عليه والرضى بقضائه والاعراض عن عرض الدنيا الفاني والاقبال على جوهر الآخرة الباقي كل هذا يوجب لصاحبه عند الله منزلة وزلفى واحدى المنزلتين تمنع من الاخرى فمن وقف مع منزلته عند الخلق واشتغل بما حصل له عندهم بالعلم الظاهر من شرف الدنيا . وكان همه حفظ هذه المنزلة عند الخلق وملازمتها وتربيتها والخوف من زوالها كان ذلك حظه من الله تعالى وانقطع به عنه فهو كما قال بعضهم ويل لمن كان حظه من الله الدنيا . وكان السرى السقطى يعجبه مارى من

علم الجنيد وحسن خطابه وسرعة جوابه فقال له يوما وقد سأله عن مسألة فاجاب وأصاب أخشى ان يكون حظك من الدنيا لسانك فكان الجنيد لايزال يبكي من هذه الكلمة. ومن اشتغل بتربية منزلته عند الله تعالى بما ذكرن من العلم الباطن وصل الى الله فاشتغل به عما سواه وكان له في ذلك شغل عن طلب المنزلة عند الخلق ومع هذا فان الله يعطيه المنزلة في قلوب الخلق والشرف عندهم وان كان لا يريد ذلك ولا يقف معه بل يهرب منه اشد الهرب ويفر اشد الفرار خشية ان يقطعه الخلق عن الحق جل جلاله قال الله تعالى (ان الذين آمنو وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا)[١] اى فى قلوب عباده. وفي حديث «ان الله اذا احب عبداً نادى ياجبريل انى أحب فلانا فيحبه جبريل ثم يحبه اهل السماء ثم يوضع له القبول في الارض» والحديث معروف وهو مخرج في الصحيح وبكل حال فطلب شرف الآخرة يحصل معه شرف في الدنيا وان لم يرده صاحبه ولم يطلبه وطلب شرف الدنيا لا يجامع شرف الاخرة ولا يجتمع معه والسعيد من آثر الباقى على الفانى كما في حديث ابى موسى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال «من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته اضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى» خرجه الامام أحمد وغيره ٭ وما أحسن ما قال ابو الفتح البستى

امران مفترقان لست تراهما يتشوفان لخلطة وتلاقى
طلب المعاد مع الرياسة والعلى فدع الذى يفنى لما هو باقى

الى هنا تم كلام الحافظ زين الدين ابن رجب على حديث ما ذئبان جائعان ارسلا الخ والحمد لله وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه والعاملين بشرعه الى يوم الدين ٭

١ - مريم ٩٦

تمت الرسالة الاولى والحمد لله أولا وآخرا

الرسالة الثانية

﴿ مختصر كتاب المؤمل للرد الى الامر الاول ﴾

تصنيف الامام العلامة محيي السنة ناصر الحق شهاب الدين أبي القاسم عبدالرحمن
ابن اسماعيل بن ابراهيم المعروف بابي شامة الشافعي قدس الله روحه
المولود سنة ٥٩٦ المتوفى سنة ٦٦٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين * والعاقبة للمتقين * ولا عدوان الا على الظالمين * والصلاة والسلام على أشرف المرسلين * سيدنا محمد النبي الامين * وعلى آله الطيبين الطاهرين * وأصحابه نجوم الدين *

(وبعد) فهذا مختصر من كتاب ﴿ المؤمل للرد الى الامر الاول ﴾ تصنيف الامام العلامة محيي السنة شهاب الدين أبي القاسم عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المعروف بابي شامة الشافعي قدس الله روحه قال (أما بعد) فان العلم قد درست أعلامه * وقل في هذه الازمان اتقانه وإحكامه * وأدّي به الاهمال الى أن عدم احترامه * وقل إجلاله وإعظامه * وكاد يجهل حلاله وحرامه * هذا مع حث الشارع عليه ووصف العلماء القائمين بخشيتهم اياه * ورفعه درجاتهم وضمه لهم مع الملائكة في شهادتهم * قال الله تعالى (انما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ)[1] وقال تعالى (شهد الله انه لا إله الا هو والملائكة وأولوا العلم)[2] وقال تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)[3] الى غير ذلك من الآيات الكثيرة * والاحاديث المستنيرة * وقد كان من مضى من الائمة المجتهدين قائمين بنشر علوم الاجتهاد في جميع الآفاق وهم في ذلك متفاضلون فمنهم المحكم لعلم الكتاب * ومنهم القائم بامر السنة * ومنهم المبرز في العربية * ومنهم الممعن في استنباط

١ ـ فاطر ٢٨
٢ ـ آل عمران ١٨
٣ ـ المجادلة ١١

الاحكام وقل من اجتمع فيه القيام بجميع ذلك وكان من أجمعهم وأقومهم به امامنا أبو عبدالله القرشى المطلبى الشافعى رضى الله عنه جمع النسب الطاهر * والعلم الباهر * وكثرة المآثر * وجل المفاخر * فكان فيه من المناقب والفضائل * ما فرق فى كثير من الأئمة الافاضل * وشهد له بذلك من كل فن سادة أفاضل * قال المزنى سمعت الشافعى يقول ، حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر * وقال يونس بن عبد الاعلى كان الشافعى اذا أخذ فى التفسير كأنه شهد التنزيل * وقال أحمد بن محمد بن بنت الشافعى سمعت أبى وعمى يقولان كان سفيان بن عيينة اذا جاءه شىء من التفسير والفتيا يسئل عنها التفت الى الشافعى وقال يقول سلوا هذا * وقال له شيخه مسلم بن خالد وهو مفتى مكة يا أبا عبد الله أفت فقد آن لك أن تفتي وهو ابن خمس عشرة سنة * وقال الربيع كان الشافعى يفتي وهو ابن خمس عشر سنة * وكان يحيي الليل الى أن مات * وقال أبو نعيم الحافظ سمعت سليمان بن احمد يقول سمعت أحمد بن محمد بن بنت الشافعى يقول كانت الحلقة فى الفتيا بمكة فى المسجد الحرام لابن عباس وبعده لعطاء ابن أبى رباح وبعده لعبد الملك بن جريج وبعده لمسلم بن خالد وبعده لسعيد بن سالم * وبعده لمحمد بن ادريس الشافعى وهو شاب * قال ابن مهدى سمعت مالكا يقول ما يأتينى قرشى أفهم من هذا الفتى يعنى الشافعى * قال أبو عبيد بن سلام ما رأيت قط أعقل ولا أورع ولا أفصح من الشافعى * قال هلال بن العلاء الرقى أصحاب الحديث عيال على الشافعى فتح لهم الاقفال * قال اسحق بن راهويه لقينى أحمد ابن حنبل بمكة فقال تعال أريك رجلا لم ترعيناك مثله فارانى الشافعي قال فتناظرنا فى الحديث فلم أر أعلم منه * ثم تناظرنا فى الفقه فلم أر أفقه منه * ثم تناظرنا فى القرآن فلم أر أقرأ منه * ثم تناظرنا فى اللغة فوجدته بيت اللغة * وما رأت عيناى مثله قط * قال فلما فارقناه أخبرنى جماعة من أهل الفهم بالقرآن انه كان أعلم الناس فى زمانه بمعاني القرآن وانه قد كان أوتي فهماً فى القرآن * قال أحمد بن حنبل كان الفقهاء والمحدثون صيادلة فجاء الشافعى طبيبا صيدلانيا ما رأت العيون مثله * وقال ان الله يقيض للناس فى رأس كل مائة سنة من يعلمهم السنن وينفي عن رسول الله

الـكذب * فنظرنا فاذا فى رأس المائة عمر بن عبد العزيز وفى رأس المائتين الشافعى وقال اذا سئلت عن مسالة لأعرف فيها خبرا قلت فيها بقول الشافعى لانه امام عالم من قريش * وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال (عالم قريش يملأ الارض علما) وقال كلام الشافعي فى اللغة حجة * وقال أبو عثمان المازنى الشافعى عندنا حجة فى النحو * وقال أبو ثور ابراهيم بن خالد كان الشافعى من معادن الفقه وجهابذة الالفاظ ونقاد المعانى * قال الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى كان أصحاب الحديث رقودا حتى جاء الشافعى فايقظهم فتيقظوا * ومناقبه كثيرة قد الفت فيها المؤلفات العديدة *

﴿ فصل فى صفة أهل العلم ﴾

قال عبد الله بن مسعود ليس العلم بكثرة الحديث ولـكن العلم الخشية * وقال مالك بن أنس ليس العلم بكثرة الرواية ولـكنه نور يجعله الله فى قلب من يشاء من خلقه * وفى رواية العلم والحكمة نور يهدي به الله من يشاء وليس بكثرة المسائل * وقال الاوزاعى كان هذا العلم كريما يتلقاه الرجال بينهم فلما كتب ذهب نوره وصار الى غير اهله * وفي رواية كان هذا العلم سنيا شريفا اذ كان الناس يتلقونه بينهم الخ * وقال اذا أراد الله بقوم شراً فتح عليهم الجدل ومنعهم العمل * وقال مالك ليس الجدل من الدين فى شيء وقال أيضا المراء فى العلم يقسى القلوب ويورث الضغائن * وفى جامع الترمذي عن أبى أمامة عنه صلى الله عليه وسلم قال « ماضل قوم بعد هدي كانوا عليه الا أوتوا الجدل » ثم تلا رسول الله صـلي الله عليه وسلم (ماضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون)[1] قال حديث حسن صحيح قال بل كان العلماء من السلف الصالح أهل نسك وعبادة وورع وزهادة * أرضوا الله تعالى بعلمهم * وصانوا العلم فصانهم * وتدرعوا من الاعمال الصالحة بما زانهم * ولم يشنهم الحرص على الدنيا وخدمة أهلها بل أقبلوا على طاعة الله التى خلقوا لاجلها فأولئك هم الذين عناهم الشافعى بقوله ما أحد أولى بخلقه من الفقهاء وفى رواية ان لم يكن الفقهاء أولياء الله فما لله ولى * قال ابن عباس لو أن

١ - الزخرف ٥٨

العلماء أخذوا العلم بحقه لاحبهم الله و الملائكة والصالحون من عباده ولهابهم الناس لفضل العلم وشرفه * قال وهب بن منبه ان الفقهاء فيما خلا حملوا العلم فأحسنوا حمله فاحتاجت اليهم الملوك وأهل الدنيا و رغبوا فى علمهم فلما كان بأجرة فنشت علماء تحملوا العلم فلم يحسنوا حمله فطرحوا علمهم على الملوك وأهل الدنيا فاهتضموهم واحتقروهم * وقال أيضاً كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم فكانوا لا يلتفتون الى دنياهم وكان أهل الدنيا يبذلون دنياهم في علمهم فاصبح أهل العلم منا اليوم يبذلون لاهل الدنيا علمهم رغبة فى دنياهم وأصبح أهل الدنيا قد زهدوا فى علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم (اللهم) فجنبنا طريقة قوم لم يقوموا بحق العلم وأرادوا به الدنيا وأعرضوا عما لهم به فى الآخرة من الدرجة العليا فلم يهنؤا بحلاوته * ولم يتمتعوا بنضارته * بل خلقت عندهم ديباجته * ورثت حاله * وعرف مقداره جماعة من السادة فعظموه وبجلوه ووقروه واستغنوا به ورأوه بعد المعرفة أفضل ماأعطي البشر * واحتقروا فى جنبه كل مفتخر * وتلوا (فما آتانى الله خير مما آتاكم)[1] وكيف لا يكون الامر كذلك والعلم حياة والجهل موت فبينهما كما بين الحياة والموت * ولقد أحسن من قال

وفى الجهل قبل الموت موت لاهله وأجسامهم قبل القبور قبور
وان امراء لم يحى بالعلم ميت وليس له حتى النشور نشور

وقال اسماعيل بن عبد الله عن عبد الله بن عمر من قرأ القرآن فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه الا أنه لا يوحى اليه ومن قرأ القرآن فرأى ان أحدا من الخلق أعطى أفضل مما أعطى فقد حقر ماعظم الله وعظم ماحقر الله *

(فصل) وصح من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا »[1] وما أعظم حظ من بذل نفسه وجهدها في تحصيل العلم حفظا على الناس لما بقى فى أيديهم منه فان فى هذه الازمنة قد غلب

١ ـ النمل ٣٦

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه والامام أحمد بن حنبل

على أهلها الكسل والملل وحب الدنيا وقد قنع الحريص منهم من علوم القرآن بحفظ سوره ونقل بعض قراءاته وغفل عن علم تفسيره ومعانيه واستنباط أحكامه الشريفة من مبانيه * واقتصر من علم الحديث على سماع بعض الكتب على شيوخ أكثرهم أجهل منه بعلم الرواية فضلا عن الدراية * ومنهم من قنع بزبالة أذهان الرجال وكناسة أفكارهم وبالنقل عن أهل مذهبه وقد سئل بعض العارفين عن معنى المذهب فاجاب ان معناه : دين مبدل: قال تعالى *(ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا)[1] ألا ومع هذا يخيل اليه انه من رؤوس العلماء وهو عند الله وعند علماء الدين من أجهل الجهل بل بمنزلة قسيس النصارى أو حبر اليهود لان اليهود والنصارى ما كفروا الا بابداعهم فى الاصول والفروع * وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم « لتركبن سنن من كان قبلكم »[(١)] الحديث

(فصل) والعلم بالاحكام واستنباطها كان أولا حاصلا للصحابة رضى الله عنهم فمن بعدهم فكانوا اذا نزلت بهم النازلة بحثوا عن حكم الله تعالى فيها من كتاب الله وسنة نبيه وكانوا يتدافعون الفتوى ويود كل منهم لو كفاه اياها غيره* وكان جماعة منهم يكرهون الكلام فى مسألة لم تقع ويقولون للسائل عنها أكان ذلك فان قال لا قالوا دعه حتى يقع ثم نجتهد فيه * كل ذلك يفعلونه خوفاً من الهجوم على مالا علم لهم به واشتغالا بما هو الاهم من العبادة والجهاد فاذا وقعت المسألة لم يكن بد من النظر فيها * قال الحافظ البيهقى وقد كره بعض السلف للعوام المسألة عما لم يكن ولم يمض به كتاب ولا سنة * وكرهوا للمسئول الاجتهاد فيه قبل أن يقع لان الاجتهاد انما أبيح للضرورة ولا ضرورة قبل الواقعة فلا يغنيهم ما مضى من الاجتهاد واحتج فى ذلك بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم « من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه »[(٢)] وعن طاوس قال قال عمر بن الخطاب رضى الله ١ - الروم ٣١ - ٣٢

---

(١) وتمامه « شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتموه وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه » رواه الحاكم عن ابن عباس

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه قال ابن عبد البر هذا الحديث محفوظ عن الزهرى بهذا الاسناد من رواية الثقات

عنه وهو على المنبر احرج الله على كل امرىء مسلم سأل عن شيء لم يكن فانه قد بين ماهو كائن .وفى رواية لا يحل لكم أن تسألوا عما لم يكن فانه قد قضى فيما هو كائن ﴿قلت﴾ وهذا معنى قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء) الخ[1] وعن عبد الرحمن بن شريح ان عمر بن الخطاب كان يقول اياكم وهذه العضل فانها اذا نزلت بعث الله لها من يقيمها ويفسرها ﴿قلت﴾ انما يضطر الى الاجتهاد فى الاحكام الحكام ولم يأت الاجتهاد لغير الحكام لحديث معاذ ان لم أجد فى كتاب الله تعالى فبسنة رسول الله وان لم أجد فى سنة رسول الله اجتهد برأيي لانه كان حاكما وقوله عليه السلام « أقضى بينكم برأيي فيما لم ينزل على فيه شيء » وهو حاكم وكذلك قوله تعالى (وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث)[2] كانا حاكمين فالاجتهاد بمنزلة الميتة قال الثعلبي والشافعي ولا يحل تناولها الا عند المخمصة والذى ليس بحاكم ويجتهد برأيه فمثله كمثل رجل قعد فى بيته ويقول انما جاز أكل الميتة لفلان ويجوز أكلها لى أيضا فكذلك لايجوز لاحد أن يحتج بقول المجتهد لان المجتهد يخطىء ويصيب فاذا كان شيء يحتمل أن يكون صوابا وخطأ فتركه أولى مثل الشبهات من الطعام تركها لها أولى من تناوله (وعن) الصلت بن رشد قال سألت طاووسا عن شيء فقال أكان هذا قلت نعم قال الله الذى لا اله الا هو قلت الله الذى لااله الا هو قال ان أصحابنا حدثونا عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال ياأيها الناس لاتعجلوا بالبلاء قبل نزوله فيذهب بكم ههنا وههنا وان لم تعجلوا قبل نزوله لم ينفك المسلمون أن يكون فيهم من اذا سئل سدد * وعن النبي صلى الله عليه وسلم « لا تستعجلوا بالبلية قبل نزولها فانكم اذا فعلتم ذلك لايزال منكم من يوفق ويسدد وانكم ان استعجلتم بها قبل نزولها تفرقتم » وكان ابن عمر اذا سئل عن الفتوى يقول اذهب الى هذا الامير الذى تقلد أمور الناس وضعها فى عنقه اشارة الى أن الفتوى والقضايا والاحكام من توابع الولاية والسلطنة (قلت) بهذا السبب أخذوا سنن اليهود والنصارى وزادوا عليهم حتى صاروا اثنتين وسبعين فرقة وحكم عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم انهم من أصحاب النار كما شهد للعشرة بانهم من أصحاب الجنة . وقال مسروق سألت أبيّ بن كعب

١ ـ المائدة ١٠١
٢ ـ الأنبياء ٧٨

عن شيء قال أ كان بعد قلت لا قال فاصبر حتى يكون فاذا كان اجتهدنا لك رأينا. وقال عبد الرحمن ابن أبي ليلى أدركت مائة وعشرين من الانصار من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مامنهم أحد يحدث بحديث الا ود أن أخاه كفاه اياه ولا يستفتي عن شيء الا ود أن أخاه كفاه اياه . وفي رواية يسأل أحدهم المسألة فيردها هذا الى هذا حتى ترجع الى الاول * ثم بعد الصحابة أراد الله أن يصدق نبيه فى قوله « تفترق أمتى على بضع وسبعين فرقة أعظمها فرقة على أمتي قوم يقيسون الامور برأيهم فيحللون الحرام ويحرمون الحلال » رواه البزار في مسنده عن جبير ابن نفير عن عوف بن مالك الاشجعى عنه صلى الله عليه وسلم فكثرت الوقائع والنوازل فى التابعين ومن بعدهم واجتهدوا بآرائهم لمن اضطر ومن لم يضطر ووصلت الى من بعدهم من الفقهاء ففرعوا عليها وقاسوا واجتهدوا فى الحاق غيرها بها فتضاعفت مسائل الفقه وشككهم ابليس ووسوس فى صدورهم * واختلفوا اختلافا كثيرا من غير تقليد * فقد نهى امامنا الشافعى عن تقليده وتقليد غيره كما سنذكره فى فصل وكانت تلك الازمنة مملوءة بالمجتهدين فكل صنف على ما رأى وتعقب بعضهم بعضا مستمدين من الاصلين الكتاب والسنة وترجيح الراجح من أقوال السلف المختلفة بغير هوى ولم يزل الامر على ماوصفت الى أن استقرت المذاهب المدونة * ثم اشتهرت المذاهب الاربعة وهجر غيرها فقصرت همم أتباعهم الا قليلا منهم فقلدوا بعد ما كان التقليد لغير الرسل حراما بل صارت أقوال أئمتهم عندهم بمنزلة الاصلين وذلك معنى قوله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) فعدم المجتهدون وغلب المقلدون وكثر التعصب وكفروا بالرسول حيث قال « يبعث الله فى كل مائة سنة من ينفى تحريف الغالين وانتحال المبطلين »(١) وحجروا على رب العالمين مثل اليهود أن لا يبعث بعد

١ - التوبة ٣١

(١) قال المؤلف في كتابه الباعث على انكار البدع والحوادث ما نصه : روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مرسلا ومرفوعا من حديث أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهما رضى الله عنهم « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » ولعله هنا نقله بمعناه دون لفظه

أئمتهم ولياً مجتهداً حتى آل بهم التعصب الى أن أحدهم اذا أورد عليه شيء من الكتاب والسنة الثابتة على خلافه يجتهد في دفعه بكل سبيل من التأويل البعيدة نصرة لمذهبه ولقوله ولو وصل ذلك الى امامه الذي يقلده لقابله ذلك الامام بالتعظيم وصار اليه وتبرأ من رأيه مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم وحمد الله على ذلك * ثم تفاقم الامر حتى صار كثير منهم لا يرون الاشتغال بعلوم القرآن والحديث ويرون أن ماهم عليه هو الذي ينبغي المواظبة عليه فبدلوا بالطيب خبيثاً وبالحق باطلاً واشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين * ثم نبغ قوم آخرون صارت عقيدتهم في الاشتغال بعلوم الاصلين يرون ان الاولى منه الاقتصار على نكت خلافية وضعوها وأشكال منطقية الفوها وقد قال عمر بن الخطاب اتهموا الرأي على الدين * وقال سهل بن حنيف اتقوا الرأي في دينكم * وقال عبد الله بن مسعود * يحدث قوم يقيسون الامور برأيهم فيهدم الاسلام (قلت) ما عبدت الشمس والقمر الا بالرأي ولا قالت النصارى ثالث ثلاثة ولا أن الله هو المسيح ابن مريم ولا اتخذ الله ولداً الا بالرأي * وكذلك كل من عبد شيئاً من دون الله انما عبده برأيه فانظر الى قول السامري (وكذلك سولت لي نفسي)[1] وقال عبد الله بن عمر لا يزال الناس على الطريق ما اتبعوا الاثر * وروى الشعبي عن عبد الله ابن عمر إياكم وأصحاب الرأي فانهم أعداء السنن أعيتهم الاحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا : وقال الاوزاعي عليك بآثار من سلف وان رفضك الناس واياك ورأي الرجال وان زخرفوه لك بالقول وقال أيضاً اذا بلغك عن رسول الله حديثاً فاياك أن تقول بغيره فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مبلغاً عن الله تبارك وتعالى * وقال أيضاً العلم ماجاء عن أصحاب محمد ومالم يجيء عن أصحاب محمد فليس بعلم يعني مالم يجيء أصله منهم * وقال الشعبي اذا جاءك الخبر عن أصحاب محمد فضعه على رأسك * واذا جاءك عن التابعين فاضرب به أقفيتهم وقال سفيان الثوري العلم كله بالآثار * وقال ابن المبارك ليكن الذي تعتمد عليه الاثر وخذ من الرأي مايفسر لك الحديث * وقال أحمد بن حنبل سألت الشافعي عن القياس فقال عند الضرورات فكان أحسن أمر الشافعي عندي انه اذا سمع

[1] طه ٩٦

الخبر لم يكن عنده قال به وترك قوله * وقال الشعبي القياس كالميتة اذا احتجت اليها فشأنك بها * قلت ما أحسن قول القائل

تجنب ركوب الرأى فالرأي ريبة   عليك بآثار النبي محمد
فمن يركب الآراء يعم عن الهدى   ومن يتبع الآثار يهدى ويحمد

﴿ وقول بعض المغاربة ﴾

لا ترغبن عن الحديث وأهله   فالرأى ليل والحديث نهار

﴿ وقول القائل ﴾

انظر بعين الهدى ان كنت ذا نظر   فانما العلم مبنى على الاثر
لا ترض غير رسول الله متبعا   مادمت تقدر فى حكم على خبر

ولم يختلف المفسرون فيما وقفت عليه من كتبهم فى ان قوله تعالى (فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول) تقديره الى قول الله وقول الرسول * فيجب رد جميع ما اختلف فيه الى ذلك فما كان أقرب اليه اعتمد صحته وأخذ به * ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ردوا الجهالات الى السنة وفي رواية يرد الناس من الجهالات الى السنة .وهذه كانت طريقة العلماء الاعلام أئمة الدين وهى طريقة امامنا أبى عبد الله الشافعى ولهذا قال ابن حنبل مامن أحد وضع الكتب حتى ظهر خطؤه [(١)] اتبع للسنة من الشافعى * ثم ان الشافعى رحمه الله احتاط لنفسه وعلم ان البشر لا يخلو من السهو والغفلة وعدم الاحاطة فصح عنه من غير وجه انه أمر اذا وجد قوله على مخالفة الحديث الصحيح الذي يصح الاحتجاج به أن يترك قوله ويؤخذ بالحديث * أنبأنا الفاضل أبو القاسم عمن أخبره الحافظ أبو بكر احمد بن الحسين البيهقى أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب قال سمعت الربيع بن سليمان يقول سمعت الشافعى يقول اذا وجدتم فى كتابى خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بسنته ودعوا ماقلت * وقال صاحب الشافعى المزنى فى أول مختصره * اختصرت هذا من علم الشافعى ومن معنى قوله لاقربه على من أراده مع اعلامى نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ١ ـ النساء ٥٩

(١) كذا في الاصل ولعله ثم ظهر خلاف رأيه

ويحتاط فيه لنفسه أي مع إعلامي من أراد علم الشافعي نهي الشافعي عن تقليده وتقليد غيره* قال الماوردي صاحب الحاوي قوله ويحتاط لنفسه أي كطلب السلف الصالح يتبعون الصواب حيث كان ويجتهدون في طلبه وينهون عن التقليد*

﴿ فصل ﴾ ثم ان المصنفين من أصحابنا المتصفين بالصفات المتقدمة من الاتكال على نصوص امامهم معتمدون عليها اعتماد الأئمة قبلهم على الاصلين الكتاب والسنة قد وقع في مصنفاتهم خلل كثير من وجهين عظيمين (الاول) أنهم يختلفون كثيرا فيما ينقلونه من نصوص الشافعي وفيما يصححونه منها وصارت لهم طرق مختلفة خراسانية وعراقية فترى هؤلاء ينقلون عن امامهم خلاف ماينقله هؤلاء والمرجع في هذا كله الى امام واحد وكتبه مدونة مروية موجودة أفلا كانوا يرجعون اليها وينقون تصانيفهم من كثرة اختلافهم عليها وأجود تصانيف أصحابنا من الكتب فيما يتعلق بنصوص الشافعي كتاب التقريب (١) أثنى عليه أخبر المتأخرين بنصوص الشافعي وهو الامام الحافظ أبو بكر البيهقي ﴿ الوجه الثاني ﴾ مايفعلونه في الاحاديث النبوية والآثار المروية من كثرة استدلالهم بالاحاديث الضعيفة على مايذهبون اليه نصرة لقولهم وينقصون من الفاظ الحديث وتارة يزيدون فيه وما أكثره في كتب أبي المعالي وصاحبه أبي حامد نحو اذا اختلف المتبايعان وترادا ومن العجيب ماذكره صاحب المهذب في أول باب ازالة النجاسة قال وأما الغائط فهو نجس لقوله صلى الله عليه وسلم لعمار انما تغسل ثوبك من الغائط والبول والمني والدم والقيء ثم ذكر طهارة مني الآدمي ولم يتعرض للجواب عن هذا الحديث الذي هو حجة خصمه ولم يكن له حاجة الى ذكره أصلا فان الغائط لاضرورة الى الاستدلال على نجاسته بهذا الحديث الضعيف المنتهض حجة عليه في أمر آخر ومن قبيح مايأتي به بعضهم أن يحتج بخبر ضعيف هو دليل خصمه عليه فيوردونه معرضين عما كانوا ضعفوه وفي كتاب الحاوي والشامل وغيرهما شيء كثير من هذا وهم مقلدون لامامهم الشافعي فهلا اتبعوا طريقته في ترك الاحتجاج

(١) للشيخ الامام قاسم بن محمد القفال الشاشي قال ابن خلكان هو أجل كتب الشافعية بحيث يستغني من هو عنده عن غيره اه

بالضعيف وتعقبه على من احتج به وتبيين ضعفه * ثم ان مذهبه ترك الاحتجاج بالمراسيل الا بشروط ولو ذكر سند الحديث وعرفت عدالة رجاله الى التابعى وسقط من السند ذكر الصحابي كان مرسلا ويورد هؤلاء المصنفون هذه الاحاديث محتجين بها بلا اسناد أصلا فيقولون قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويظنون ان ذلك حجة وأمامهم يري أنه لوسقط من السند الصحابي وحده لم يكن حجة وكذا لو سقط غير الصحابى من السند فليتهم اذ عجزوا عن أسانيد الاحاديث ومعرفة رجالها عزوها الى الكتب التى أخذوها منها ولكنهم لم يأخذوا تلك الاحاديث الا من كتب من سبقهم من مشايخهم ممن هو على مثل حالهم فبعضهم يأخذه من بعض فيقع التغيير والزيادة والنقصان فيما صح أصله ويختلط الصحيح بالسقيم وهذا كله غير مستقيم بل الواجب فى الاستدلال على الاحكام وبيان الحلال والحرام ان من يستدل بحديث يذكر مستنده ويتكلم عليه بما يجوز الاستدلال به أو يعزوه الى كتاب مشهور من كتب أهل الحديث المعتبرة فيرجع من يطلب صحة الحديث وسقمه الى ذلك الكتاب وينظر فى سنده وماقال ذلك المصنف أوغيره فيه * وقد يسر الله تعالى وله الحمد الوقوف على مايثبت من الاحاديث وتجنب ماضعف منها بما جمعه علماء الحديث فى كتبهم من الجوامع والمسانيد فالجوامع هى المرتبة على الابواب من الفقه والرقائق والمناقب وغير ذلك فمنها ما اشترط فيه الصحة اذ لايذكر فيه الا حديث صحيح على ماشرطه مصنفه ككتابى البخارى ومسلم وما ألحق بهما واستدرك عليهما وكصحيح امام الائمة محمد بن اسحق بن خزيمة وكتاب أبى عيسى الترمذى وهو كتاب جليل مبين فيه الحديث الصحيح والحسن والغريب والضعيف وفيه عن الائمة فقه كثير * ثم سنن أبى داود والنسائى وابن ماجه ومن بعدهم سنن أبى الحسن الدارقطنى والتقاسيم لابى حاتم بن حبان وغيرهما * ثم مارتبه وجمعه الحافظ أبو بكر البيهقى فى سننه الكبري من الاوسط والصغير التي أتى بها على ترتيب مختصر المزنى وقربها الى الفقهاء بجهده فلا عذر لهم ولاسيما الشافعية منهم فى تجنب الاشتغال بهذه الكتب النفيسة المصنفة فى شروحها وغريبها بل أفنوا زمانهم وعمرهم بالنظر فى أقوال من سبقهم من المتأخرين

وتركوا النظر فى نصوص نبيهم المعصوم من الخطأ وآثار أصحابه الذين شهدوا الوحى وعاينوا المصطفى صلى الله عليه وسلم وفهموا مراد النبي فيما خاطبهم بقرائن الاحوال اذ ليس الخبر كالمعاينة فلا جرم لو حرم هؤلاء رتبة الاجتهاد وبقوا مقلدين *

وقد كانت العلماء في الصدر الاول معذورين فى ترك ما لم يقفوا عليه من الحديث لان الاحاديث لم تكن حينئذ فيما بينهم مدونة انما كانت تتلقى من أفواه الرجال وهم متفرقون فى البلاد ولو كان الشافعي وجد فى زمانه كتابا فى أحكام السنن أكبر من الموطأ لحفظه مضافا الى ما تلقاه من أفواه مشايخه فلهذا كان الشافعي بالعراق يقول لاحمد بن حنبل أعلمونى بالحديث الصحيح أصر اليه * وفى رواية اذا صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا حتى اذهب اليه * ثم جمع الحفاظ الاحاديث المحتج بها فى الكتب ونوعوها وقسموها وسهلوا الطريق اليها فبوبوها وترجموها وبينوا ضعف كثير منها وصحته وتكلموا فى عدالة الرجال وجرح المجروح منهم وفى علل الاحاديث ولم يدعوا للمشتغل شيئا يتعلل به * وفسروا القرآن والحديث وتكلموا على غريبها وفقهها وكل ما يتعلق بها من مصنفات عديدة جليلة فالآلات متهيئة لطالب صادق ولذى همة وذكاء وفطنة * وأئمة الحديث هم المعتبرون القدوة فى فنهم فوجب الرجوع اليهم فى ذلك وعرض آراء الفقهاء على السنن والآثار الصحيحة فما ساعده الاثر فهو المعتبر والا فلا نبطل الخبر بالرأى ولا نضعفه ان كان على خلاف وجوه الضعف من علل الحديث المعروفة عند أهله أو باجماع الكافة على خلافه فقد يظهر ضعف الحديث وقد يخفى وأقرب ما يؤمر به فى ذلك انك متى رأيت حديثا خارجا عن دواوين الاسلام كالموطأ ومسند أحمد والصحيحين وسنن أبى داود والترمذى والنسائى ونحوها مما تقدم ذكره ومما لم نذكر فانظر فيه فان كان له نظير فى الصحاح والحسان قرب أمره * وان رأيته يباين الاصول وارتبت به فتأمل رجال اسناده واعتبر أحوالهم من الكتب المصنفة فى ذلك وأصعب الاحوال أن يكون رجال الاسناد كلهم ثقات ويكون متن الحديث موضوعا عليهم أو مقلوبا أو قد جرى فيه تدليس ولا يعرف هذا الا النقاد من علماء الحديث فان كنت من أهله فبها والا فاسأل عنه أهله * قال الاوزاعى كنا نسمع

الحديث فنعرضه على أصحابنا كما نعرض الدرهم الزيف فما عرفوا منه أخذناه وما أنكروا تركناه * فالتوصل الى الاجتهاد بعد جمع السنن فى الكتب المعتمدة اذا رزق الانسان الحفظ والفهم ومعرفة اللسان أسهل منه قبل ذلك لولا قلة همم المتأخرين وعدم المعتبرين ومن أكبر أسباب تعصبهم تقيدهم برفق الوقوف وجمود أكثر المتصدرين منهم على ماهو المعروف الذى هو منكر مألوف *

* (فصل) * فاذا ظهر هذا وتقرر تبين ان التعصب لمذهب الامام المقلد ليس هو باتباع أقواله كلها كيفما كانت بل الجمع بينهما وبين ماثبت من الاخبار والآثار والامر عند المقلدين أو أكثرهم بخلاف هذا انما هم يؤولونه تنزيلا على نص امامهم ثم الشافعيون كانوا أولى بما ذكرناه لنص امامهم على ترك قوله اذا ظفر بحديث ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على خلافه فالتعصب له على الحقيقة انما هو امتثال أمره فى ذلك وسلوك طريقته فى قبول الاخبار والبحث عنها والتفقه فيها وقد نقلت ماروى عنه فى ترجمته فى تاريخ دمشق قال الربيع قال الشافعى قد أعطيتك جملة تغنيك ان شاء الله تعالى لا تدع لرسول الله حديثا أبدا الا أن يأتي عن رسول الله سنة صح الخبر فيها عند أهل النقل بخلاف ماقلت فتعمل بما قلت لك فى الاحاديث اذا اختلفت * وفى رواية اذا وجدتم عن رسول الله سنة خلاف قولى فخذوا السنة ودعوا قولى فانى أقول بها * وفي رواية اذا وجدتم فى كتابى خلاف سنة رسول الله دعوا ماقلت * وفى رواية كل مسألة تكلمت فيها بخلاف السنة فأنا راجع عنها فى حياتى وبعد مماتى * قال وسمعت الشافعى يقول وروى حديثا قال له رجل تأخذ بهذا ياأبا عبد الله فقال ومتى رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا صحيحا فلم آخذ به فأشهدكم ان عقلى قد ذهب وأشار بيده الى رأسه : وفى رواية روى حديثا فقال له قائل أتأخذ به فقال له أترانى مشركا أو ترى فى وسطى زنارا أو ترانى خارجا من كنيسة نعم آخذ به آخذ به وذلك الفرض على كل مسلم * وقال حرملة (قال الشافعى) كل ما قلت وكان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف قولى مما يصح فحديث النبى صلى الله عليه وسلم أولى ولا تقلدونى * وفى كتاب ابن أبى حاتم عن أبى ثور قال سمعت الشافعى

يقول * كل حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو قولى وان لم تسمعوه منى * وفيه عن الحسين الكرابيسى قال قال لنا الشافعى ان أصبتم الحجة فى الطريق مطروحة فاحكوها عنى فانى القائل بها (١) وقال الربيع سمعت الشافعى يقول ما من أحد الا وتذهب عليه سنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعزب عنه فمهما قلت من قول أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ماقلت فالقول ماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قولى : قال وجعل يردد هذا الكلام قال وقال الشافعى من تبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وافقته ومن غلط فتركها خالفته صاحبي اللازم الذى لاأفارقه الثابت عن رسول الله * وقال الزعفرانى كنا لو قيل لنا سيان عن منصور عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قلنا هذا مأخوذ وهذا غير مأخوذ حتى قدم علينا الشافعى فقال ماهذا اذا صح الحديث عن رسول الله فهو مأخوذ به لا يترك لقول غيره قال فنبهنا لشيء لم نعرفه يعنى نبهنا لهذا المعنى * قال أبو بكر الاثرم كنا عند البويطى فذكرت حديث عمار فى التيمم فأخذ السكين وحته من كتابه وجعله ضربة وقال هكذا أوصانا صاحبنا اذا صح عندكم الخبر فهو قولى ﴿قال المؤلف﴾ قلت هذا من البويطى فعل حسن موافق للسنة ولما أمر به امامه * وأما الذين يظهرون التعصب لاقوال الشافعى كيفما كانت وان جاءت سنة بخلافها فليسوا متعصبين فى الحقيقة لانهم لم يمتثلوا ما أمر به امامهم بل دأبهم وديدنهم اذا ورد عليهم الحديث الصحيح الذي هو مذهب امامهم والذى لو وقف عليه لقال به أن يحتالوا فى دفعه بما لا ينفعهم لما نقل لهم عن امامهم من قول قد أمر بتركه عند وجدان ما يخالفه من السنة هذا مع كونهم عاصين بذلك لمخالفتهم ظاهر كتاب الله وسنة رسوله * والعجب ان منهم من يستجيز مخالفة نص الشافعى لنص له آخر فى مسئلة أخرى بخلافه ثم لايرون مخالفته لاجل نص رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أذن لهم الشافعى فى هذا * قال البويطى سمعت الشافعى يقول لقد ألفت هذه الكتب ولم آل فيها جهداً ولا بد أن يوجد فيها الخطأ لان الله تعالى يقول (ولو كان من

(١) يشير الى قول : الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها

عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) فما وجدتم فى كتبي هذه مما يخالف الكتاب والسنة فقد رجعت عنه * وفى رواية اني ألفت هذه الكتب مجتهداً بنحو ما قبله وفى آخره فاشهدوا علي انى راجع عن قولى الى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كنت قد بليت فى قبرى * وقال ابراهيم بن المنذر الحزامى حدثنا معن بن عيسى القزاز قال سمعت مالكا يقول انما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا فى رأيى فكل ماوافق الكتاب والسنة فخذوا به وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه * وذلك الظن بجميع الأئمة وقد كره الامام أحمد أن يكتب فتاويه وكان يقول لاتكتبوا عنى شيئا ولا تقلدونى ولا تقلدوا فلانا وفلانا وخذوا من حيث أخذوا * وقال بعضهم لاتقلدوا دينكم الرجال ان آمنوا آمنتم وان كفروا كفرتم وكان أحمد لا يفتى فى طلاق السكران شيئا ويقول ان أحللناه بقول هذا حرمناه بقول هذا * وقال نعيم بن حماد سمعت أبا عصمة يقول سمعت أبا حنيفة يقول ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين وما جاء عن أصحابه اخترنا وما كان من غير ذلك فنحن رجال وهم رجال * وروى محمد بن الحسن عن أبي حنيفة انه قال أقلد من كان من القضاة من الصحابة كابى بكر وعمر وعثمان وعلى والعبادلة الثلاثة ولا أستجيز خلافهم برأيى الا ثلاثة نفر وفى رواية أقلد جميع الصحابة ولا استجيز خلافهم برأيي الا ثلاثة نفر : أنس بن مالك وأبو هريرة وسمرة بن جندب : فقيل له فى ذلك فقال أما أنس فاختلط فى آخر عمره وكان يفتى من عقله وأنا لاأقلد عقله * وأما أبو هريرة فكان يروى كل ماسمع من غير أن يتأمل فى المعنى ومن غير أن يعرف الناسخ والمنسوخ [1]

(١) قال فيمرآة الوصول وشرحهامرقاة الاصول ــ من أصول الحنفية رحمهم الله فى بحث حال الراوى .وهو ان عرف بالرواية فان كان فقيها تقبل منه الروايةمطلقا سواء وافق القياس أو خالفه وان لم يكن فقيها كابى هريرة وأنس رضى الله عنهما فترد روايته ان لم يوافق الحديث الذى رواه قياسا انتهى بحروفه ✡ ولابن القيم في أعلام الموقعين بحث كبيرفيأنه ليس في الشريعة شيء على خلاف القياس فراجعه *لم يذكر السبب المانع من أخذه عن سمرة ابن جندب قال الامام تقى الدين ابن السبكى وزعمهم ان أبا هريرة ليس بفقيه كلام تقشعر منه الجلود بل هو فقيه كبير

وقال ابن المبارك سمعت أبا حنيفة يقول اذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس واذا جاء عن أصحابه نختار من قولهم واذا جاء عن التابعين زاحمناهم * وفى رواية قال آخذ بكتاب الله فان لم أجد فبسنة رسول الله فان لم أجد في كتاب الله وسنة رسول الله آخذ بقول أصحابه ثم آخذ بقول من شئت منهم وأدع قول من شئت منهم ولا أخرج عن قولهم الى قول غيرهم فأما اذا انتهى الامر الى ابراهيم والشعبي وابن سيرين والحسن وعطاء وسعيد بن المسيب وعد رجالا من التابعين فقوم اجتهدوا وأنا أجتهد كما اجتهدوا * قال سفيان الثوري لما بلغه ذلك عن أبي حنيفة ثم رأينا لربهم وكان سوى بين الصحابة والتابعين فى أنهم اذا أجمعوا فى مسألة على قولين مثلا لم يجز احداث قول ثالث وجوز أبو حنيفة ذلك وأما ما أجمع عليه الصحابة فلا كلام فى انه لا تجوز مخالفته فقد وضح لك من أقوال الائمة انه متى جاء حديث ثابت صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فواجب المصير الى مادل عليه الظاهر مالم يعارضه دليل آخر وهذا هو الذى لا يسع أحداً غيره قال الله عز وجل (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)[١] فنفى سبحانه الايمان عن لم يحكم رسوله فيما وقع التنازع فيه ولم يستسلم لقضائه وقال عز وجل (وان تطيعوه تهتدوا)[٢] فضمن الهداية سبحانه فى طاعة رسوله ولم يضمنها فى طاعة غيره وقال تعالى (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما)[٣] وأوعد على مخالفته فقال تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) وقال تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا)[٤] قال يونس بن عبد الاعلى حدثنا سفيان بن عيينة عن أبي نجيح عن مجاهد قال ليس من أحد الا يؤخذ من قوله ويترك الا النبي صلى الله عليه وسلم * وروى أيضا عن مجاهد باسناد آخر وروى معناه عن الشعبي وكذلك روى شعبة عن الحكم بن عتيبة وروى عن مالك بن أنس انه قال الا صاحب هذا القبر وأشار الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم *

١ ـ النساء ٦٥
٢ ـ النور ٥٤
٣ ـ الأحزاب ٧١
٤ ـ الأحزاب ٣٦

﴿ فصل ﴾ كان العلماء من قدماء أصحابنا يعتنون بمختصر المزني وبسببه سهل تصحيح مذهب الشافعي على طلابه في ذلك الزمان وسمعه عن المزني خلق عظيم من الغرباء ورحل اليه بسببه وامتلأت بنسخه البلدان حتى انه بلغني ان المرأة كانت اذا جهزت للدخول على زوجها حمل في جهازها مصحف ونسخة مختصر المزني * ويروى عن المزني انه قال بقيت في تصنيف هذا المختصر ست عشرة سنة وما صليت لله فريضة ولا نافلة الا سألت الله البركة لمن تعلمه ونظر فيه * وكان أبو العباس ابن سريج يقول في المختصر

لصيق فؤادي مذ ثلاثين حجة ... وصيقل ذهني والمفرج عن همي

عزيز على مثلي اضاعة مثله ... لما فيه من نسج بديع ومن نظم

وعلى ترتيبه وضعت الكتب المطولة في مذهب الشافعي * قال الحافظ البيهقي قابلت بتوفيق الله أقوال كل أحد من الأئمة بمبلغ علمي من كتاب الله ثم ما جمعت من السنن والآثار في الفرائض والنوافل والحلال والحرام والحدود والاحكام فوجدت الشافعي أكثرهم اتباعا وأقواهم احتجاجا وأصحهم قياسا وأوضحهم ارشادا وذلك فيما صنف من الكتب القديمة والجديدة في الاصول والفروع بأبين بيان وأفصح لسان (قلت) ثم اشتهر في آخر الزمان على مذهب الشافعي تصانيف الشيخين أبي اسحق الشيرازي وأبي حامد الغزالي فأكب الناس على الاشتغال بها وكثر المتعصبون لها حتى صار المتبحر المرتفع عند نفسه يرى أن نصوصهما كنصوص الكتاب والسنة لا يرى الخروج عنها وان أخبر بنصوص غيرهما من أئمة مذهبه بخلاف ذلك لم يلتفت اليها وقد يقع في بعض مصنفاتهما ما قد خالف المؤلف فيه صريح حديث صحيح أو ساق حديثا على خلاف لفظه أو نقل اجماعا أو حكماً عن مذهب بعض الأئمة وليس كذلك فان ذكر لذلك المتعصب الصواب في مثل ذلك نادى وصاح وزمجر وأخفى العداوة وكان سبيله أن يفرح بوصوله الى ما لم يكن يعرفه ولكن عمى التقليد أصمه عن سماع العلم المفيد ويقول المتحذلق منهم المتصدر في منصب لا يستحقه أما كان هؤلاء الأئمة يعرفون هذا الحديث الصحيح الوارد على خلاف نصهم فيرد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل هذا المذيان

الذي لوفكر فيه أسكته عنه لان خصمه في مثل هذا هو الله ورسوله لان الله تعالى افترض علينا طاعة رسوله فقد وصلنا الى حديثه فلا نرده بقول أحد * ثم إن في ذلك ابطالا لمذهبه وهدما لاصله الذي مهده امامه وأسسه وذلك ان الشافعي انما تعصب على من كان قبله من الائمة بمثل ذلك من دلالات الكتاب والسنة مما ظنه خفي على من سبقه وكان من الممكن أن يقال له أما كان أولئك يعرفون هذا وأولئك المتقدمون أولى بذلك من المتأخرين فلو سمع مثل هذا الهذيان لبطلت المذاهب بل ينبغي للطالب أن يكون أبدا في طلب ازدياد علم ما لم يعلمه من أي شخص كان فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها وعليه الانصاف وترك التقليد واتباع الدليل فكل أحد يخطيء ويصيب الا من شهدت له الشريعة بالعصمة وهو النبي صلي الله عليه وسلم * قال الشافعي في كتاب اختلاف الحديث حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن سالم بن عبدالله بن عمر ان عمر بن الخطاب نهى عن التطيب قبل زيارة البيت و بعد الجمرة قال سالم فقالت عائشة طيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي هاتين لاحرامه قبل أن يحرم ولحله قبل أن يطوف بالبيت وسنة رسول الله أحق قال الشافعي فترك سالم قول جده عمر في امامته وقبل قول عائشة وسنة رسول الله أحق وذلك الذي يجب عليه (قلت) وما زال أكابر الصحابة مثل أبي بكر الصديق ومن بعده يخفى عليهم شيء من السنة كميراث الجدة وتوريث المرأة من دية زوجها ووضع اليدين على الركبتين في الصلاة خفي الاول على أبي بكر والثاني على عمر والثالث على ابن مسعود حتى نبههم علي ذلك غيرهم ولذلك أمثلة كثيرة (ومن العجب) ان كثيرا منهم اذا ورد على مذهبه أثر عن بعض أكابر الصحابة يقول مبادرا بلا حياء ولا حشمة مذهب الشافعي الجديد ان قول الصحابي ليس بحجة ويرد قول أبي بكر وعمر ولا يرد قول أبي اسحق والغزالي ومع هذا يرون مصنفات أبي اسحق وغيره مشحونة بتخطئة المزني وغيره من الاكابر فيما خالفوا فيه مذهبهم فلا تراهم ينكرون شيئا من هذا فان اتفق أنهم سمعوا أحدا يقول أخطأ الشيخ أبو اسحق في كذا بدليل كذا وكذا انزعجوا وغضبوا ويرون أنه ارتكب كبيرا من الاثم فان كان الامر كما ذكروا فالامر الذي ارتكبه أبو اسحاق

أعظم فما بالهم لا ينكرون ذلك ولا يغضبون منه لولا قلة معرفتهم وكثرة جهلهم بمراتب السلف

﴿ فصل ﴾ قد تقدم ان الشافعي بنى مذهبه بناء محكما وذلك أنه كان اعتماده على كتاب الله وسنة رسوله والنظر الصحيح من الاجتهاد الراجع الى الكتاب والسنة وترجيح أشبه المذاهب بالكتاب والسنة وهذا هو الاصل الصحيح القوي الذي يتم البناء عليه الا أنه قد يعرض له ما يعرض لغيره من البشر ممن ليس بمعصوم من الغفلة والنسيان فاحالنا تصريح قوله على أن ما يصح من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم فهو مذهبه فلم يترك لعائب عيبا ولا لمنتقد من حساده انتقادا فرضي الله عنه * ولهذا قال بعض العلماء لولا الشافعي لغير أصحاب الرأى ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم *

﴿ فصل ﴾ هذه الفصول التي ذكرناها حسنة كثيرة الفوائد مجموعة من عدة مصنفات ينبغي لكل من يعتنى بالعلم النظر فيها والاطلاع عليها وقد رأيت ان أختمها بفصل هو أهمها وأجلها وأعمها نفعا وأولاها ذكرا وهو ما اعتنى ببيانه الامام أبو حامد رحمه الله فى كتاب الاحياء من نصح أهل العلم وبيان العلوم النافعة والتحذير من العلوم الضارة حيث قال (أدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الانبياء وقد شغر عنهم الزمان ولم يبق الا المترسمون وقد استحوذ عليهم الشيطان واستغواهم الطغيان وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفا فصار يري المعروف منكرا والمنكر معروفا حتى ظل علم الدين مندرسا ومنار الهدي فى أقطار الارض منطمسا ولقد خيلوا الى الخلق انه لا علم الا فتوي حكومة يستعين بها القضاة على فصل الخصام عند تهارش الطغام أو جدل يتدرع به طالب المباهاة الى الغلبة والافحام أو سجع مزخرف يتوصل به الواعظ الى استدراج العوام اذلم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام * فاما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله تعالي فى كتابه فقها وحكمة وعلما وضياء ونورا وهداية ورشدا فقد أصبح بين الخلق مطويا وصار نسيا منسيا) ثم أثنى على علم المعاملة وقال (هو علم أحوال القلب كالصبر والشكر والخوف والرجاء والرضاء والزهد

والتقوى والقناعة والسخاء وحسن الخلق والصدق والاخلاص وما يذم كالغل والحقد والحسد والغش والكبر والرياء والبخل والتزين للخلق والمداهنة والخيانة وطول الامل والقسوة وقلة الحياء وقلة الرحمة * فهذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش والاخلاق المحمودة منبع الطاعات) الى أن قال (ولا ينبغي أن يغتر الانسان بقول سفيان تعلمنا العلم لغير الله فأبى أن يكون الا لله وكان علمهم علم الكتاب والسنة وان الفقهاء يتعلمون لغير الله لان مايشتغلون به غير مأمورين به * وانظر الى أعمار الاكثرين منهم واعتبرهم فانهم ماتوا وهم هلكى على طلب الدنيا وليس الخبر كالمعاينة) وقال أبو سليمان الخطابى دع الراغبين فى صحبتك والتعلم منك فليس لك منهم مال ولا جمال * اخوان العلانية أعداء السر اذا لقوك تملقوا لك واذا غبت عنهم سلقوك * من اتاك منهم كان عليك رقيبا واذا خرج كان عليك خطيبا * أهل نفاق ونميمة وغل وحقد وخديعة * ولا تغتر باجتماعهم عليك فما غرضهم العلم بل الجاه والمال وأن يتخذوك سلما الى أوطارهم وحمارا الى حاجاتهم ان قصرت فى غرض من أغراضهم كانوا أشد الاعداء عليك * ثم يعدون ترددهم اليك دالة عليك ويرونه حقا واجبا عليك ويفرضون لك أن تبذل عرضك ودينك وجاهك لهم فتعادي عدوهم وتنصر قريبهم وخادمهم ووليهم وتنتهض لهم سفيها وقد كنت فقيها وتكون لهم تابعا خسيسا بعد أن كنت متبوعا رئيسا * ولذلك قيل (اعتزال العامة مروءة تامة) *

(قال المصنف) وقد رأيت أن أختمه من عبارات أهل المعرفة والتقوى العاملين بالعلم الذى يورث الخوف والهيبة والخشوع والزهد فى الدنيا * روينا عن عبدالله بن حنيف الانطاكى وهو أحد السادة العباد * قال سألت يوسف ابن أسباط هل مع حذيفة المرعشي علم قال معه العلم الاكبر خوف الله * وذكر فى مجلس أحمد بن حنبل معروف الكرخى وقال بعض من حضر هو قليل العلم فقال أحمد وهل يراد من العلم الا ما وصل اليه معروف * وقال عبدالله بن أحمد ابن حنبل ذهب أبي ويحيى بن معين الى معروف فقال ابن معين أيش لمعنى فى سجدتي السهو فى الصلاة فقال معروف شرعنا عقوبة للقلب اذا سها

وهو بين يدى الله فقال له أبي ياأبا زكريا هذا من علمك هذا فى كتبك أو كتب أصحابك * وقال الجنيد بن محمد أتدرون مافرض الصلاة قطع العلائق وجمع الهم والحضور بين يدي الله تعالى * قيل له كيف تدخل فى الصلاة قال بالقاء سمع وشهود قلب وحضور عقل وجمع هم وصحة تيقظ وحسن اقبال وتدبر فى ترتيل * وقال أبو حاتم محمد بن ادريس الرازى دخلت دمشق على كتبة الحديث فررت بحلقة قاسم الجرعى فرأيت نفراجلوساحوله وهو يتكلم عليهم فهالني منظرهم فتقدمت اليهم فسمعته يقول * اغتنموا من أهل زمانكم خمسا * ان حضرتم لم تعرفوا وان غبتم لم تفقدوا وان شهدتم لم تشاوروا وان قلتم شيئا لم يقبل قولكم وان عملتم شيئا لم تعطوا به وأوصيكم بخمس أيضا ان ظلمتم لاتظلموا وان مدحتم لاتفرحوا وان ذممتم لاتجزعوا وان كذبتم فلا تغضبوا وان خانوكم فلا تخونوا * قال فجعلت هذا فائدتى من دمشق ﴿ قال المصنف ﴾ رحمه الله تعالى * فهذا وأمثاله هو ثمرة علم العلماء الذين يريدون الله تعالى بطلب العلم النافع جعلنا الله منهم بمنه وفضله وكرمه ووفقنا للسلوك فى منهاجهم برحمته واحسانه والحمد لله رب العالمين * وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين آمين *

﴿تمت الرسالة الثانية بحمد الله تعالى ويتلوها الثالثة بعون الله تعالى وتوفيقه﴾

الرسالة الثالثة

﴿ استخراج الجدال من القرآن الكريم ﴾

(تصنيف الشيخ الامام ناصح الدين أبي الفرج عبد الرحمن الانصارى)

المعروف بابن الحنبلى المتوفي سنة ٦٣٤ هجرية

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم يسر وأعن يا كريم

قال الشيخ الامام ناصح الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب الانصارى بن الحنبلى * الحمد لله الحاوى كتابه أنواع العلوم * الدال أمره على الموجود والمعدوم * المشرف خطابه لذوى العقول والحلوم * الضارب الامثال لارباب الالباب والفهوم * القاضى بالحق والفاصل بين الظالم والمظلوم يوم اجتماع الخصوم * مبرم الامور بقضاء محتوم * منزل الماء بقدر معلوم * ومعلم الانسان البيان فى الامر المظنون والحكم المجزوم * شارع السبيل المأمون من الكتاب المصون على لسان النبي المعصوم * أحمده حمدا غير مبغوض ولا مهضوم * وأؤمن به إيمانا غير مظنون ولا موهوم * وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له شهادة تقى حر نار السموم * وتفيء بتكفير ذنب المأثوم * وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الحاكم بشرعه على كل حاكم من البرية ومحكوم * المفضل جمسه على كل مفرد من الخلق وملموم * صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين لا تحصى فضائلهم بمنثور ولا منظوم * ولا تجهل مآثرهم الى يوم الوقت المعلوم *

﴿ وبعد ﴾ فان الفقهاء رضى الله عنهم أرباب النظر والمحررين أدلة العبر قد ألفوا فى مذاهب الجدال ما يتضمن تحرير الاستدلال وتقرير الجواب والسؤال الا أن

الأمر الاصطلاحي منقوض بمثله وربما نسخ اصطلاحا اصطلاح بوعره عند قوم أو بسهله . والمذهب الذى يرسخ ولا ينسخ ويعلو فرعه ويشمخ ما كان مجناه من حبات القلوب * وسقياه من الشراب الطهور المنقى من العيوب * الكاشف لاسرار الغيوب * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد *

وقد استخرت الله تعالى فى استنباط طريق من طرقه * واسكان بعض القاصدين لهذا الفن غرفة من غرفه * وهذا الكتاب يشتمل على ثمانية أبواب * لكل باب فضل فى فصل الخطاب * ولكنه وقف على ذوى الحلوم والالباب * ومشارع هذه الابواب من الكتاب المعصوم من الزلل والارتياب *

(الباب الاول) فى ذكر الجدل فى الكتاب العزيز والممدوح منه والمذموم (الباب الثانى) أول من سن الجدال (الباب الثالث) جدال الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه للامم (الباب الرابع) ذكر الادلة وأنواعها على وجود الصانع سبحانه (الباب الخامس) ذكر الادلة على أنه واحد (الباب السادس) ذكر أدلة البعث (الباب السابع) ذكر الادلة على رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من القرآن العزيز (الباب الثامن) فى السؤال والجواب ونكت من الجدل فهذه ثمانية أبواب * وعلى توفيق الله سبحانه وتعالى الاحالة بالصواب *

﴿الباب الاول فى ذكر الجدال والحجة﴾

إعلم أن الله سبحانه ذكر لفظة الجدل وما تصرف منها فى كتابه العزيز فى تسعة وعشرين موضعا ــ ولفظة الحجة وما تصرف منها فى سبعة وعشرين موضعا ولفظة السلطان أيضاً في ثلاثة وثلاثين موضعا الجميع المراد به الحجة سوى موضع واحد فى الحاقة * هلك عنى سلطانيه * وقيل المراد به الحجة فأما الجدل فهو مذموم فى كل موضع ذكر الا فى ثلاثة مواضع (أحدها) فى النحل (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن)[1] (الموضع الثانى) فى العنكبوت (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن)[2] (الموضع الثالث) فى المجادلة

١ ـ النحل ١٢٥
٢ ـ العنكبوت ٤٦

(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾[١] وهذه المرأة هي خولة بنت ثعلبة الانصارية كانت تحت زوجها أوس بن الصامت والقصة مشهورة فإما قوله سبحانه (وجادلهم بالتي هي أحسن)[٢] فيحتمل أن يكون المراد بالاحسن الاظهر من الأدلة . ويحتمل التعجيز عن الاتيان بمثل القرآن لأنه أحسن الأدلة نظاما وبيانا وأكملها حسنا واحسانا وأرجحها من الثواب ميزانا، وأوضحها على اختلاف مدلولاتها كشفا وبرهانا * ويحتمل الاصغاء إلى شبههم والرفق بهم في حلها ودحضها . ويحتمل بترك الغلظة عليهم في حال جدالهم لتكون عليهم الحجة أظهر والجحد منهم أنكد وهى سنة الأنبياء عليهم السلام مع الأمم عند الدعوة والمجادلة . من ذلك لما قالوا لمحمد ﷺ مجنون قال (ومامسنى السوء)[٣] أي جنون من غير ان يقابلهم على ذلك بقول خشن من النخوة العربية والعزة الهاشمية وقالوا لنوح عليه السلام (إن هو إلارجل به جنة فتربصوا به حتى حين . قال رب انصرني بما كذبون)[٤] وقالوا له (إنا لنراك في ضلال مبين قال ياقوم ليس بي ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين)[٥] وقالوا لصالح (إن هو إلارجل افترى على الله كذباً ومانحن له بمؤمنين . قال رب انصرني بما كذبون)[٦] وقالوا لهود (إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول . من رب العالمين)[٧] فلوقابلهم الأنبياء بغلظة لنفرت طباعهم وانصرفت عقولهم عن التسديد لما قالوا والتدبر لما جاؤا به من البينات فلم تنضح لهم الحجة ولم تقم عليهم الحجة وشاهد هذه الحالة قوله تعالى (واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم)[٨] *

﴿ الباب الثانى ﴾

أول من سن الجدال الملائكة صلوات الله عليهم حيث قالوا(أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون)[٩] وهذا منهم استدلال بالترجيح والاولوية أى من سبح وقدس لك هو أولى بالايجاد والجعل فيها ممن يفسد فيها ويسفك الدماء وكان جواب الله لهم بالترجيح أيضا من جهة أخرى ولهذا لم يرد عليهم قولهم اذ قد علم سبحانه أن الذى ظنوه

١ ـ المجادلة ١
٢ ـ النحل ١٢٥
٣ ـ الاعراف ١٨٨
٤ ـ المؤمنون ٢٥ ـ ٢٦
٥ ـ الاعراف ٦٠ ـ ٦١
٦ ـ المؤمنون ٣٨ ـ ٣٩
٧ ـ الاعراف ٦٦ ـ ٦٧
٨ ـ البقرة ٢٠٦
٩ ـ البقرة ٣٠

فيهم ووصفوهم به كائن بل عدل الله سبحانه الى أمر مجمل فقال (انى أعلم مالا تعلمون)من ترتيب خلقي وتدبير صنعتي المحوط بالحكمة الدال على القدرة فانى خلقت الملائكة من نور لا ظلمة فيه فكان منهم الخير المحض بارادتي وخلقت الشياطين من ظلمة نار السموم وهو المارج فكان منهم الشر المحض بارادتى وخلقت آدم وذريته من نور وظلمة فكان منهم الخير والشر بارادتي ووضعت فيهم عقلا يرشد الى المصالح و نفسا ميالة الى الهوى المؤذى وأمددت الفريقين بجندين يسوقان العقل والنفس الى ماسبق من التقدير الناشيء عن علم التدبير وكان حكمى فى هذين الفريقين أن من غلب عقله على هواه فهو من الناجين ومن غلب هواه على عقله فهو من الهالكين وهذا ما اشتمل عليه قوله تعالى(إنى أعلم مالا تعلمون) ومما اشتمل عليه(انى أعلم مالا تعلمون) ان اختلاف الصنايع أول دليل على قدرة الصانع ومما اشتمل عليه (انى أعلم مالا تعلمون) أني ركبت فيهم من الشهوة مالو ركبته فيكم لفعلتم فعلهم أولم تطيقوا صبرهم على أنهم قد أحبونى محبة بذلوا فيها أبدانهم للتمزيق ودماءهم للاراقة وأرواحهم للذهاب ومنهم الصابرون على أنواع المكاره والصائمون فى الهواجر والعابدون على ضعف القوى . والناهون نفوسهم مع قوة الهوي ويرون ذلك المرّ حلوا فى رضاى وتسليما لقضائى وقدرى يسابق كل ولى منهم بالعبادة أجله يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة فظهرت حكمة الله عز وجل فى خلقهم ورجحت حجة الله سبحانه على الملائكة فى قدحهم ❊

فأما ابليس فهو أول من أظهر الخلاف وركب العناد وسار به في البلاد . والفرق بينه وبين الملائكة أن الملائكة لم يظهر منهم خلاف ولا عصيان بل طلبوا بسؤالهم الايضاح والبيان . وابليس أفتى ودل فى مسألته فانقطع فى مجادلته وخسر فى كرته وبيان فساد تعليله . وازاغته عن الصواب فى تأويله . أنه قال (خلقتني من نار وخلقته من طين)[١] ومعناه أن النار جوهر لطيف شفاف له قوة الاشراق وسلطان الاحراق . والطين جسم مظلم كثيف . ليس باللطيف ولا الخفيف . والسجود خدمة يتضمن تعظيم المسجود له والاولى بها الاعلى منهما هذا منتهى كلامه ومضمون قوله وهو مردود عليه من وجوه ❊ منها أنه عارض النص بالقياس

١ ـ الاعراف ١٢

وهو فساد فى الاعتبار وعدم استبصار لان العمل بالنص مقدم على القياس لان سهام القياس تصيب مرةوتخطىء أخرى . وكلام المعصوم المنزه عن الغلط والزلل لايخطىء * ومنها أن الماء والتراب والهواء والنار أصول الاجسام ومواد المركبات فلا يقوم جسم الا باجتماعها واذا كانت متكافئة فى التأثير فاختصاص أحدها بالافضلية لادليل عليه * ومنها أن الطين اشتمل على أصلين من الاصول الاربعة وهما الماء والتراب فكيف يكون أصل واحد خيرا من أصلين متكافئين .وعلى تقدير تسليم التفاضل فالماء أفضل لان سلطانه يقهر سلطان النار اذا التقيا * ومنها على تقديرصحة قياسه فالترجيح للسجود من وجهين (أحدهما) أن مصلحة امتثال الامر راجحة على الامتناع لان امتثال الامر أمن من العقاب المرتب على المخالفة (الوجه الثانى)أن الامتناع من السجود بهذا التعليل المذكور من جهته يلزم منه تخطئة الآمر ونسبته الى وضع الشىء فى غير موضعه وذلك فى غاية الجناية على الآله الحكيم . وقد قال بعض المتكلمين ان كل شبهة وقعت فى الملل فاصلها من شبهتى ابليس * قال المصنف بل هى شبهة واحدة مطردة فى كل مذهب فاسد وقد ذكرنا ذلك فى كتاب البروق *

وأما الحجة فهى عبارة عن دليل الدعوي وقد تطلق علي الشبهة أيضا لانها مستند المخالفة . قال الله تعالى (حجتهم داحضة عند ربهم)[1] وقال تعالى (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)[2] وقوله تعالى (فلله الحجة البالغة)[3] أي الدليل القاطع الذى لايعارضه معارض وذلك قوله تعالى (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه)[4] وقد قيل فى قوله تعالى إخبارا عن ابليس (وما كان لى عليكم من سلطان)[5] أي حجة وانما غرهم بالشبهة فالحجة حقيقة فى الدليل مجاز فى الشبهة *

١ - الشورى ١٦
٢ - النساء ١٦٥
٣ - الأنعام ١٤٩
٤ - الأنعام ٨٣
٥ - إبراهيم ٢٢

الباب الثالث

فى جدال الانبياء عليهم الصلاة والسلام للامم أولهم جدال نوح عليه السلام قال (استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا مالكم لاترجون لله وقارا وقد خلقكم

أطوارا ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الارض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا والله جعل لكم الارض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا)[1] وقال تعالى (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه اني لكم نذير مبين أن لا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين)[2] أجابهم نوح عليه السلام بالحجة العظمى فقال (ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي)[3] الى هنا هى الحجة العظمى وهذه الحجة العظمى هى التي أضافها الله عزوجل الى نفسه فى قوله (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه)[4] وقد أشبعنا القول فيها فى كتاب الحجة العظمى (قالوا يانوح قد جادلتنا فاكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين)[5]

جدال ابراهيم وحجاجه وله ثلاث مقامات الاول مع نفسه . الثانى مع أبيه . الثالث مع نمرود وقومه ﴿ الاول ﴾ رأى كوكبا قال هذا ربى الى آخر القصة . وجه استدلاله أنه رأى انارة الكوكب وحسنه وعلو مكانه ولم ير قبله مثله فقال هذا ربى بناء على أن الرب لا ينبغى أن يكون له مثل فلما أفل أدرك نقصه وعيبه لان الافول تغير والتغير حدوث والكامل لا يجوز عليه الحدوث لانه صانع الحدوث وطرد القياس فى الاثبات والنفى على باقى الكواكب بالاعتبار الاول ومن حيث علم أنها مكونة مصنوعة علم أنها لا بد لها من صانع هو أكمل منها فقال (وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض)[6] ليدخل فى ذلك الكواكب التى اعترضته فى طريق الاستدلال ﴿ المقام الثانى مع أبيه ﴾ قال الله تعالى (واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا اذ قال لابيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا يا أبت انى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا قال أراغب أنت عن آلهتى ياابراهيم لئن لم تنته لارجمنك واهجرنى مليا)[7] فكان جواب أبيه جواب جاهل لانه قابله على نصحه له بالرجم والهجر أشبه جواب قومه (وما كان جواب قومه الا أن قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم)[8] ﴿ المقام الثالث ﴾ مع النمرود وقومه وهو

١ ـ نوح ١٠ ـ ٢٠
٢ ـ هود ٢٥ ـ ٢٧
٣ ـ هود ٦٣
٤ ـ الأنعام ٨٣
٥ ـ هود ٣٢
٦ ـ الأنعام ٧٩
٧ ـ مريم ٤١ ـ ٤٦
٨ ـ الأنبياء ٦٨

قوله تعالى (ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فات بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين)[1] فالصادر من خصمه معارضة الا أنها فاسدة لان حقيقة الاحياء والامانة التى فسرها خصمه غير الذي قصده ابراهيم فلا يخلو حال نمرود اما أن يكون ما فهم حقيقة الاحياء والامانة أوفهم الا أنه قصد المصادمة والمباهتة وكلاهما يوجب العدول الى دليل يفضح معارضته ويقطع حجاجه ومتى كان الخصم بهذه الصفة جاز لخصمه الانتقال الى دليل آخر أقرب الى الفهم وأفلج للحجة وسيأتى نظيره فى قصة موسى عليه السلام قال الله تعالى (وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدانى)[2] وذكر الحجة العظمى فقال وكيف أخاف الى قوله (فأي الفريقين أحق بالامن)[3] وقد شرحنا هذا فى كتاب الحجة العظمى * فان قيل ما الحكمة انه جادل الملك بالاحياء والامانة والاتيان بالشمس من المشرق وكل ذلك يمكن دعوى المعارضة له والكلام عليه ولم يدعه بالحجة العظمى وجادل قومه بالحجة العظمى فالجواب أن الملك كان يدعى الربوبية فلا يقال انه لا يخلو اما أن يكون لنا إله أولا بخلاف حال قومه فانهم لم يدعوا ربوبية

﴿ جدال موسى عليه السلام ﴾ قال الله سبحانه (فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين)[4] الى أن قال سبحانه (قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الاولين قال ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون قال لئن اتخذت إلها غيري لاجعلنك من المسجونين قال أولو جئتك بشيء مبين قال فأت به ان كنت من الصادقين فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين)[5] والاشارة الى وجه الدلالة من ذلك ان فرعون لما قال (ومارب العالمين) علم موسى أنه سؤال عن ماهية رب العالمين ورب العالمين لاماهية له لانه الاول فلا شيء قبله فيكون منه بل هو مكون ما تكون الاشياء منه فلم يشتغل موسى برد سؤاله وبيان فساده وكان المقصود تعريف الرب جل وعلا بصفته فقال (رب السموات والارض وما

١ ـ البقرة ٢٥٨
٢ ـ الأنعام ٨٠
٣ ـ الأنعام ٨١
٤ ـ الشعراء ١٦
٥ ـ الشعراء ٢٣ ـ ٣٣

بينهما) فحصر الكائنات فى ثلاث كلمات فلما قال (ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الاولين) ردا على فرعون قوله (أنا ربكم الاعلى)[1] فلما قال (ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون) أردف ماذكر بشاهدين آخرين فقال (رب المشرق والمغرب وما بينهما) لان المشرق والمغرب آيتان عظيمتان لا يقدر فرعون على ادعائهما فلما اندحصت حجته قال (لئن اتخذت إلها غيرى لاجعلنك من المسجونين قال أولو جئتك بشىء مبين قال فأت به ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين) آيتان عظيمتان فى انقلاب أعيانهما وانما كانت الآية فى العصا لانها أنزلت على آدم بسبب الكلاب لما نبح عليه لما تعاظمت دعوى فرعون قوبل بها اهانة له واستحقارا وكونها ظهرت فى صورة ثعبان مناسب لحاله لان مسها لين وفعلها قاتل وفرعون باظهار كرمه وعدله لين وفعله قاتل لنفسه وغيره فأما يده البيضاء فالاشارة فيها جئتك بالشرع المنير الابيض الذى لا ظلمة فيه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جئتكم بها بيضاء نقية » ولما كانت آية موسى عليه السلام حسية ومعجزاته مرئية لم يخاطبهم بالحجة العظمى لانها عقلية ولما هموا بقتله ألهم الله سبحانه مؤمن آل فرعون الحجة العظمى فقال (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم)[2] وقد شرحنا ذلك فى كتاب الحجة العظمى *

وأما جدال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكفار قريش واليهود فسيانى فى ذكر الادلة الدالة على صدق رسالته *

* الباب الرابع فى ذكر الادلة على وجود الصانع سبحانه *

اعلم انها لا تحصى لان كل موجود عن عدم فهو دليل على وجود موجده كما قال سبحانه (وان من شىء الا يسبح بحمده)[3] وذلك التسبيح اذعان لموجده وعبادة لربه كما قيل

وفى كل شىء له آية   تدل على أنه واحد

١ ـ النازعات ٢٤
٢ ـ غافر ٢٨
٣ ـ الاسراء ٤٤

فاما أدلة الكتاب العزيز فمنها قوله تعالى (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت فذكر انما أنت مذكر)[١] وقال تعالى (ألم نجعل الارض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماءاً ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافاً)[٢] وصرف سبحانه هذه الكلمات فى كتابه العزيز وصرف هذه الادلة منها الدلالة علي وجوده وقدرته وحكمته وانه لا مشارك له ولا معاضد ولا مغالب فقال (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولانعامكم)[٣] وقال تعالى (وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون)[٤] وقال تعالى (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيي به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون)[٥] وقال تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون)[٦] وقال تعالى (تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب)[٧] وقال تعالى (ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون)[٨]

١ ـ الغاشية ١٧ ـ ٢١
٢ ـ النبأ ٦ ـ ١٦
٣ ـ النازعات ٢٧ ـ ٣٣
٤ ـ الرعد ٤
٥ ـ البقرة ١٦٤
٦ ـ يونس ٥
٧ ـ آل عمران ٢٧
٨ ـ الأنعام ٩٥ ـ ٩٧

وقال تعالى (وهو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموت من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين)[1] وقال تعالى (واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا إياه)[2] وقال تعالى (وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذاهم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله مايركبون وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون إلا رحمة منا ومتاعا الى حين)[3] وقال تعالى (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون) وقال تعالى (أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون)[4] وقال تعالى (أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون)[5] وقال (أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون)[6] وقال تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة)[7] الى قوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) وقال تعالى (فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الارض شقا)[8] الى قوله (متاعا لكم ولانعامكم)[9] فوجه الدلالة من هذه الآيات جلى لمن سبقت له السعادات * قال تعالى (أنظر كيف نصرف الآيات)[10] وقد مدح الله تعالى قوما أدتهم الفكر الى معرفة العبر قال سبحانه وتعالى (ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)[11]

﴿ فصل ﴾ وقد حصلت معرفة الله سبحانه لقوم مخصوصين من طريق اخر

الاسراء ٦٧
يس ٣٣ - ٤٤
يس ٧١ - ٧٣
الواقعة ٥٨ - ٥٩
الواقعة ٦٨ - ٦٩
الواقعة ٧١ - ٧٢
المؤمنون ١٢ - ١٤
عبس ٢٤ - ٢٦
عبس ٣٢
- الأنعام ٤٦
- آل عمران ١٩١

مخصوص وهم الملائكة وما جرى لهم من سؤال وجواب * وفى قصة ابليس كفاية له عن التنويع فيما يقيس والتجنيس وحصل العلم اليقيني لآدم فيما حدث من أمره وتقادم فاستسلم وسالم . فالانبياء مائة الف نبي وأربعة وعشرون الف نبى الكل عرفوا الصانع معرفة اليقين منهم المرسلون ثلثمائة وثلاثة عشر أغني عيان الا يات عندهم عن الخبر فى نوح ودعوته ونجاة أهل سفينته وفى ابراهيم وناره وحياة أطياره ويوسف وبراءه بشهادة غلامه واجابته فى قضاء حاجاته واهلاك عدوه من جميع جهاته ويونس وحوته وزكريا وسكوته ومريم وابنها آيات بينات *ويتبع هذا الجمع جموع لاتحد لهم كثرة كلهم أخبر عن وجود إله واحد قادر مريد عالم حى والانبياء وأتباعهم هم حجج الخلق وعلماؤهم وأعيان العلماء ونبلاؤهم ولو لم يكن هناك دليل على وجود الاله سوى اتفاقهم على وجوده بالصفات المذكورة كان ذلك كافيا فى حصول العلم واليقين بخبرهم اذ كانوا جميعا لا يتصور التواطؤ منهم على الكذب والله الهادي بفضله *

﴿ الباب الخامس ﴾

ذكر الادلة على أنه واحد سبحانه ومن حيث ثبت أنه موجود بصفة الوجوب ثبت أنه واحد لان الصنعة مفتقرة الى الصانع وليست مفتقرة الى مازاد على الصانع فصار وجود مازاد على الصنعة جائزا والجائز الوجود لا يجوز أن يكون إلها مبدعا قديما وأما أدلة الكتاب العزيز فكثيرة من ذلك قوله تبارك وتعالى (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) وهذا الدليل معتمد أرباب الكلام من أهل الاسلام وقد نقل عن بعض علماء السلف أنه قال نظرت فى سبعين كتابا من كتب التوحيد فوجدت مدارها على قوله تعالى (لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)[1] دليل آخر (فى سورة المؤمنين قوله تعالى (مااتخذ الله من ولد وما كان معه من إله اذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون)[2] وفى الكلام حذف وتقديره ولو كان معه آلهة وانما حذف للايجاز والايجاز مستحسن فى كل مكان وههنا أكمل حسنا لئلا يتكرر ذكر الاله لانه ابطال على تقدير وانما

١ - الأنبياء
٢ - المؤمنون ٩١

ذهب كل إله بما خلق لاجل طلب الاستعلاء بالعلو والقدرة وذلك منشأ المخالفة والمنافسة والتغالب والمغلوب لا يكون الهاً « دليل آخر » قوله فى سبحان (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا)[١] ومعناه أن الآلهة تطلب المنازعة والمخالفة فى المراد فحينئذ يقع الفساد اذ يريد أحدهما حياة شخص والآخر موته أو اسعاده والآخر اشقاءه فان قيل الشبهة على هذه الادلة من وجهين أحدهما يجوز أن يكون اثنان تتفق ارادتهما فلا يقع خلاف فلا يقع فساد * الشبهة الثانية قالوا لما رأينا وجود الشيء وضده من الموت والحياة والنور والظلمة والخير والشر وما يقتضى الحكمة وينافيها من النقض بعد البناء والعجز بعد القوة جاز أن ينسب الى مدبرين اثنين والجواب عن الشبهة الاولى استحالة وجود اثنين لا تنفك ارادة أحدهما عن ارادة الآخر متكافئين فى العلم والقدرة والارادة والحكمة والتدبير على وجه لا تتقدم صفة أحدهما على صفة الآخر فى الاعيان والاذهان فاذاهما واحد سموه اثنين * والجواب عن الشبهة الثانية أن صدور الشيء وضده أدل على قدرة الصانع وقد نبه سبحانه على ذلك فى عدة مواضع من الكتاب العزيز من ذلك قوله تعالى (تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل)[٢] *

﴿ الباب السادس ذكر أدلة البعث فى الكتاب العزيز ﴾

وهى كثيرة من ذلك قوله تعالى (ويقول الانسان أإذا مامت لسوف أخرج حيا أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا)[٣] ومثله (أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين)[٤] المراد هاهنا أبي بن خلف . وقيل العاص بن وائل ثم ذكر سبحانه وتعالى شبهة فقال (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم)[٥] فجاء الجواب من وجهين أحدهما جدلا يتضمن فساد شبهته من جهة أنه استبعد الاعادة والحياة فى عظام وحش وترك نفسه وذلك أهم من احياء الحيوان البهيم لان ايجاد الحيوان البهيم كان لاجل الانسان * الوجه الثانى (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة)[٦] الى آخر السورة فان ايجاد المبادىء أصعب فى مطرد العرف وحكم العقل من رد شيء كان الى ما كان على ما لا يخفى وقوله سبحانه

١ ـ الاسراء ٤٢
٢ ـ الرعد ٤
٣ ـ مريم ٦٦ ـ ٦٧
٤ ـ يس ٧٧
٥ ـ يس ٧٨
٦ ـ يس ٧٩

(الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا)[١] معناه ايجاد شيء مما ينافيه وينافره فلا بد من قوة من خارج تغلب على المتنافرين المتنافين بفعل ذلك ثم قال سبحانه (أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم)[٢] معناه من قدر على خلق السموات والارض قدر على خلق هذا النوع اللطيف والشكل الضعيف واذا قدر على ايجاده قدر على رده بعد نفاده ثم أخبر سبحانه عن نفسه بماذا تخلق الاشياء وتكون فقال (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)[٣] وفى موضع آخر (انما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون)[٥] وعند ذلك سبح نفسه فقال (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون)[٤] فعم الموجود والمعدوم والابداء والاعادة وجعل الرجوع خاتمة الكلام لان الانكار له والادلة أقيمت عليه * ومن أدلة البعث فى سبحان (فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة)[٦] ومن أدله البعث قوله (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الاعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم)[٧] وانما قال سبحانه وهو أهون عليه ضرب مثل لان المقدورات عندنا متفاوتة فى العسر واليسر باختلاف القدرة التى تزيد وتنقص فى حقنا ولما كان ايجاد شيء لا من شيء مستحيلا منا وايجاد شيء من شيء ممكنا فاستعار له كلمة افعل ضرب ذلك مثلا ولما استحال فى حقه العجز والضعف عن ايجاد شيء لا من شيء قال (وله المثل الاعلى) وذلك مطرد فى سائر صفاته سبحانه من العلم والقدرة والحياة والرحمة والرضا والغضب وكل صفة وصف بها الانسان من ذلك مثاله قولنا عالم والواحد منا عالم ولكن يطلق على المخلوق باعتبار معلوم ما وان علمه من جهة جهله من جهات ثم علمه إما بطريق الخبر والنظر أو الاضطرار والله سبحانه عالم بما كان وما يكون على وجه لا يخفى عليه شيء ولا يداخله الشك ولا الذهول ولا النسيان ولا يتقدم اين ما ولا مكان ولا نظير ولا حين ولا اضطرار قال تعالى (ألا يعلم من خلق)[٨] فهذا معنى قوله (وله المثل الاعلى) ومن أدلة البعث قوله تعالى (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة ان الله على كل شيء قدير)[٩] ومن أدلة البعث قوله تعالى (ومن اياته أنك تري الارض خاشعة فاذا أنزلنا عليها

١ - يس ٨٠
٢ - يس ٨١
٣ - يس ٨٢
٤ - يس ٨٣
٥ - النحل ٤٠
٦ - الاسراء ٥١
٧ - الروم ٢٧
٨ - الملك ١٤
٩ - العنكبوت ٢٠

الماء اهتزت وربت ان الذى أحياها لمحيي الموتي إنه على كل شيء قدير)[١] ومن أدلة البعث فى سورة الواقعة قوله تعالى (أفرأيتم ماتمنون أفرأيتم ماتحرثون أفرأيتم الماء الذى تشربون أفرأيتم النار التى تورن) ووجه دلالة النار على البعث أن النار تكمن فى الشجر والحجر ثم تظهر بالقدح وتشب بالنفخ فالحجر والشجر كالقبر والقدح والنفخ كالنفخة فى الصور وانما ذكر الله سبحانه فى هذه السورة هذه الادلة الاربعة متوالية لانه بدأ السورة بالواقعة وهى القيامة وقال (ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة)[٢] وان الجاحدين كما قال كانوا يقولون (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أوا باؤنا الاولون)[٣] فكان الجواب (قل ان الأولين والاخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم)[٤] ومن أدلة البعث فى سورة الاحقاف (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والارض ولم يعي بخلقهن بقادر علي أن يحيي الموتى بلى انه على كل شيء قدير)[٥] ومن أدلة البعث (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة)[٦] قال المصنف والادلة على البعث جوازا ووجوبا . أما الجواز فالنظائر الحسية وأما الوجوب فما وعد الله تعالى به من البعث والاعادة واكرام الطائعين بجنته واهانة المجرمين بعقوبته وماافتنع للخلق بتكرير وعده الصادق حتى حلف على ذلك فى عدة مواضع من ذلك (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم)[٧] ومن ذلك (فورب السماء والارض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون)[٨] ومن ذلك (ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى انه لحق)[٩] *

(فصل) ولم يكن لمنكر شبهة الامجرد تعجب واستبعاد قال الله تعالى (وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد)[١٠] معناه ان كان لك عجب من شيء فمن انكارهم البعث فاعجب لان العجب ماندر وجوده وخفى سببه وليس هذا مما ندر وهم يشاهدون احياء الارض بعد موتها واكتساء الاشجار بعد عريها وعود النهار بعد زواله والليل بعد ذهابه واخراج الحى من الميت والميت من الحى ولا مما خفى سببه فان الله سبحانه هو الفاعل لذلك والمخترع له والقادر عليه وحكمته اظهار مااستتر عن خلقه من تدبيره وما النشأة الثانية بأعجب من الاولى وقد قال بعض الحكماء ثبت أن الله عز وجل حكيم والحكيم لاينقض مابنى الا لحكمة أتم من حكمة

١ ـ فصلت ٣٩
٢ ـ الواقعة ٢ ـ ٣
٣ ـ الواقعة ٤٧ ـ ٤٨
٤ ـ الواقعة ٤٩ ـ ٥٠
٥ ـ الاحقاف ٣٣
٦ ـ الحج ٦٣
٧ ـ التغابن ٧
٨ ـ الذاريات ٢٣
٩ ـ يونس ٥٣
١٠ ـ الرعد ٥

النقض ولا يجوز أن يكون أنقص ولا مماثله على مالايخفى

﴿ الباب السابع ﴾

ذكر أدلة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب العزيز والكتاب العزيز كله دليل على صدق رسالته بل كل سورة منه دليل عليه لمكان العجز عن الاتيان بمثلها وقد ورد التحدى بذلك فى الكتاب العزيز فى خمسة مواضع من ذلك قوله تعالى (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداء كم من دون الله ان كنتم صادقين [١]) الموضع الثانى قوله عز وجل (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا [٢]) الثالث (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين [٣]) الموضع الرابع (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعو من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين [٤]) الموضع الخامس (أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين [٥]) ﴾

﴿ فصل ﴾ قد توجه القرآن العظيم على مائة دليل وأربعة عشر دليلا عدد سوره فالتحدى بالطوال منه كالتحدى بالقصار فعلى هذا السور القصار اذا أخذت عدلها كلمات علي ترتيبها كانت معجزة ويقع بهذا التحدى أو سورة سورة من القصار وعدلها من أى القرآن من أي سورة كان كانت معجزة فاذن تبلغ أدلة التعجيز منه مبلغا يزيد على الالف دليل وهذا من أسرار الكتاب العزيز وعجائب التنزيل « دليل آخر » قوله (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا [٦]) أخبر أن المنكرين نبوته لم يقدروا على معارضته وكذلك جرى (دليل آخر) قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون [٧]) وهذا خبر لم يسمع الا من الرسول وكان الامر كما أخبر (دليل اخر) أخبر أنه (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه [٨]) فكان الامر كما أخبر بحمد الله ومنه (دليل اخر) (ألم غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين [٩]) وقصة مبايعة أبى بكر الصديق رضى الله عنه لابى ابن خلف مشهورة « دليل اخر » (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين

١ - البقرة ٢٣
٢ - الاسراء ٨٨
٣ - هود ١٣
٤ - يونس ٣٨
٥ - الطور ٣٣ - ٣٤
٦ - البقرة ٢٤
٧ - الحجر ٩
٨ - فصلت ٤٢
٩ - الروم ١ - ٤

محلقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا) [1] فكان كذلك (دليل اخر) المباهلة قوله تعالى (فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم) [2] الآية وهذا دليل يدل بسياقه وبخصوصه على نصارى نجران « دليل اخر » يخص اليهود وهو قوله تعالى (قل ان كانت لكم الدار الاخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) [3] وهذا دليل واضح وحجة قاطعة على اليهود فلولم يعلموا أنهم إن تمنوه ماتوا والا كانوا تمنوه فيحاجوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبطلوا نبوته وكان ذلك أهم الاشياء عندهم « دليل اخر » (قل ياأيها الذين هادوا ان زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) [4] فلو لم يعلموا أنه رسول الله وأن خبره حق وصدق لبادروا الى مايبطل دعواه ويكذب خبره « دليل اخر » خاص باليهود والنصارى والعرب قوله تعالى (الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) [5] وقد علموا أنه لا يعرف الكتابة ولا النظر في الكتب ولم يكن من شأنه « دليل اخر » قوله تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل) [6] الى آخر الآية فالدلالة من ذلك من وجهين أحدهما ان هذه الصفات لا تكون الا في الصادقين اذ كانت أعدل السمات وأكمل الصفات الثاني ذكرهم في التوراة والانجيل كما سبق « دليل آخر » مختص باليهود قوله تعالى (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) [7] فلولا يعلم أنهم يعلمون ذلك لما استجاز أن يخبرهم بأمر يدعي معرفتهم به وهم لايعرفونه « دليل آخر » قوله تعالى (وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لوأنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم) [8] قال ابن عبد البر كان بين الأوس والخزرج من العداوة مالم يكن بين أحد من بني ادم فألف الله

١ ـ الفتح ٢٧
٢ ـ آل عمران ٦١
٣ ـ البقرة ٩٤ ـ ٩٥
٤ ـ الجمعة ٦ ـ ٧
٥ ـ الاعراف ١٥٧
٦ ـ الفتح ٢٩
٧ ـ الأنعام ١١٤
٨ ـ الانفال ٦٣

قلوبهم لاجل نصرة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فساروا يدا واحدة وقلبا واحدا « دليل اخر » قوله تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)[١] وهذا خبر عن الغيب وكان كما أخبر « دليل اخر » قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا) ومعلوم أن هذه سيرة أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى خوفهم أولا وأمنهم ثانيا وتمكينهم واستخلافهم فى الارض وهذا ظاهر الدلالة « دليل اخر » قوله تعالى (وإنك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الارض)[٢] فنظرنا فيما دعا اليه فكانت مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم صراط العقلاء ومختار النبلاء وهى الاخلاق المأمور بها فى سبحان (وقضى ربك أن لا تعبدوا الا إياه وبالوالدين احسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فانه كان للاوابين غفورا وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطأ كبيرا ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤلا وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا ولا تقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ولا تمش فى الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا كل ذلك كان

١ ـ الصف ٩
٢ ـ الشورى ٥٢ ـ ٥٣

سيئه عند ربك مكروها ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا)[1] وكذلك قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون)[2] ومثل هذه السير العادلة والمكارم المستحسنة لاتجرى على لسان نجران

« دليل آخر » علي اليهود قوله تعالى (كل الطعام كان حلالبني اسرائيل الا ماحرم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين فمن افتري على الله الكذب من بعد ذلك فاؤلئك هم الظالمون)[3] روى أن اسرائيل أخذه وجع العرق الذى يقال له النسا فنذر لان شفاه الله تعالى منه ليحرمن أحب الطعام والشراب اليه وكان أحب ذلك اليه لحوم الابل وألبانها فشفي فوفى بنذره وادعت اليهود ان ذلك كان حراما على نوح حتى انتهى الامر اليهم فبين الله تعالى بطلان دعواهم وأمر أن يحاجهم بالتوراة فلم يجسروا على اخراجها وفى ذلك الدلالة الظاهرة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم « دليل آخر » قوله تعالى (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين)[4] وهى السنون التى دعا النبى صلى الله عليه وسلم بها على أهل مكة والدخان الجدب سمى دخانا لان الغبار يزيد فى الجدب فيكون كالدخان

« دليل آخر » قوله تعالى (قل للمخلفين من الأعراب ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون)[5] وأصحاب البأس الشديد مسيلمة وأصحابه يوم اليمامة وقيل فارس والروم وأيما كان فقد أخبر عن الغيب فيه فكان الامر كذلك

« دليل آخر » قوله تعالى (ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبدا وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون لئن أخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم)[6] وفى هذا دليل ظاهر على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم لانه من الغيب الذى لايعلمه الا الله فانهم أخرجوا فلم يخرجوا معهم وقوتلوا فلم ينصروهم « دليل آخر » قوله تعالى (هو الذي بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين وآخرين منهم لما يلحقوا بهم)[7] قيل هم من بعد الصحابة وقيل هم الاعاجم

١ ـ الاسراء ٢٣ ـ ٣٩
٢ ـ النحل ٩٠
٣ ـ آل عمران ٩٣ ـ ٩٤
٤ ـ الدخان ١٠
٥ ـ الفتح ١٦
٦ ـ الحشر ١١ ـ ١٢
٧ ـ الجمعة ٢ ـ ٣

وعلى كلا الامرين فقد وقع الخبر موافقا للمخبر به « دليل آخر » قوله تعالى (والله يعصمك من الناس)[١] وقوله (له معقبات من بين يديه ومن خلفه)[٢] وكان يحرس فقال اذهبوا فان الله قال قد عصمني فاخبر بعصمته فما قدر احد على قتله مع كثرة أعدائه والقاصدين له بذلك كما عرف « دليل آخر » قوله تعالى أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)[٣](أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)[٤] ولا خلف في خبره صلى الله عليه وسلم وقد أخبر كما تقدم من القصص واليهود يعرفون صحة ما أخبر من كتابهم هذا ولم يكن صاحب كتابة ولا مشتغلا بالكتب وأخبر عن أمور منها ما كان ومنها ما سيكون ومن أنعم النظر فى الكتاب العزيز استنبط من أدلة صدق محمد صلى الله عليه وسلم أكثر مما ذكرناه فاما أدلة رسالته من غير الكتاب العزيز فهى أكثر من أن تحصى وقد الف فى دلائل النبوة جماعة من العلماء منهم أبو نعيم الحافظ الاصبهانى ومنهم أبو بكر ابن فورك ومنهم الحافظ أبو بكر البيهقى ﴿ فصل ﴾ ومن فهم مذهب الفصاحة والبلاغة وأرشده الله تعالى ووفقه أمكنه أن يختار من الاخبار النبوية الصحاح الف حديث فما زاد تبلغ مرتبة التعجيز عن الاتيان بمثلها فيكون الف دليل على النبوة مستمرة التعجيز مشهودا لها بالتمييز واذا تقررت هذه الادلة التي ذكرناها فكل دليل دل على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى رسالة من سبقه من الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه فهو دليل على وجود الصانع سبحانه

الباب الثامن

فى ذكر الاسئلة والاجوبة الجدلية من الكتاب العزيز سؤال المنع (واذا قيل لهم لاتفسدوا فى الارض قالوا انما نحن مصلحون)[٥] معناه لانسلم انا مفسدون لان الاصلاح ضد الافساد فاذا ادعوا الاصلاح فقد أنكروا الافساد ثم منعوا هذه الدعوى بقوله تعالى (ألا إنهم هم المفسدون)[٦] وفى هذا دليل على جواز المنع من طريق المعنى وفيه الرد على من يقول هذا بغير توجيه لاهمال مراعاة صيغة لفظ المجادل وهذا يطرد فى كل موضع هذا سبيله ومثله قول الله تعالى عن الكفار

١ ـ المائدة ٦٧
٢ ـ الرعد ١١
٣ ـ محمد ٢٤
٤ ـ النساء ٨٢
٥ ـ البقرة ١١
٦ ـ البقرة ١٢

حيث قالوا لرسل عيسى بن مريم (انا تطيرنا بكم) قالوا لهم طائركم معكم[١] أي شؤمكم منكم لامنا ودليله أنكم جعلتم التذكير بالله و بعبادته علة الشؤم أي أإن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون سؤال النقض في قوله تعالى (الذين قالوا ان الله عهد الينا أن لا نؤمن لرسول حتي يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات و بالذي قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين[٢]) . معناه العلة التي توجب عندكم الايمان بالرسل قد وجدت فلم قتلتموهم فدل على أن التعليل بما ذكرتم غير صحيح وهذا النقض وارد على معنى كلامهم فدل على جواز ايراد مايهدم كلام الخصم على أي وجه كان * ومن صور النقض قوله تعالى (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا[٣]) النقض في قوله (أولو كان اباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) ومن صور النقض أيضا في قوله تعالى (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم[٤]) النقض بابراهيم عليه السلام لانه استغفر لابيه وهو مشرك في قوله تعالى (سأستغفر لك ربي انه كان بي حفيا[٥]) فكان الجواب (وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لاواه حليم[٦]) ومن صور النقض قوله تعالى (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا وقالوا انا بكل كافرون[٧]) سؤال القول بالموجب في قوله تعالى (قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين[٨]) القول بالموجب (قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم) تقديره (يريد أن يصدكم عما كان يعبد اباؤكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله[٩]) القول بالموجب في قوله تعالى (الذين يؤذون النبي و يقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين[١٠]) « سؤال المعارضة » في قوله تعالى (فأتوا بسورة من مثله فأتوا بعشر سور مثله مفتريات فليأتوا بحديث مثله[١١]) وذلك بأنه جعله دليلا على نبوته والدليل متى عورض بمثله بطل عمله فيسقط الاحتجاج به

﴿ فصل ﴾ الحكم تارة يعلل بعلة واحدة منفردة كقوله تعالى (ولكم في القصاص

١ ـ يس ١٨
٢ ـ آل عمران ١٨٣
٣ ـ البقرة ١٧٠
٤ ـ التوبة ١١٣
٥ ـ مريم ٤٧
٦ ـ التوبة ١١٤
٧ ـ القصص ٤٨
٨ ـ إبراهيم ١٠
٩ ـ إبراهيم ١١
١٠ ـ التوبة ٦١
١١ ـ البقرة ٢٣ هود ١٣ الطور ٣٤

حياة)[1] وتارة بعلتين كقوله تعالى (وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا واثما مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا)[2] فان قيل بل هى علة واحدة مركبة من وصفين فالجواب أن الافضاء علة فى استحقاق المهر فى الصحيح من النكاح والفاسد لقول النبى صلى الله عليه وسلم « فلها المهر بما استحل من فرجها » والميثاق الغليظ هو عقدة النكاح وهى كلمة الله عز وجل وهو قوله بما استحللتم من كلمة الله فهو قد يثبت بمجرده دون الافضاء جميع المهر بالموت ونصفه بالطلاق *

﴿ فصل ﴾ وقد يعلل الحكم بعلل كل علة تستقل بالحكم كقوله تعالى (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون)[3] *

﴿ فصل ﴾ تعليق الحكم على علة يقتضى النقيض كقوله تعالى (وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان جواب قومه الا أن قالوا إئتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين)[4] وكقوله تعالى (أخرجوهم من قريتكم انهم أناس يتطهرون)[5] وكقوله تعالى (وإذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم)[6] ومثله (فأسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين)[7] *

﴿ فصل ﴾ أجوبة الاسئلة على التفصيل كقوله تعالى (أما السفينة فكانت لمساكين[8] . وأما الجدار . وأما الغلام) *

﴿ فصل ﴾ وقد تذكر صورة القياس وليس بقياس دلالة كقوله تعالى (فورب السماء والارض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون)[9] فالحكم المقيس عليه أمر وجودى وهو النطق والذى وعدهم به هو الحياة بعد الموت والبعث بعد الدفن وهو أمر معدوم وليس بينه وبين النطق مناسبة ومجرد وجود حقيقة شىء لا يدل على وجود حقيقة أخرى فعند ذلك يعلم أنه ما أراد الا تحقيق الوعد بايجاد على وجه لا يشك فيه كوجود النطق كقول النبى صلى الله عليه وسلم « أنكم لترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته » ومعلوم انه ما أراد أن رؤية القمر مقتضية لرؤية

١ - البقرة ١٧٩
٢ - النساء ٢٠ - ٢١
٣ - التوبة ٥٤
٤ - العنكبوت ٢٩
٥ - الاعراف ٨٢
٦ - الأنفال ٣٢
٧ - الشعراء ١٨٧
٨ - الكهف ٧٩
الكهف ٨٢
الكهف ٨٠
٩ - الذاريات ٢٣

الله تعالى بل أراد أنه كائن كوجود هذا القمر ورؤيته ولو قيل فان فيه شبهية اقتضت القياس على النطق صح من جهة أن الكلام يغور ويعود فهو كالميت له غيبة بالدفن والبلى ثم حضور بالبعث فعلى هذا قياس الشبه صحيح *

* فصل * ومثال قياس الشبه قوله تعالى (يابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة)[١] وفيه دلالة على جواز اقامة اللازم للحكم أو السبب مقام نفس الحكم لان فتنته سبب الخروج من الجنة وهي سبب المنع من دخولها وذلك كله توسعة على المستدل *

* فصل * في الترجيح وهو دليل معتبر في الشرع قد تكرر وجوده في الكتاب العزيز في مواضع من ذلك قوله عز وجل (ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون)[٢] ومعناه التحريض على القتال والتسلية لما أصاب من مكروه بالنساوى في الالم والمزية لكم عليهم بما ترجون من ثواب الله تعالى فأنتم أولى بطلبهم وأحرى بالصبر على المكروه من جهتهم ومن الترجيح قوله تعالى (أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى الا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون)[٣] ومن الترجيح أيضا قوله تعالى (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون)[٤] في خمس مرات أمّن ومن الترجيح قوله تعالى (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين)[٥] ومن الترجيح قوله تعالى (ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار)[٦] وذلك لما تقرر أن الاثنين لا بد من وجود الفساد منهما لو قوع الاختلاف بينهما ومن الترجيح المذكور في الحجة العظمى (فأى الفريقين أحق بالامن)[٧]

* فصل * في المفهوم وهو ينقسم قسمين مفهوم الموافقة ومفهوم المخالفة فالموافقة متفق عليه لقوله تعالى (فلا تقل لهما أف)[٨] فمفهومه تحريم الضرب والسب لان التأفيف دون ذلك وكذلك قوله تعالى (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا مادمت عليه قائما)[٩] ولا يخفى أن من يؤدي القنطار يؤدى مادونه ومن يخون في دينار يخون فيما فوقه

١ ـ الاعراف ٢٧
٢ ـ النساء ١٠٤
٣ ـ يونس ٣٥
٤ ـ النمل ٥٩
٥ ـ التوبة ١٠٩
٦ ـ يوسف ٣٩
٧ ـ الأنعام ٨١
٨ ـ الاسراء ٢٣
٩ ـ آل عمران ٧٥

ويسمى ذلك لحوى الخطاب . ومفهوم المخالفة كقوله تعالى (مادمت عليه قائما) فمفهومه ان لم تكن عليه قائما لم يؤده اليك ومن الناس من يقول ليس هو بحجة[1] لقوله تعالى (فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون) ومعلوم أن من افترى علي الله الكذب فهو من الظالمين قبل الرسالة و بعدها وقبل نزول الكتاب و بعده *

﴿ فصل ﴾ وقد سمى الله سبحانه الشُبَه التى أوردها الكفار أمثالا فقال تعالى (وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي فى الاسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقي اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون الا رجلا مسحورا)[2] فكان الجواب (انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا)[3] وهذا جواب جدل يتضمن فساد ماتمسكوا به من الشبه المذكورة لانهم قالوا انه مسحور والمسحور مبلبل الفكر ذاهب الرأى فكيف يكون معه ملك أو يلقي اليه كنز ثم جاء الجواب الآخر (وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق)[4] فأماما اقترحوه من الآيات فى هذا الموضع وفى غيره فالجواب عنه مذكور فى عدة مواضع منها قوله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون)[5] وقال فى موضع آخر (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الامر ثم لاينظرون)[6] ومثله قوله تعالى (ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم ينكثون فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين)[7] والفرق بين الآيات الدالة على صدق الرسل عليهم السلام المقترحات من الامم وبين الآيات التي تبتكرها الانبياء أن المقترحات لم تبق لهم عذرا فى ترك الايمان بعد الاتيان بها اذ هى بمنزلة المشاهد الذى أجاز الخصم شهادته عليه فاذا رد وجحد فقد عاند وصد فاستحق تعجيل الانزال به بخلاف سائر الآيات فانها وان كانت أدلة الا أن للناظر فيها فسحة النظر ومهلة التأمل فلهذا لم يعجل عقابه وهذا المعنى دل عليه قوله تعالى (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا

١ - ال عمران ٩٤
٢ - الفرقان ٧ - ٨
٣ - الفرقان ٩
٤ - الفرقان ٢٠
٥ - الاسراء ٥٩
٦ - الأنعام ٨
٧ - الأعراف ١٣٤ -

ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى)[١] *

(فصل) فى ذم التقليد والمقلدين وقد عابهم الله عز وجل فى كتابه العزيز فى عدة مواضع منها قوله تعالى (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولوا كانوا آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون)[٢] ومن ذلك في المائدة (واذا قيل لهم تعالوا الى ماأنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعلمون شيئا ولا يهتدون)[٣] ومن ذلك فى حم الزخرف (بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون)[٤] ثم ذكر سبحانه أن هذه الشبهة تمسك بها جميع الامم قال سبحانه(وكذلك ماأرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون)[٥] فكان الجواب عن شبههم من وجهين أحدهما قوله تعالى (أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون)[٦] الوجه الثانى (قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم)[٧] وههنا نكتتان احداهما قوله (بأهدى) ولا هداية لابائهم وانما ذكر ذلك توطئة لاستماع حجته وتلطفا فى الدعاية الى هدايته النكتة الثانية أعرضوا عن الجواب الملزم لهم الى استماع ما هو أهدى الى قولهم (انا بما أرسلتم به كافرون)[٨] *

(فصل) فى جواز التجوز وفى الكتاب العزيز من ذلك كثير من ذلك قوله تعالى (ان الذين يكتمون ماأنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم الا النار)[٩] وقد علم أنهم فى الحالة الحاضرة لايأكلون النار والشراء والصبر على النار

(فصل) يجوز عطف الواجب على غير الواجب كقوله تعالى (كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده)[١٠] وكقوله (كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون)[١١] *

(فصل) والانكار بعد الاعتراف لايسمع دليله قوله تعالى (ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين) فعاقبهم على ضلالهم الاول بضلال هو الانكار بعد الاعتراف

(فصل) ومن لطائف الاجوبة الجدلية لما قال فرعون لموسى (ألم نربك فينا

١ - طه ١٣٤
٢ - البقرة ١٧٠
٣ - المائدة ١٠٤
٤ - الزخرف ٢٢
٥ - الزخرف ٢٣
٦ - البقرة ١٧٠
٧ - الزخرف ٢٤
٨ - الزخرف ٢٤
٩ - البقرة ١٧٤
١٠ - الأنعام ١٤١
١١ - البقرة ١٧٢

وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين)[١] كان جواب موسى عليه السلام (وتلك نعمة تمنها عليّ أن عبدت بني اسرائيل)[٢] فالذي اعده فرعون نعمة جعلها موسى نقمه هو جواب على معنى الكلام لا على لفظه *

﴿ فصل ﴾ ومن أنواع التجوز قوله تعالى (وعليها وعلي الفلك تحملون)[٣] والانعام ثلاثة أنواع إبل وبقر وغنم والمركوب منها الابل خاصة *

﴿ فصل ﴾ في المباكتة بالتشنيع منها قوله تعالى (ياأهل الكتاب هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل وان أكثركم فاسقون قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل)[٤] فاذا وقع التشنيع على مذهب بسبب حكم خالف فيه الفقهاء أو قول فيه نفرة مثل المخلوقة من ماء الزنا وجواز المخصصة علي مذهب الامام أحمد أو ما كان للخصم أن يشنع على مذهبه بما هو من هذا القبيل وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لليهود يا اخوان القردة

﴿ فصل ﴾ ومما يجرى مجرى المقابلة في الاذى والجناس فى الجزاء (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا)[٥] واللعن هو الطرد والبعد ولما كانت يد الله مبسوطة بالقدرة على الايجاد والاعدام والاشقاء والاسعاد كان القول بغلول يده سبحانه أبعد المحالات فى نظر العقل فاستحقوا الابعاد *

﴿ فصل ﴾ التخصيص بالذكر لا يدل على الاختصاص فى الحكم كقوله سبحانه (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم)[٦] وقال سبحانه بعدها لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة)[٧] *

﴿ فصل ﴾ يتضمن ثلاث شبه والجواب عنها الاول أنه تارة تحدى بجملة القرآن وتارة بعشر سور وتارة بسورة والجواب انه ذكر الاحاد والعقود ونفاها ليعلم العجز عن كله وبعضه فان قيل القديم لا يوصف بكل ولا بعض قيل هذا كقولنا عالم مريد قادر هذه بعض صفات القديم ولا يريد ببعضه التجزى وكما تقول القرآن مائة وأربع عشرة سورة والسورة كذا وكذا آية *

الشبهة الثانية ما الحكمة ان هذا الكتاب العزيز لم ينزل جملة واحدة وسائر

١ ـ الشعراء ١٨
٢ ـ الشعراء ٢٢
٣ ـ المؤمنون ٢٢
٤ ـ المائدة ٥٩ ـ ٦٠
٥ ـ المائدة ٦٤
٦ ـ المائدة ١٧
٧ ـ المائدة ٧٣

الكتب نزلت جملة جملة قال تعالى (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا)[١] *

الجواب الثانى قال أهل المعاني القوم كانوا قبلنا عمالا فكتبت كتب عهودهم وصلت اليهم جملة وهذه الامة احباب ورسائل الاحباب لا تنقطع *

الشبهة الثالثة شبهة القدرية قالوا كيف الجمع بين ارادة خلق الفعل والعقاب عليه والجواب ثبت بالاجماع انه حكيم عادل والحكيم العادل غير متهم كيف وقد ذكر الظلم فى الكتاب العزيز فى مائتى موضع وثمانين موضعا وذمه وذم الظالمين ونفى الظلم عن نفسه فى ثمانية وعشرين موضعا منها ويستحيل أن يحرم شيئا على نفسه ويقبحه من غيره ثم يفعله وهو أعدل العادلين وأجل المنعمين والخوض فى هذا منهى عنه لانه بحر مغرق ولكشفه ميعاد يوم تبلى السرائر *

﴿ فصل ﴾ والدليل على أن توبة الزنديق لا تقبل قوله عز وجل (ان الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون)[٢] والمعنى فيه أن قليل الكفر وكثيره سواء فى استحقاق القتل واستيجاب النار والتوبة مقبولة فى قليله وكثيره فلا معنى لزيادة الكفر الا ابطان الكفر واظهار الايمان والله تعالى أعلم بكتابه وأسرار خطابه *

وجد بآخر النسخة الخطية ما نصه .

علقه من خط نسخة مسمه أقضى القضاة شمس الدين عبد الله محمد بن احمد بن ابراهيم القرشي لشيخه العلامة مسمه صلاح الدين المرحوم عبدالله

١ ـ الفرقان ٣٢ ـ ٣٣
٢ ـ آل عمران ٩٠

تمت الرسالة الثالثة ويليها الرسالة الرابعة

الرسالة الرابعة

﴿ كفاية التعبد وتحفة التزهد ﴾

«للشيخ الامام الحافظ عبد العظيم المنذري رحمه الله تعالى»

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الطاهرين *

قال الشيخ الفقيه العالم المحدث بقية الحفاظ زكى الدين أبو محمد عبد العظيم ابن عبد القوى المنذرى رضى الله عنه * الحمد لله الموفق لصالح الاعمال المحقق لراجيه نهاية الآمال * أحمده على نعمه فى الحال والمآل * وأشهد أن لا آله الا هو الكبير المتعال * وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المنقذ به من الضلال صلى الله عليه وآله وأصحابه وأزواجه الجدراء بالاحسان والافضال دائمة الاتصال *

(وبعد) فان أخى أبا أحمد عبد الكريم صرف الله عنه كل شيطان رجيم سألنى أن أجمع له كتابا في ثواب الاعمال وفضائلها محذوف الاسانيد ليسهل عليه حفظه ويقرب تناوله فأجبته الى ذلك لماله من الحق اللازم وليكون باعثا له ان شاء الله تعالى على ملازمة ما نورده فيه فاستخرت الله تعالى وجمعت له هذا الكتاب وسميته « كفايه التعبد وتحفة التزهد » وجعلته أربعة أبواب (الباب الاول) فى ذكر الصلاة (الباب الثاني) فى الصيام (الباب الثالث) فى الصدقة (الباب الرابع) فى الدعاء والذكر والله تعالى المسئول فى أن ينفعنا به وسائر المسلمين ويجعله خالصا لوجهه مقرباً من رحمته بفضله ومنه *

الباب الاول فى الصلاة

روى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول« انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى »الحديث متفق عليه *

(ماجاءفى فضل الصلاة) * روى أبو هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة كفارات لما بينهن مالم يغش الكبائر » وفى لفظ « رمضان الى رمضان » اخرجه مسلم * روى معدان بن أبي طلحة قال لقيت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت «أخبرنى بعمل أعمله يدخلنى الله به الجنة او قال قلت باحب الاعمال الى الله تعالى فسكت ثم سألته فسكت ثم سألته الثالثة فقال سألت عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليك بكثرة السجود لله تعالى فانك لاتسجد لله عز وجل سجدة الارفعك الله عز وجل بها درجة وحط عنك بهاخطيئة» قال معدان ثم لقيت ابا الدرداء فسألته فقال لى مثل ما قال ثوبان أخرجه مسلم * وروى ربيعة بن كعب الاسلمى قال« كنت ابيت مع النبي صلى الله عليه وسلم فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لى سل فقلت أسألك مرافقتك فى الجنة قال أو غير ذلك قلت هو ذاك قال فاعنى على نفسك بكثرة السجود» انفرد به مسلم وليس لربيعة بن كعب فى الصحيح غيره. وروى ابو هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تطهر فى بيته ومشى الى بيت من بيوت الله تعالى ليقضى فريضة من فرائض الله تعالى كانت خطواته احدهما تحط خطيئة والاخرى ترفع درجة » أخرجه مسلم * وروى أبو هريرة رضى الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول« ارأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء قالوا لايبقى من درنه قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » متفق عليه. والدرن بفتح الدال والراء الوسخ * وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم قال « من غدا الى المسجد او راح أعد الله له فى الجنة نزلا كلما غدا أو راح » متفق عليه . والنزل بضم النون و الزاى الطعام والنزل أيضا الريع والفضل * وروى أبو مالك الاشعرى رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال« الطهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ مابين السموات والارض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر

ضياء والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها او موبقها» أخرجه مسلم واسم أبي مالك عمرو ويقال عبيد ويقال كعب *

(ماجاء فى فضل الصلاة لاول وقتها) روي عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال « سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي العمل أحب الى الله عز وجل قال الصلاة على وقتها قلت ثم أي قال بر الوالدين قلت ثم أي قال الجهاد فى سبيل الله قال حدثني بهن ولو استزدته لزادنى » متفق عليه *

(ماجاء فى فضل الجماعة) روى أبو هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءا » متفق عليه * وروى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « صلاة الجماعة افضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة » متفق عليه . قال أبو عيسى الترمذى رحمه الله تعالى وعامة من روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انما قالوا خمسا وعشرين الا ابن عمر فانه قال بسبع وعشرين قلت واختلف العلماء فى تأويله فقيل الدرجة أصغر من الجزء . والفذ المنفرد المصلى وحده *

(ماجاء فى ركعتى الفجر من الفضل) روى سعيد بن هشام عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » انفرد به مسلم وروت عائشة رضى الله عنها قالت « مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء من النوافل اسرع منه الى الركعتين قبل الفجر» متفق عليه *

(ماجاء فى فضل المحافظة على الفجر والعصر) روي ابو بكر بن عمارة بن رؤيبة عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لن يلج النار احد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها يعنى الفجر والعصر » الحديث انفرد به مسلم * وروى أبو بكر بن أبى موسى الاشعرى عن أبيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من صلى البردين دخل الجنة » متفق عليه والبردان الفجر والعصر وقال على بن المديني ابو بكر راوى هذا الحديث هو ابن عمارة رؤيبة والصحيح انه ابن

أبي موسي وقد تكلمنا عليه في غير هذا الموضع *

(ماجاء فى صلاة الضحى) روي أبو الدرداء رضى الله عنه قال « أوصاني حبيبي بثلاث ان لا أدعهن ماعشت بصيام ثلاثة أيام من كل شهر وصلاة الضحى وبان لا أنام حتى أوتر » انفرد به مسلم * وروى ابو هريرة رضى الله عنه قال « أوصانى خليلى بثلاث بصيام ثلاثة ايام من كل شهر وركعتى الضحى وان أوتر قبل أن أرقد » متفق عليه * وروي ابو ذر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تحميدة صدقة وكل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن المنكر صدقة ويجزىء من ذلك ركعتان يركعها من الضحى » انفرد به مسلم واتفقا على نحوه من حديث أبي هريرة وقوله كل سلامى اى على كل عظم ومفصل .واصله عظام الكف والا كارع *

(ماجاء فى عدد صلاة الضحى) قد تقدم انها ركعتان وروت معاذة عن عائشة قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى الضحى اربعا ويزيد ماشاء الله » نفرد به مسلم * وروى عبد الرحمن بن ابى ليلى قال ماأخبرنى احد انه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى الضحي الا أم هاني فانها حدثت ان النبي صلى الله عليه وسلم دخل بيتها يوم فتح مكة فصلى ثمانى ركعات مارأيته صلى صلاة قط أخف منها غير أنه كان يتم الركوع والسجود » متفق عليه *

(ماجاء فى الصلاة ارتفاع الضحى واستحرار الشمس) روى القاسم بن عوف الشيبانى ان زيد بن أرقم رأى قوما يصلون من الضحى فقال اما لقد علموا ان الصلاة فى غير هذه الساعة أفضل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « صلاة الاوابين حين ترمض الفصال » انفرد به مسلم والاواب قيل هو الكثير الرجوع الى الله وقيل المطيع وقيل المسبح وقيل الراحم وقيل الفقيه .وقوله ترمض بفتح التاء والميم وضاد معجمة هو احتراق اظلافها بالرمضاء عند ارتفاع الضحى واستحرار الشمس . والرمضاء ممدود الرمل اذا استحر بالشمس . والفصال جمع فصيل وهو صغار الابل *

(ماجاء في الصلاة قبل الظهر وبعدها) روت ام حبيبة رضى الله عنها قالت سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر واربع بعدها حرمه الله على النار » اخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وقال الترمذى حسن صحيح *

(ماجاء فيمن صلى فى يوم ثنتى عشرة ركعة) روت أم حبيبة انها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مامن عبد مسلم يصلى لله تعالى كل يوم ثنتى عشرة ركعة تطوعا من غير الفريضة الا بنى الله له بيتا فى الجنة » انفرد به مسلم *

(جامع ماجاء فى صلاة الليل) * روى أبو هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضه صلاة الليل » انفرد به مسلم * وروى أبو هريرة يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم قال « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ثلاث عقد اذا نام بكل عقدة يضرب عليك ليل طويل فاذا استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة واذا توضأ انحلت عنه عقدتان فاذا صلى انحلت العقد فاصبح نشيطا طيب النفس والا أصبح خبيث النفس كسلان » متفق عليه. قوله يعقد الشيطان اختلفت العلماء فى تأويله فقيل هو مثل واستعاذة من عقد بني آدم وقيل بل هو على ظاهره وأن الشيطان يفعل من ذلك نحو مايفعله السـواحر من عقدها ونفثها . وقوله قافية احدكم أى قفاه ومنه قافية الشعر وهو آخر البيت * وروى مسروق قال قلت لعائشة أى الاعمال أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت الدائم قلت فأى الليل كان يقوم قالت اذا سمع الصارخ : متفق عليه والصارخ الديك قاله أبو عبيد الهروى * وروى عبد الله بن عمرو قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « ياعبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل » متفق عليه * وروت عائشة رضى الله عنها قالت ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد فى شهر رمضان ولا فى غيره على احدي عشرة ركعة يصلى أربعا فلا تسل عن حسنهن وطولهن ثم يصلى أربعا فلا تسل عن حسنهن وطولهن ثم يصلى ثلاثا فقالت عائشة فقلت يارسول الله أتنام قبل أن توتر قال ياعائشة ان عينى تنامان ولا ينـام قلبي » متفق عليه * وروى

أبو القاسم قال سمعت عائشة رضى الله عنها تقول « كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل عشر ركعات ويوتر بسجدة ويركع ركعتى الفجر فتلك ثلاث عشرة ركعة » متفق عليه *

(دعاء الاستخارة) * روي جابر رضى الله عنه قال « كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة فى الامور كلها كالسورة من القرآن اذا هم أحدكم بالامر فليركع ركعتين ثم يقول اللهم انى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فانك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم ان كنت تعلم ان هذا الامر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى أو قال فى عاجل أمرى وآجله فاقدره لى وان كنت تعلم أن هذا الامر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى أو قال فى عاجل أمرى وآجله فاصرفه عني واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان ثم رضني به ويسمى حاجته » انفرد به البخارى *

﴿ الباب الثانى فى الصيام ﴾

روى أبو هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل كل عمل ابن آدم له الا الصيام فانه لى وأنا أجزى به والصيام جنة فاذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فان سابه أحد أو قاتله فليقل انى صائم والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى يوم القيامة من ريح المسك وللصائم فرحتان يفرحهما اذا أفطر فرح بفطره واذا لقى ربه فرح بصومه » متفق عليه. وقوله فلا يرفث بضم الفاء وكسرها أي لا يأتى برفث الكلام وفحشه * قال الازهرى هى كلمة جامعة لكل مايريده الرجل من المرأة ويكون الرفث الجماع ويكون ذلك الجماع والحديث به وقيل هو مذاكرة ذلك مع النساء ولا يصخب الصخب الصياح واختلاط الاصوات ويقال بالسين والصاد. وخلوف فم الصائم بضم الخاء هو مايخلف بعد الطعام فى الفم من ريح كريهة * روى سهيل بن سعد رضى الله عنه قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم « ان فى الجنة بابا يقال له الريان لايدخل منه الا الصائمون يوم القيامة لايدخل معهم أحد غيرهم يقال

أين الصائمون فيدخلون منه فاذا أدخل آخرهم أغلق فلم يدخل منه أحد » متفق عليه * قوله باب الريان واختصاص الصائمين به قيل هو مشتق من الرى لماينال الصائم من العطش فسمى هذا الباب بما أعد فيه من النعيم المجازى به على الصوم* وروى أبو سعيد الخدري رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن عبد يصوم يوما فى سبيل الله تعالى الا باعدالله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفا » متفق عليه والخريف السنة *

(ماجاء فى صوم المحرم) روى أبو هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم » انفرد به مسلم*

(ماجاء فى صيام عاشوراء) سئل عبدالله بن عباس رضى الله عنهما عن صيام يوم عاشوراء فقال ماعلمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صام يوما يطلب فضله على الايام الا هذا اليوم يعنى يوم عاشوراء ولا شهراً الا هذا الشهر يعنى رمضان . متفق عليه * روى أبو قتادة الانصاري رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن صومه فذكر الحديث الى قوله وسئل عن صوم يوم عاشوراء فقال يكفر السنة الماضية انفرد به مسلم *

(ماجاء فى صيام شعبان) روت عائشة رضى الله عنها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لايفطر ويفطر حتى نقول لايصوم وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استكمل صيام شهر قط الا رمضان ومارأيته فى شهر أكثر منه صياما فى شعبان » متفق عليه * وفى مسلم قالت عائشة « ولم أره صائما من شهر قط أكثر من صيامه فى شعبان كان يصوم شعبان كله كان يصوم شعبان الا قليلا » * وروى عمران بن حصين رضى الله عنه « ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل هل صمت من سرر هذا الشهر شيئا يعنى شعبان قال لا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا أفطرت من رمضان فصم يومين مكانه » متفق عليه . سرر الشهر سراره قال الفراء الفتح أجود وسرره ثلاث لغات قال ابوعبيد سرار الشهر آخره وقال غيره هو وسطه وقيل آخره *

(ماجاء فى صيام رمضان) * روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال « اذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين » متفق عليه وقوله صفدت الشياطين أى غلت وأوثقت باغلال الحديد * وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه » متفق عليه *

(ماجاء فى صيام ستة أيام من شوال) روى أبو أيوب الانصارى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من صام رمضان ثم اتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر » انفرد به مسلم *

(ماجاء فى العمل فى عشر ذي الحجة) روى ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن أيام العمل الصالح فيهن احب الى الله تعالى من هذه الايام العشر فقالوا يارسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله تعالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الجهاد فى سبيل الله تعالى الا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء » أخرجه البخاري *

(ماجاء فى صيام يوم عرفة وثلاثة ايام من كل شهر ويوم الاثنين) روى ابو قتادة رضى الله عنه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم سئل عن صومه قال فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر رضى الله عنه رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا وببيعتنا بيعة قال فسئل عن صيام الدهر قال لاصام ولا افطر وما صام وما أفطر قال فسئل عن صيام يومين وافطار يوم قال ومن يطيق ذلك قال وسئل عن صوم يوم وافطار يومين قال ليت الله عزوجل قوانا لذلك قال وسئل عن صوم يوم وافطار يوم قال ذاك صوم أخي داود قال وسئل عن صيام يوم الاثنين فقال ذاك يوم ولدت فيه ويوم بعثت وانزل علي فيه قال فقال فصوم ثلاثة أيام من كل شهر ورمضان الى رمضان صوم الدهر قال فسئل عن صوم عاشوراء فقال يكفر السنة الماضية » انفرد به مسلم. وروت معاذة رضى الله عنها انها سألت عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم أ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من كل شهر ثلاثة ايام قالت نعم فقلت لها من أى شهر كان يصوم قالت لم يكن يبالى من أى أيام الشهر

يصوم » انفرد به مسلم وقد تقدم فى صلاة الضحى حديث أبى هريرة اوصانى خليلي صلى الله عليه وسلم بثلاث صيام ثلاثة أيام من كل شهر » الحديث وهو متفق عليه وحديث ابى الدرداء فى ذلك وهو من أفراد مسلم *

﴿ الباب الثالث فى الصدقة ﴾

روي ابو هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان فيقول احدهما اللهم اعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفا » متفق عليه وروى ابو هريرة رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يتصدق احدكم بتمرة من كسب طيب الا أخذها الله تعالى بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم فلوه أو قلوصه حتي تكون مثل الجبل أو أعظم » متفق عليه * الفلو المهر والقلاص فتيان الابل وأحدها قلوص * وروى حارثة بن وهب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « تصدقوا فيوشك الرجل يمشى بصدقته فيقول الذى أعطيها لو جئت بها بالامس قبلتها وأما الآن فلا حاجة لى بها فلا يجد من يقبلها » متفق عليه * وروى عدى ابن حاتم رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « انه ذكر النار فتعوذ منها وأشاح بوجهه ثلاث مرات ثم قال اتقوا النار ولو بشق تمرة فان لم تجدوا فبكلمة طيبة » متفق عليه قوله أشاح أى جد وانكمش على الوصية باتقاء النار وقيل حذر من ذلك والمشيح الحذر وقيل الهارب وقيل أشاح أقبل وقيل قبض وجهه قال الحربى أحسن ماقيل فيه التنحية وهو موافق للاعراض * وروى أبو هريرة رضى الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما يسرنى ان لى أحداً ذهبا تأتى على ثالثة وعندي منه دينار الا دينارا أرصده لدين علي » متفق عليه * وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله الامام العادل وشاب نشأ بعبادة الله عز وجل ورجل قلبه معلق فى المساجد ورجلان تحابا فى الله تعالى اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال انى أخاف الله تعالى ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لا تعلم شماله ماتنفق يمينه ورجل ذكر الله تعالى خاليا ففاضت عيناه » متفق عليه * وروي

أبو هريرة رضى الله عنه قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فقال «يارسول الله أى الصدقة أعظم قال أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنا ولا تمهل حتى اذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا الا وقد كان لفلان» متفق عليه * وروى أبو امامة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا ابن آدم انك ان تبذل الفضل خير لك وان تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى» أخرجه مسلم واليد العليا هي المنفقة كذا جاء مفسرا فى الحديث * وقال الخطابي روى فى بعض الحديث انها المتعففة والسفلى السائلة * وروى عن الحسن انها الممسكة المانعة. وذهبت المتصوفة الى أن اليد العليا هى الآخذة لانها نائبة عن الله تعالى وماجاء فى الحديث الصحيح أولى * وروى أبو موسي الاشعري رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «على كل مسلم صدقة فقالوا يارسول الله فمن لم يجد قال يعين ذا الحاجة الملهوف قالوا فان لم يجد قال فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فانها له صدقة» متفق عليه * وروى أبو هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من أنفق زوجين فى سبيل الله تعالى نودي فى الجنة ياعبد الله هذا خير فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه يارسول الله ماعلى أحد يدعى من تلك الابواب كلها من ضرورة فهل يدعى أحد من تلك الابواب كلها قال رسول الله صلي الله عليه وسلم نعم وأرجو أن تكون منهم» * متفق عليه. قوله من أنفق زوجين قال الحسن البصري يعنى اثنين من كل شيء درهمين دينارين ثوبين وقال غيره يريد شيئين درهما ودينارا درهما وثوبا خفا ولجاما ونحو هذا * قال الباجي يحتمل أن يريد بذلك العمل من صلاتين أوصيام يومين (١) * وروى أنس بن مالك رضى الله عنه أن أبا طلحة كان اكثر الانصار

(١) المتبادر للذهن المعلوم من أحاديث أخر أن المراد بالزوجين هو مقدار ما يملأ الراحتين من قمح او شعير أوما اشبههما (قاله المصحح)

بالمدينة مالا وكان أحب أموال اليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس فلما نزلت هذه الآية (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) قام أبو طلحة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله عز وجل يقول فى كتابه لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وان أحب أموالى الي بيرحاء وانها صدقة لله عز وجل أرجو برها وذخرها عند الله تعالى فضعها يارسول الله حيث شئت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح قد سمعت ماقلت فيها وانى أرى أن تجعلها فى الاقربين فقسمها أبو طلحة فى أقاربه و بنى عمه » متفق عليه. قوله بيرحاء هو موضع بقرب المسجد وقيل حاء اسم رجل اليه نسب البئر واختلف فى تقييده فروى بفتح الراء فى كل حال وروى بضم الراء فى الرفع وفتحها فى النصب وكسرها فى الجر * وقوله بخ يقال بالتسكين وبالكسر مع التنوين قال الخليل يقال ذلك للشيء اذا رضيته ويقال ليعظم الامر وقوله مال رابح يروي بالباء الموحدة من الربح بالاجر وجزيل الثواب أي ذو ربح ويروي بالياء المثناة من الرواح عليه بالاجر على الدوام مابقيت أصوله وثماره * وقال الهروى رابح أى ذي ربح ومن رواه رائح أراد انه قريب الفائدة *

﴿ الباب الرابع فى الدعاء والذكر ﴾

روى النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي صلي الله عليه وسلم قال « الدعاء هو العبادة ثم قرأ (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه *

(مايقال عند القيام من النوم) * روى ابن عباس رضى الله عنهما قال « كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا قام من الليل يتهجد قال اللهم لك الحمد أنت نور السموات والارض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق ولقاؤك الحق والجنة حق والنار حق والساعة حق ومحمد حق اللهم لك أسلمت وعليك توكلت وبك آمنت واليك أنبت وبك خاصمت واليك حاكمت فاغفر لى ماقدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله الا

أنت ولا إله غيرك » متفق عليه *قوله أنت نور السموات والارض معناه ذو نور راي خالقه قيل نور الدنيا فى الشمس والقمر وقيل منور قلوب عباده المؤمنين بالهداية والمعرفة وقوله قيوم السموات والارض أى القائم بامرهما *روى عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «من تعار من الليل فقال لا إله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير الحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله ثم قال اللهم اغفرلى ودعا استجيب له فان توضأ وصلى قبلت صلاته» اخرجه البخارى وقوله تعار بتشديد الراء قيل استيقظ وقيل تكلم وتمطى وأنّ وقيل انتبه وقال بعضهم تمطى بصوت قال البعض وهو ابين وأشبه بالمعنى *

(مايقال عند دخول الخلاء) روى أنس بن مالك رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا دخل الخلاء قال «اللهم انى اعوذ بك من الخبث والخبائث» متفق عليه . الخبث بضم الخاء جمع خبيث والخبائث جمع خبيثة يريد ذكور الشياطين واناثهم وعامة المحدثين يسكنون الباء وغلطهم الخطابى فيه وصوب ذلك غيره

(مايقال بعد الفراغ من الوضوء) روى عقبة بن عامر رضى الله عنه قال كانت علينا رعاية الابل فجاءت نوبتى فروحتها بعشى فادركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما يحدث الناس فادركت من قوله «مامن مسلم يتوضأ فيحسن الوضوء ثم يقوم فيصلى ركعتين مقبلا عليهما بقلبه ووجهه الا وجبت له الجنة قال فقلت ما أجود هذه فاذا قائل بين يديه يقول الذي قبلها اجود فنظرت فاذا عمر قال انى قد رأيتك حين جئت آنفا قال مامنكم من أحد يتوضأ فيبلغ او فيسبغ الوضوء ثم يقول اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله الا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء» انفرد به مسلم *

(مايقول عند الخروج الى الصلاة) روى على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم عن أبيه انه رقد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستيقظ رسول الله وتوضأ وهو يقول ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولى الالباب فقرأ هؤلاء الايات حتى ختم السورة ثم قام فصلى ركعتين فاطال فيهما القيام والركوع والسجود ثم انصرف فنام حتى نفخ ثم فعل ذلك ثلاث مرات بست ركعات كل

ذلك يستاك ويتوضا ويقرأ هؤلاء الآيات ثم أوتر بثلاث فاذن المؤذن فخرج الى الصلاة وهو يقول اللهم اجعل فى قلبي نورا وفى لسانى نورا واجعل فى سمعى نورا واجعل فى بصري نورا واجعل من خلفى نورا ومن امامى نورا واجعل من فوقى نورا ومن تحتى نورا اللهم اعطنى نورا » انفرد به مسلم. قوله واجعل في قلبي نورا وفى بصرى نورا وفى سمعى نورا الحديث النور الهداية والبيان وضياء الحق وقيل يحتمل ان يريد الرزق الحلال وقوة هذا الاعطاء به الطاعة * روى الشعبى عن أم سلمة رضى الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا خرج من بيته قال « بسم الله توكلت على الله اللهم انا نعوذ بك من أن نزل أو نضل او نظلم او نظلم او نجهل أو يجهل علينا » اخرجه أبو داود والترمذي والنسائى وابن ماجه وقال الترمذى حسن صحيح *

(مايقال عند الصباح) روى شداد بن أوس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « سيد الاستغفار اللهم انت ربى لا إله الا انت خلقتنى وأنا عبدك وانا على عهدك ووعدك ما استطعت اعوذ بك من شر ماصنعت ابوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لى فانه لايغفر الذنوب الا أنت اذا قالها حين يمسى فمات دخل الجنة أو كان من أهل الجنة واذا قالها حين يصبح فمات يومه مثله » انفرد به البخارى وغيره وقوله ابوء لك بنعمتك قال الهروى اقربها والزمها نفسي وأصل البوء اللزوم وأبوء لك بذنبي اي أعترف طوعا اي رجعت الي الاقرار بعد الانكار * وروى ابان بن عثمان قال سمعت عثمان بن عفان رضى الله عنهما يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن عبد يقول فى صباح كل يوم ومساء كل ليلة بسم الله الذي لايضر مع اسمه شيء فى الارض ولا فى السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات فلم يضره شيء » وكان ابان قد اصابه طرف فالج فجعل الرجل ينظر اليه فقال له ابان ماتنظر اما ان الحديث كما حدثتك ولكنى لم أقله يومئذ ليمضى الله على قدره »(١) اخرجه ابو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وقال الترمذى حسن

---

(١) قوله طرف فالج أى بعضه بفتح اللام علة معروفة وقوله فجعل الرجل ينظر اليه اى تعجبا وانكارا بانك كنت تقول هذه الكلمة في كل مساء وصباح فكيف اصابك الفالج ان كان الحديث صحيحا فقال له ابان رفعا لتعجبه بطريق الاستفهام الانكاري ماتنظر الخ.

صحيح * وروى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بافضل مما جاء به الا أحد قال مثل ما قال او زاد عليه » انفرد به مسلم *

(مايقال عند سماع الاذان) روى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من قال حين يسمع المؤذن أشهد أن لا أله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله رضيت بالله ربا وبمحمد رسولا وبالاسلام دينا غفر الله ذنبه » انفرد به مسلم *

(مايقال بعد التسليم من الصلاة) روى ثوبان قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام » * قال الوليد قلت للاوزاعي كيف الاستغفار قال تقول استغفر الله استغفر الله انفرد به مسلم * وروى المغيرة بن شعبة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اذا قضى الصلاة لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » متفق عليه * وقوله لا ينفع ذا الجد منك الجد بفتح الجيم اي لا ينفع ذا الغنى منك غناه انما ينفعه العمل بطاعتك وقيل الجد والبخت الحظ ورواه بعضهم بكسر الجيم وحمله على الحرص في الامور وانكر ذلك ابو عبيد وروى عطاء بن زيد الليثي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد الله ثلاثا وثلاثين وكبر الله ثلاثا وثلاثين فتلك تسعة وتسعون وقال تمام المائة لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر » انفرد به مسلم واتفقا على معناه من رواية ابي صالح عن أبي هريرة وروى عبد الله بن الزبير انه كان يقول في دبر كل صلاة حين يسلم لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة الا بالله ولا نعبد الا إياه له النعمة والفضل وله الثناء الحسن لا اله الا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون قال وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهلل بهن في دبر كل صلاة

انفرد به مسلم *

(ما يسبح به فى الايام وفضل التسبيح) روى ابو هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير فى كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه حتى يمسي ولم يأت أحد يوم القيامة افضل مما جاء به الا احد عمل اكثر من ذلك ومن قال سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر » متفق عليه قوله عدل عشر رقاب العدل بالفتح المثل وما عادل الشيء من غير جنسه وبالكسر ما عادله من جنسه وكان نظيره وقال البصريون العدل والعدل لغتان وهما المثل * وروى موسى الجهني عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم الف حسنة فسأله سائل من جلسائه كيف يكسب أحدنا الف حسنة قال يسبح مائة تسبيحة فيكتب له الف حسنة أو يحط عنه الف خطيئة » انفرد به مسلم قال الحميدي هكذا هو في كتاب مسلم في جميع الروايات عن موسى أو يحط قال البرقاني ورواه شعبة وأبو عوانة ويحيى ابن سعيد القطان فقالوا ويحط بغير الف * وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » متفق عليه * وروى أبو صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عايه وسلم « لان أقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر أحب الى مما طلعت عليه الشمس » انفرد به مسلم وروى أبو ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبرك باحب الكلام الى الله تعالى قلت يا رسول الله أخبرني بأحب الكلام الى الله تعالي فقال ان أحب الكلام الى الله تعالى سبحان الله وبحمده » انفرد به مسلم * وروى أبو موسى الاشعرى رضى الله عنه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم « مثل الذى يذكر الله والذي لا يذكر ه مثل الحي والميت» متفق عليه *

(مايقال عند القيام من المجلس) * روي أبو هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لااله الا أنت أستغفرك وأتوب اليك الا غفر له ما كان في مجلسه ذلك » أخرجه الترمذى والنسائى قال الترمذى حسن صحيح قلت وقال البخارى له علة وقد جمعت طرقه في جزء مفرد واللغط اختلاف الاصوات فى الكلام حتي لا يفهم *

(مايقال عند المساء) * روي عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال « كان نبي الله صلى الله عليه وسلم اذا أمسينا قال أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله لااله الا الله وحده لاشريك له أراه قال فيهن له الملك وله الحمد وهو علي كل شيء قدير رب أسألك خير مافى هذه الليلة وخير ما بعدها وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر مابعدها رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر أعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر واذا أصبح قال ذلك أيضا أصبحنا وأصبح الملك لله » أخرجه مسلم وقوله وسوء الكبر روى بسكون الباء بمعنى التعظم على الناس وبفتحها بمعنى كبر السن والخرف وذكر الخطابى الوجهين ورجح الفتح * روى أبو هريرة رضى الله عنه قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي صلى الله عليه وسلم يارسول الله ما لقيت من عقرب لدغتنى البارحة قال « أما انك لو قلت حين أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق لم يضرك » انفرد به مسلم وقوله بكلمات الله قال الهروي هى القرآن والتامات قيل هى الكاملة وقيل هى النافعة الكافية الشافية مما يتعوذ منه *

(مايقال عند النوم وأخذ المضجع) روى أبو ذر الغفارى رضى الله عنه قال « كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا أخذ مضجعه من الليل قال باسمك اللهم أموت وأحيا واذا استيقظ قال الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور » انفرد به البخارى * وروى البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمر رجلا إذا أخذ مضجعه من الليل أن يقول اللهم أسلمت نفسى اليك ووجهت وجهى

اليك والجأت ظهري اليك وفوضت أمري اليك رغبة ورهبة اليك لا ملجأ ولا منجى الااليك آمنت بكتابك الذى أنزلت و برسولك الذى أرسلت فان مات مات علي الفطرة » وروى بنبيك متفق عليه * وروى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما «أنه أمر رجلااذا أخذ مضجعه أن يقول اللهم خلقت نفسى فانت تتوفاها لك مماتها ومحياها اذا حييتها فاحفظها وان أمتها فاغفر لها اللهم أسألك العافية فقال له رجل أسمعت هذا من أحدقال من عمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم» انفرد به مسلم * وروي أنس بن مالك رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا أوى الى فراشه قال الحمدلله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا فكم ممن لا كافى له ولا مأوى» انفرد به مسلم *

﴿ فصل فى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ﴾

روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرا » انفرد به مسلم والصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة والنبى عليهم السلام استغفار ودعاء قاله الهروي * وروى عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال « كنت أصلى والنبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر معه فلما جلست بدأت بالثناء على الله تعالى ثم الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ثم دعوت لنفسي فقال النبى صلى الله عليه وسلم سل تعطه سل تعطه » أخرجه الترمذى وابن ماجه وقال الترمذى حسن صحيح * وقال عبد الرحمن ابن أبي ليلى لقيت كعب بن عجرة فقال الا أهديك هدية خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا قد عرفنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك فقال «قولوا اللهم صلى على محمد و على آل محمد كما صليت على ابراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم إنك حميد مجيد» متفق عليه * روي أبو مسعود الانصارى رضى الله عنه أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى مجلس سعد بن عبادة فقال له البشير بن سعد « أمرنا الله عز وجل أن نصلي عليك يارسول الله فكيف نصلى عليك قال فسكت

رسول الله صلى الله عليه وسلم حتي تمنينا أنه لم يساله ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وبارك على محمد وعلي آل محمد كما باركت على ابراهيم إنك حميد مجيد والسلام كماقد علمتم » انفرد به مسلم.وأبومسعودا سمه عقبة بن عمر وقوله كما قد علمتم يروى بفتح العين وتخفيف اللام وبضم العين وتشديد اللام ويعني بذلك في التحيات في قوله السلام عليك أيها النبي ورحمة الله الي آخره وقيل في قوله تعالى وسلموا تسليما * وروى أبو حميد الساعدى رضى الله عنه« أنهم قالوا يا رسول الله كيف نصلى عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على آل ابراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على ابراهيم إنك حميد مجيد» متفق عليه وأبو حميد الساعدى اسمه المنذر وقيل عبدالرحمن بن سعد بن المنذر وقيل غير ذلك * روى أبو سعيدالخدرى رضى الله عنه قال« قلنا يارسول الله هذا السلام عليك فكيف نصلى قال قولوا اللهم صل على محمدعبدك ورسولك كما صليت على ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وآل ابراهيم» انفرد به البخارى *

﴿ تمت بحمد الله تعالي وحسن توفيقه ويليها الرسالة الخامسة انشاء الله تعالى ﴾

الرسالة الخامسة

ارشاد السائل الى دلائل المسائل

للعلامة خاتمة الحفاظ الحجة عز الانام القاضي البدر محمد بن على الشوكانى رحمه الله صاحب نيل الاوطار

المتوفي سنة ١٢٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، وبه نستعين . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا . وسيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له * ومن يضلل فلا هادى له * وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له * وأشهد أن محمدا عبده ورسوله *

(أما بعد) فانه أرسل الىّ بعض الاعلام بأسئلة يذكر انها من المخلاف اليماني (١) وانه حصل الاختلاف بين أهله فى شأنها وحاصل السؤال الاول هل الراجح جواز قضاء المقلد أم لا فاقول الاوامر القرآنية ليس فيها الا أمر الحاكم بان يحكم بالعدل والحق وما أنزل الله وما أراه الله ومن المعلوم لكل عارف أنه لا يعرف هذه الامور الا من كان مجتهدا اذ المقلد انما هو قائل بقول الغير دون حجته وليس الطريق الى العلم بكون الشيء حقا أو عدلا الا الحجة والمقلد لا يعقل الحجة اذا جاءته فكيف يهتدي للاحتجاج بها . وهكذا لاعلم عنده بما أنزل الله انما عنده علم بقول من هو مقلده فلو فرض انه يعلم بما أنزل الله وما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم علما صحيحا لم يكن مقلدا بل هو مجتهد وهكذا لا نظر للمقلد فاذا حكم بشى فهو لم يحكم بما أراه الله بل بما أراه امامه ولا يدري أذلك القول الذي قاله امامه موافق للحق أم مخالف له وبالجملة فالقاضي هو من يقضى بين المسلمين بما

---

(١) قوله المخلاف اليمانى هو من وادى حلى الى زبيد ولفظ المخلاف مستعمل في اليمن بمعنى القطر

جاء عن الشارع كما جاء فى حديث معاذ عند أبي داود والترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبعث معاذا الى اليمن قال : كيف تقضى اذا اعترض لك القضاء قال اقضى بكتاب الله قال فان لم تجد فى كتاب الله قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فان لم تجد فى سنة رسول الله قال اجتهد رأيى ولا آلوه قال فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضى رسول الله . وهذا الحديث وان كان فيه مقال فقد جمع طرقه وشواهده الحافظ ابن كثير فى جزء وقال هو حديث حسن مشهور اعتمد عليه أئمة الاسلام وقد أخرجه أيضا أحمد وابن عدى والطبرانى ولائمة الحديث كلام طويل فى هذا الحديث فبعضهم يقول باطل لا أصل له وبعضهم يقول حسن معمول به وبعضهم يقول ضعيف والحق انه من الحسن لغيره وهو معمول به وقد دل هذا الحديث على انه يجب على القاضي أن يقدم القضاء بكتاب الله ثم اذا لم يجد فيه قضى بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم اذا لم يجد اجتهد رأيه والمقلد لا يتمكن من القضاء بما فى كتاب الله لانه لا يعرف الاستدلال ولا كيفيته ولا يمكنه القضاء بما فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك ولانه لا يميز بين الصحيح والموضوع والضعيف المعل باى علة ولا يعرف الاسباب ولا يدري بالمتقدم والمتأخر والعام والخاص والمطلق والمقيد والمجمل والمبين والناسخ والمنسوخ بل لا يعرف مفاهيم هذه الالفاظ ولا يتعقل معانيها فضلا عن أن يمكن من أن يعرف اتصاف الدليل بشيء منها وبالجملة فالمقلد اذا قال صح عندى فلا عند له وان قال صح شرعا فهو لا يدرى ما هو الشرع وغاية مايمكنه أن يقول صح هذا من قول فلان وهو لا يدرى هل هو صحيح فى نفس الامر أم لا فهو بلا ريب أحد قضاة النار لانه اما أن يصادف حكم الحق فهو حكم بالحق ولا يعلم انه الحق أو يحكم بالباطل وهو لا يعلم أنه باطل وكلا الرجلين فى النار كما ورد بذلك النص عن المختار . وأما قاضى الجنة فهو الذي يحكم ويعلم أنه الحق ولا شك أن من يعلم بالحق مجتهد لا مقلد هذا يعرفه كل عارف فان قال المقلد أنه يعلم ان ماحكم به من قول امامه حق لان كل مجتهد مصيب فنقول له هل أنت مقلد فى هذه

المسأله أعنى أن كل مجتهد مصيب أم مجتهد فان قال كنت مقلدا فى هذه المسألة فقد جعلت ماهو محل النزاع دليلا لك وهو مصادرة باطلة فانك لا تعلم بانها حق في نفسها فضلا عن أن تعلم بزيادة على ذلك وان كنت مجتهدا في هـذه المسألة فـكيف خفي عليك ان المراد بكون كل مجتهد مصيبا هو من الصواب لا من الاصابة كما أقر بذلك القائلون بتصويب المجتهدين وحرروه فى مؤلفاتهم المعروفة الموجودة بأيدى الناس واذا كان ذلك من الصواب لامن الاصابة فلا يستفاد من المسألة ماتزعمه من كونه مذهب امامك حقا فانه لاينافى الخطأ ولهذا صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وان اجتهـد فاخطأ فله أجر » وهذا لايخفى الا على أعمى واذا لم تتعقل الفرق بين الصواب والاصابة فاستر نفسك بالسكوت ودع عنك الـكلام فى المباحث العلمية وتعلم ممن يعلم حتى تذوق حلاوة العلم فهذا حاصل مالدى فى هذه المسألة وان كانت طويلة الذيل والخلاف فيها مدون فى الاصول والفروع ولـكن السائل لم يسأل عن أقوال الرجال انمـا سئل عن تحقيق الحق فان قلت اذا كان التخاصم ببلد لايوجد فيها مجتهد هـل يجوز للخصمين الترافع الى من بها من القضاة المقلدين قلت اذا كان يمكن وصولهما الى قاض مجتهد لم يجز للمقلد أن يقضى بينهما بل يرشدهما الى القاضي المجتهد أو يرفع القضية اليه ليحكم فيها بما أراه الله فان كان الوصول الى القاضى المجتهد متعذرا أو متعسرا فلا بأس بان يتولى ذلك القاضى المقلد فصـل خصوماتهما لـكن يجب عليه أن لا يدعى علم ماليس فيه من شانه فلا يقول صح له ولا صح شرعا بل يقول قال امامى كذا ويعرف الخصمين انه لم يحكم بينهما الا بما قاله الامام الفلانى وفى الحقيقة هو محكم لا حاكم وقد ثبت التحكيم في هذه الشريعة المطهرة كما جاء ذلك فى القرآن فى شأن الزوجين وأنه يوكل الامر الى حكم من أهل الزوج وحكم من أهـل الزوجة كما فى قوله تعالى (يحكم به ذوا عدل منكم)[1] وكما وقع في زمن النبوة ومع الصحابة في غير قضية ومن لم يجد ماء تيمم بالتراب والرمد أهون من العمى ولا يغتر العاقل بما يزخرفه المقلدون ويموهون به على العامة من تعظيم شان من يقلدونه وينشر فضائله ومناقبه والموازنة بينه وبين من يبلغ رتبة الاجتهاد فى عصر هؤلاء المقلدين

١ ـ المائدة ٩٥

فان هذا خروج عن محل النزاع ومغالطة قبيحة وما أسرع نفاقها عند العامة لان أفهامهم قاصرة عن ادراك الحقائق والحق عندهم بالرجال وللاموات فى صدورهم جلالة وفخامة وطبائع المقلدين قريبة من طبائعهم فهم الى قبول أقوالهم أقرب منهم الى قبول أقوال العلماء المجتهدين لان المجتهدين قد باينوا العامة وارتفعوا الى رتبة تضيق أذهان العامة عن تصورها فاذا قال المقلد مثلا أنا أحكم بمذهب الشافعى وهو أعلم من هذا المجتهد المعاصر له وأعرف بالحق منه كانت العامة الى تصديق هذه المقالة والاذعان لها أسرع من السيل المنحدر وتنفعل أذهانهم كذلك اكمل انفعال *

فاذا قال المجتهد مجيبا على ذلك المقلد إن محل النزاع هو الموازنة بينى وبينك لا بينى وبين الشافعى فانى أعرف العدل والحق وما أنزل الله واجتهد برأيى اذا لم أجد فى كتاب الله وسنة رسوله نصا وأنت لا تعرف شيئا من ذلك ولا تقدر على أن تجتهد برأيك اذ لا رأي لك ولا اجتهاد لان اجتهاد الرأى هو ارجاع الحكم الى الكتاب والسنة بالمقايسة أو بعلاقة يسوغها الاجتهاد وانت لا تعرف كتابا ولا سنة فضلا عن ان تعرف كيفية الارجاع اليهما بوجوه مقبولة كان الجواب الذى جاء به المجتهد مع كونه حقا بحتا بعيدا عن ان يفهم العامة أو تذعن لصاحبه *

ولهذا نرى فى هذه الازمان الغريبة الشان ماينقله المقلد عن امامه أوقع فى النفوس مما ينقله المجتهد من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وان جاء من ذلك بالكثير الطيب وقد رأينا وسمعنا مالا يشك بانه من علامات قيام القيامة على أن كثيرا من المقلدين قد ينقل فى حكمه أو فتواه عن مقلد مثله قد صار تحت اطباق الثرى وأمامه عنه براء فيجول ويصول وينسب ذلك الى مذهب الامام وينسب من ياتى بما يخالفه من كتاب أو سنة الى الابتداع ومخالفة المذهب ومباينة أهل العلم وهو لو ارتفعت رتبته عن هذا الحضيض قليلا لعلم أنه هو المخالف لامامه لا الموافق له ولنوضح هذا بشىء يعرفه المقلدون فى ديارنا هذه فنقول اذا قال الحاكم للمجتهد فى مسألة من المسائل بخلاف ما فى متن الازهار

فلا يعدم جماعة من المقلدين ينكرون عليه هذه المخالفة لما فى الازهار ويتقربون الى العامة بانهم يحافظون على العمل بما فى هذا الكتاب وانهم مشيدون للمذهب قائمون بنشره وإن ذلك المجتهد يخالف ولو انصفوا لعلموا أنهم هم المخالفون لما فى الازهار وان ذلك المجتهد أسعد منهم بموافقته فان فى أول فصل من فصول الازهار ان التقليد جائز لغير المجتهد لاله ولو وقف على نصه أعلم منه وقاله بعد ذلك بعد الالتزام بحرمة الانتقال الا الى ترجيح نفسه فهذا الازهار مصرح فى أوائله بان عمل المجتهد بما فى مسائله تقليداً غير جائز له فالمقلد المسكين يريد من هذا المجتهد أن لا يعمل باجتهاده ولا يرجع الى ترجيح نفسه بل يقلد مؤلف الازهار فى المسائل الفرعية التى فيه فيوقعه فيما لا يجوز بنص الازهار ثم هذا المقلد الذي يريد أن يكون قاضيا ويعتقد صحة قضائه هو أيضا مخالف للازهار فانه مصرح فى باب القضاء أن من شروط القاضى أن يكون مجتهدا فانه قال والاجتهاد فى الاصح فهذا المقلد ليس بقاض بنص الازهار كما انه مخطىء فى انكاره على من يخالف الازهار من المجتهدين بنص الازهار فانه قال فى كتاب السير فى فصل انكار المنكر (ولا فى مختلف فيه على من هو مذهبه) وهذا المقلد قد نصب نفسه لانكار اجتهادات المجتهدين تلبيسا على العوام وترويجا لقصوره على غير ذوى الافهام *

وبيان ذلك أنه ان كان عالما بهذه النصوص التى ذكرناها فى الازهار فهو فى انكاره وترسيخه لنفسه بماليس من أهله مخالف لما يعتقد أنه الحق بل لما يقصر الحق عليه وان كان جاهلا بهذه النصوص فهو تهمة لانه يدعو الناس الى مالا يعرفه ويرشدهم الى ماليس عنده وينصب نفسه للانكار على أكابر العلماء وهو لا يعرف التقليد فضلا عن ان يعرف مافوقه ومن كان بهذه المنزلة فهو صاحب الجهل المركب الذى لا يستحق أن يخاطب بل على كل صاحب علم أن يرفع نفسه عن مجادلته ويصون لسانه عن مقاولته الا أن يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله *

(السؤال الثانى) حاصله ماحكم الاعراب سكان البادية الذين لا يفعلون شيئا من الشرعيات الامجرد التكلم بالشهادة هل هم كفار أم لا وهل على المسلمين غزوهم أم لا . أقول من كان تاركا لاركان الاسلام وجميع فرائضه ورافضا لما يجب

عليه من ذلك من الاقوال والافعال ولم يكن لديه الا مجرد التكلم بالشهادتين فلا شك ولا ريب ان هذا كافر شديد الكفر حلال الدم وصيانة الاموال انما تكون بالقيام باركان الاسلام فالذي يجب على من يجاور هذا الكافر من المسلمين فى المواطن والمساكن أن يدعوه الى العمل باحكام الاسلام والقيام بما يجب عليه القيام به على التمام ويبذل تعليمه ويلين له القول ويسهل عليه الامر ويرغبه فى الثواب ويخوفه من العقاب فان قبل منه ورجع اليه وعول عليه أكدها أو يوصله الى من هو أعلم منه بأحكام الاسلام وان أصر ذلك الكافر على كفره وجب على من يبلغه أمره من المسلمين أن يقاتلوه حتي يعمل بأحكام الاسلام على التمام فان لم يعمل فهو حلال الدم والمال حكمه حكم أهل الجاهلية وما أشبه الليلة بالبارحة وقد أبان لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا مانعتمده فى قتال الكافرين والآيات القرآنية والاحاديث النبوية فى هذا الشأن كثيرة معلومة لكل فرد من أهل العلم بل هذا الامر هو الذى بعث الله سبحانه به رسوله وأنزل لاجله كتبه والتطويل فى شأنه والاشتغال بنقل برهانه من باب ايضاح الواضح وتبيين البين فاذا صح الاصرار على الكفر فالدار دار حرب بلا شك ولا شبهة والاحكام الاحكام وقد اختلف المسلمون فى غزو الكفار الى ديارهم هل يشترط فيه الامام الاعظم أم لا والحق الحقيق بالقبول أن ذلك واجب علي كل فرد من أفراد المسلمين والآيات القرآنية والاحاديث النبوية مطلقة غير مقيدة *

(السؤال الثالث) حاصله ما قيل فى العصاة من أهل بيت النبوة أنهم لا يعاقبون على ما يرتكبون من الذنوب بل هم من أهل الجنة على كل حال تكريما وتشريفا هل ذلك صحيح أم لا أقول لاشك ولا ريب أن أهل البيت النبوى المطهر لهم من المزايا والخصائص والمناقب ماليس لغيرهم وقد جاءت الآيات القرآنية والاحاديث النبوية شاهدة لهم بما خصهم الله به من التشريف والتكريم والتبجيل والتعظيم. وأما القول برفع العقوبات عن عصاتهم وأنهم لا يخاطبون بما اقترفوه من المآثم ولا يطالبون بما جنوه من العظائم فهذه مقالة باطلة ليس عليها

أثارة من علم ولم يصح فى ذلك عن الله ولا عن رسوله حرف واحد وجميع ما أورده علماء السوء المتقربون الى المتعلقين بالرياسات من أهل هذا البيت الشريف فهو باطل موضوع أو خارج عن محل النزاع بل القرآن أعدل شاهد وأصدق دليل على زجر قول كل مكابر جاحد فانه قال عز وجل فى نساء النبى صلى الله عليه وسلم (من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين)[١] وليس ذلك الا لما لهن من رفعة القدر وشرافة المحل بالقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وذريته الاطهار هم أحق منهن بهذا المضمار فانهم أقرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشرف قدرا وأعلى محلا وأكرم عنصرا وأفخم ذكرا ولو كان الامر كما زعم هذا الزاعم لم يكن لقوله تعالى (وأنذر عشيرتك الاقربين)[٢] معنى ولا كبير فائدة واذا كان المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول لفاطمة البتول التى هى بضعة منه يغضبه ما يغضبها ويرضيه ما يرضيها « يافاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئا » فليت شعرى من هذا من أولادها الذى خصه الله بما لم يخصها ورفعه الى درجة قصرت عنها فابعد الله علماء السوء وقلل عددهم فان العاصى من أهل هذا البيت الشريف المطهر اذا لم يكن مستحقا على معصية مضاعفة العقوبة فأقل الاحوال أن يكون كسائر الناس فيامن شرفه الله بهذا النسب الشريف اياك أن تغتر بما ينمقه لك أهل التبديل والتحريف *

(السؤال الرابع) حاصله الاستفهام عن مذهب أهل الحق فى شأن ما شجر بين الصحابة فى الخلافة وما يترتب عليها * أقول ان كان هذا السائل طالبا للنجاة مستفهما عن أقرب الاقوال الى مطابقة مراد مولاه كما يشعر بذلك تصرفه فى سؤاله فليدع الاشتغال بهذا الامر ويترك المرور فى هذا المضيق الذى تاهت فيه الافكار وتحيرت عنده أفكار أهل الانظار فان هؤلاء الذين تبحث عن حوادثهم وتتطلع لمعرفة ماشجر بينهم قد صاروا تحت أطباق الثرى ولقوا ربهم فى المائة الاولى من البعثة وها نحن الآن فى المائة الثالثة عشر فما لنا والاشتغال بهذا الشأن الذى لا يعنينا ومن حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه . وأى فائدة لنا فى الدخول فى الامور التى فيها ريبة وقد أرشدنا الى أن ندع ما يريبنا الى مالا يريبنا ويكفينا من تلك القلاقل

١ ـ الأحزاب ٣٠
٢ ـ الشعراء ٢١٤

والزلازل أن نعتقد انهم خير القرون وأفضل الناس وان الخارجين على أمير المؤمنين رضوان الله عليهم المحاربين له المصرين على ذلك الذين لم تصح توبتهم بغاة وانه المحق وهم المبطلون . وما زاد على هذا المقدار فهو من الفضول الذي يشتغل به من لايبالى بدينه وقد تلاعب الشيطان بكثير من الناس فأوقعهم فى الاختلاف فى خير القرون الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأنهم لبعض من هو من جملتهم لكنه تأخر اسلامه عنهم « لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبامابلغ مد أحدهم ولا نصيفه » فاذا كان مثل أحد ذهبا من المتأخرين من الصحابة المخاطبين بهذا الخطاب لايبلغ مد أحد متقدميهم ولا نصيفه فما أظنه يبلغ بمثل أحد ذهبا منا مقدار حبة من أحدهم ولا نصفها فرحم الله امرأ اشتغل بما أوجبه الله عليه وطلبه منه وترك مالايعود عليه بنفع لافى الدنيا ولا فى الآخرة بل يعود عليه بالضر ولولم يكن من الضر الا مجرد ماأرشدنا اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله «من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه» لكفى فهذا والله ممالا يعنينا ومن ظن خلاف هذا فهو مغرور مخدوع قاصر الباع عن ادراك الحقائق ومعرفة الحق على وجهه كائنا من كان والله لو جاء أحدهم يوم القيامة بما يملأ الدنيا من الحسنات ما كان لنا من ذلك شيء ولو جاء أحدهم (وصانهم الله) من السيئات بمثل ذلك ما كان علينا من ذلك شيء ففيم التعب وعلام نضيع الاوقات فى هذه الترهات *

(السؤال الخامس) حاصله الاستفهام عن العادات الجارية فى بعض البلدان من الاجتماع فى المساجد لتلاوة القرآن على الاموات وكذلك فى البيوت وسائر الاجتماعات التى لم ترد فى الشريعة هل يجوز ذلك أم لا * أقول لا شك ان هذه الاجتماعات المبتدعة ان كانت خالية عن معصية سليمة من المنكرات فهى جائزة لان الاجتماع ليس بمحرم فى نفسه لاسيما اذا كان لتحصيل طاعة كالتلاوة ونحوها ولا يقدح فى ذلك كون تلك التلاوة مجعولة للميت فقد ورد جنس التلاوة من الجماعة المجتمعين كما فى حديث « اقرأوا على موتاكم يس » وهو حديث حسن ولا فرق بين تلاوة يس من الجماعة الحاضرين عند الميت أو على قبره وبين تلاوة جميع القرآن أو بعضه لميت فى مسجده أو بيته . وبالجملة فالاجتماعات العرفية التى

لم يرد جنسها فى الشريعة ان كانت لاتخلو عن منكر فلا يجوز حضورها ولا يحل ولاتطيب نفس مسلم بحضور موقف المنكرات والمعاصى وان كانت خالية عن ذلك وليس فيها الا مجرد التحدث بما هو مباح فهذا لا نسلم انه لم يرد جنسه فى الشريعة المطهرة فقد كان الصحابة الراشدون يجتمعون فى بيوتهم ومساجدهم وبينهم نبيهم صلى الله عليه وسلم ويتناشدون الاشعار ويتذاكرون الاخبار ويأكلون ويشربون فمن زعم ان الاجتماع الخالى عن الحرام بدعة فقد أخطأ فان البدعة هى التى تبتدع في الدين وليس هذا من ذلك *

(السؤال السادس) حاصله الاستفهام عن الحلف بغير الله كالحلف بالسلطان والاولياء والقرآن من دون قصد تعظيم المخلوق به بل لاجل الاعتياد بذلك فى المحاورة * أقول هذا لايحل لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر . وقد ورد النهى عنه فى الاحاديث الصحيحة وورد أيضا فى الاحاديث مايفيد ان فاعل ذلك يكفر اذا كان حلفه باللات والعزى ونحو ذلك من الطواغيت و ورد أن من فعل ذلك لم يرجع الى الاسلام سالما وهذه أحاديث صحيحة ثابتة فى دواوين الاسلام فان سبق لسان الحالف الى شيء من ذلك لاجل تمرنه عليه فعليه أن يتدارك نفسه بالاستغفار ويعود لسانه ونفسه الخير ما استطاع ولايقع فيما نهى عنه الشارع وتوعد عليه فان النفس قابلة للتعليم اذا عودت غير ماقد اعتادته عادت الى الموافقة ولو بعد حين *

(السؤال السابع) عن تبقية شعر الرأس هل هو مسنون اذا علم من نفسه النقص عن تخليله بالماء عند وجوب الغسل أم يجب عليه ازالته «أقول»

وخير الامور السالفات على الهدى وشر الامور المحدثات البدائع

قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جمة الى شحمة اذنيه وكذلك المشاهير من الصحابة الذين نقلت الينا حليتهم وقد جاءت الاحاديث الصحيحة الصريحة بذلك فمن أراد الاقتداء بالهيئة التى كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فليترك له جمة كالجمة التى كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم من دون أن يحلق بعض شعر الرأس و يبقى بعضه كما يعتاده البدو فى الجهات المتصلة بصنعاء فان ذلك منهى

عنه لان التحليق ان كان بموضع الحلاقة فقد ورد عنه النهى الصحيح وان كان بموضع من الرأس فهو القزع المنهى عنه بالحديث الصحيح وهكذا حلق البعض وترك البعض وأما حلق الرأس كله فلم يرد مايدل على النهى عنه وان كانت خلاف السنة اذا كان لغير النسك وقد ثبت ان التحليق سيما الخوارج ولعلهم يفعلون ذلك معتقدين مشروعيته نعم ورد الامر النبوى لمن أسلم بأن يحلق عنه شعر الكفر فمن دخل بالاسلام بعد الكفر فعليه أن يحلق شعره الذى كان على بدنه فى الكفر وهو شعر الرأس لاشعر اللحية ونحوه مما لايرد الشرع بحلقه هذا على تسليم أن أمره صلى الله عليه وسلم لهذا الفرد من أفراد الكفار يكون أمراً لكل فرد منهم والخلاف فى المسألة معروف فى الاصول ولم ينقل الينا أنه صلى الله عليه وسلم أمر أحدا ممن أسلم من أكابر الصحابة أن يحلق شعره ولا من غيرهم من متأخرى الاسلام غير هذا الرجل ومع هذا فالحديث المذكور فى حلق الرأس ضعيف كما أوضح ذلك علماء هذا الشأن *

(السؤال الثامن) حاصله الاستفهام عن أرض فيها آثار ملك متقادمة ولا يد عليها فى الحال ولا يعرف مالكها ولبعض الناس أوضاع شرعية تفيد أن له ملكا فيها ولكنه غير معين فى جهة من جهاتها فهل يجوز احياؤها أم لا *

أقول ان الارض التي فيها آثار ملك لمالك غير معروف ان كانت فى البلاد الامامية فهى لبيت المال ويكون أمرها الى الامام يجعلها لمصلحة من مصالح المسلمين أو يبيعها أو يؤجرها وان كانت فى أرض غير امامية كان أمرها الى أصلح أهل تلك البلد يجعلها فى مصالح المسلمين واذا كان لاحد الناس أوضاع صحيحة تفيد أنه يملك مقدارا معلوما غير معين فى جهة من جهاتها كان له ذلك المقدار من أوسط بقاعها الذى يكون متوسطا بين أعلاها وأدناها اذا كانت مختلفة وان كانت متحدة فللامام أو الحاكم عن جهة أو حاكم المصالح أن يعين لصاحب الوضع ما اشتمل عليه وضعه فى أى جهة من جهاتها والمفروض أنه لاثبوت ليد عليها حتي تعارض لقوم معروفين وهى منسوبة اليهم نسبة تفيد الملك فان كان نصيب كل واحد منهم معلوما غير معين فى جهة قسمت بينهم على قدر الانصباء وان كان النصيب مجهولا قسمت

بينهم على الرؤوس مع عدم البرهان الشرعي بوجه من الوجوه*

(السؤال التاسع) حاصله هل يجوز التأديب بالمال اذا حصل من أحد الرعايا قتل أو نحوه أولا يجوز وان كانوا لايقومون في الغالب بما أوجبه الله عليهم من صلاة وصيام ونحوهما وهل فى أموالهم حق غير الزكاة * أقول قد شرع الله لعباده الشرائع وحد لهم الحدود وجعل لكل ذنب عقوبة فالقاتل يقتل أو يسلم الدية ان لم يكمل شروط القصاص أو كملت ورضى الورثة بالدية والجانى يقتص منه فيما يجب فيه القصاص ويسلم الارث فى الجناية التى لاقصاص فيها والزانى والسارق والقاذف والسكران قد جاءت الشريعة بعقوبات مقدرة فى كل واحد منهم .وتارك أركان الاسلام أو بعضها اذا أصر على الترك ولم يتب وجب قتاله بحسب الاستطاعة وهكذا جاءت الشريعة المطهرة بما يلزم كل من فعل محرما أو ترك واجبا ولم يأت في شيء من هذه الامور الشرعية التأديب بالمال وان ورد شيء من ذلك فى الشريعة كتضعيف الغرامة فى بعض المسائل وأخذ شطر من لم يسلم الزكاة وأخذ ثياب من يقطع أشجار حرم المدينة ونحو ذلك فهو مقصور على محله لايجوز مجاوزته الى غيره وقد استوفيت الكلام على ذلك فى رسالة مستقلة وسردت فيها المواضع التى وردت وأوضحت هنا ان الاصل المعلوم بالضرورة الدينية هو تحريم مال المسلم وعصمته وعدم تسويغه الا بطيب من نفسه وان تلك المواضع التى فيها التأديب بالمال كالمخصصة لهذا العموم فيقتصر عليها ولايجوز مجاوزتها الى غيرها وانه لايجوز ذلك فى هذه المواضع التى وردت الا لأئمة المسلمين المتبحرين فى معرفة أحكام الدين ولا يجوز لافرادهم كائنا من كان ولا يشك عالم أن تلك المواضع اليسيرة واردة على خلاف الاصل في هذه الشريعة فان الاصل المعلوم بالضروة هو ماورد فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من العقوبات المقدرة للعصاة وقد تهافتت الظلمة فى هذه المسألة تهافتا شنيعا حتى عطلوا الحدود الواجبة واستحلوا أموال المسلمين بغير حقها فأخذوا ما حرم الله عليهم أخذه وهو مال المسلم وأهملوا ما أخذ الله عليهم القيام به وهو الحدود فجمعوا بين خطيئتين شنيعتين هما استحلال أموال المسلمين وأكلها بالباطل وتعطيل حدود الله التي شرعها لعباده

وأعانهم على ذلك علماء السوء فأفتوهم بما وجدوه فى نصوص أهل العلم من الكلام على التأديب بالمال فضلوا وأضلوا وكانوا شركاء لهم فى المظلمة مع أن نصوص أهل العلم مقيدة بقيود مشروطة بشروط وكذلك الادلة الواردة فى ذلك فانها فى مواطن خاصة مباينة لما يفعله أهل الظلم مبنية على مصالح عامة وخاصة لا يقف على وجه الحكمة فيها الا أفراد العلماء وأما ماسأل عنه السائل (هل فى المال حق سوي الزكاة)

فأقول قد تكلم علماء التفسير والحديث والفقه فى ذلك بكلام طويل والراجح أن حديث ليس فى المال حق سوا الزكاة عام مخصص بمثل وجوب الضيافة وسد رمق محترم الدم كما وردت بذلك الادلة الخاصة وبمثل قوله تعالى (وآتوا حقه يوم حصاده)[1] وقوله تعالى (وجاهدوا باموالكم وأنفسكم)[2] ونحو ذلك مما وردت به الشريعة المطهرة لا مالا ترد به مما ابتدعه أهل الظلم وجعلوه ذريعة الى أكل أموال الناس بالباطل *

(السؤال العاشر) عن العمائر المستجدة فى الحرم الشريف كالمقامات والمنارات وكذلك التعلية في البيوت زيادة على الحاجة أقول عمارة المقامات بدعة باجماع المسلمين أحدثها أشر ملوك الشراكسة فرج بن برقوق فى أوائل المائة التاسعة من الهجرة وانكر ذلك أهل العلم فى ذلك العصر ووضعوا فيه مؤلفات وقد بينت ذلك فى غير هذا الموضع ويالله العجب من بدعة يحدثها من هو من شر ملوك المسلمين فى خير بقاع الارض كيف لم يغضب لها من جاء بعده من الملوك المائلين الى الخير لاسيما وقد صارت هذه المقامات سببا من أسباب تفريق الجماعات وقد كان الصادق المصدوق ينهى عن الاختلاف والفرقة ويرشد الى الاجتماع والائتلاف كما فى الاحاديث الصحيحة بل نهى عن تفريق الجماعات فى الصلوات وبالجملة فكل عاقل متشرع يعلم انه حدثت بسبب هذه المذاهب التى فرقت الاسلام فرقا مفسدة اصيب بها الدين واهله وأن من أعظمها خطراً وأشدها على الاسلام ماوقع الآن فى الحرم الشريف من تفرق الجماعات ووقوف كل طائفة فى مقام من هذه المقامات كأنهم اهل أديان وشرائع مختلفة فانا لله وانا اليه راجون واما رفع المنارات فاصل وضعها لمقصد صالح وهو اسماع البعيد عن محل الاذان وهذه مصلحة مسوغة اذا لم تعارضها

١ ـ الأنعام ١٤١
٢ ـ التوبة ٤١

مفسدة فان عارضتها مفسدة من المفاسد المخالفة للشريعة فدفع المفاسد مقدم على جلب المصالح كما تقرر ذلك فى الاصول . واما تشييد البنيان ورفعه فوق حاجة الانسان فقد ورد النهي عنه والوعيد عليه وثبت انه صلى الله عليه وسلم أمر بهدم بعض الابنية وليس ذلك بمجرد بدعة بل خلاف ماارشد اليه الشارع *

﴿السؤال الحادى عشر﴾ عن شجرة التنباك هل يجوز استعمالها على الصفة التى يستعملها كثير من الناس الآن ام لا * اقول الاصل الذي يشهد له القرآن الكريم والسنة المطهرة هو ان كل مافى الارض حلال ولايحرم شيء من ذلك الا بدليل خاص كالمسكر والسم القاتل وما فيه ضرر عاجل أو آجل كالتراب ونحوه ومالم يرد فيه دليل خاص فهو حلال استصحابا بالبراءة الاصلية وتمسكا بالادلة العامة كقوله تعالى (خلق لكم مافى الارض جميعا) (قل لاأجد فيما أوحى الىّ محرما) الآية وهكذا الراجح عندى أن الاصل فى جميع الحيوانات الحل ولا يحرم شيء منها الا بدليل يخصصه كذى الناب من السباع والمخلب من الطير والكلب او الخنزير وسائر ماورد فيه دليل يدل على تحريمه اذا تقرر هذا علمت ان هذه الشجرة التي سماها بعض الناس التنباك وبعضهم التوتون لم يأت فيها دليل يدل على تحريمها وليست من جنس المسكرات ولامن السموم ولامن جنس مايضر آجلا أوعاجلا فمن زعم أنها حرام فعليه الدليل ولا يفيد مجرد القال والقيل وقد استدل بعض أهل العلم على حرمتها بقوله تعالى (يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) وأدرج هذه الشجرة تحت الخبائث بمسلك من مسالك العلة المدونة فى الاصول وقد غلط فى ذلك غلطا بينا فان كون هذه الشجرة من الخبائث هو محل النزاع والاستدلال بالآية الكريمة على ذلك فيه شوب مصادرة على المطلوب والاستخباث المذكور ان كان بالنسبة الى من يستعملها ومن لا يستعملها فهو باطل فان من يستعملها هي عنده من الطيبات لامن المستخبثات وان كان بالنسبة الى بعض هذا النوع الانسانى فقد وجد منهم من استخبث العسل وهو من أطيب الطيبات وقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأكل الضب وقال اجدنى أعافه . فأكله بعض الصحابة بمرأى ومسمع منه صلى الله عليه وسلم ومن أنصف

من نفسه وجد كثيرا من الامور التى أحلها الشارع من الحيوانات وغيرها وكانت حلالا بالبراءة الاصلية وعموم الادلة فى هذا النوع الانسانى من يستخبث بعضها وفيهم من يستطيب ما يستخبثه غيره فلو كان مجرد استخباث البعض مقتضيا لتحريم ذلك الشيء عليه وعلى غيره لكان العسل ولحوم الابل والبقر والدجاج من المحرمات (١) لان فى الناس من يستخبث ذلك ويعافه واللازم باطل فالملزوم مثله فتقرر بهذا ان الاستدلال على تحريم التوتون لكون البعض يستخبثه غلط أو مغالطة وقد انقضى الجواب على سؤالات السائل مع المبالغة فى الاختصار ليسهل الانتفاع بذلك على طالب الفائدة ولو بسطنا الجواب بعض البسط لجاء جواب بعض هذه الاسئلة على انفراده في كراريس فما الظن بجميعها والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم *

---

(١) هذه مغالطة ظاهرة فان هذه الاشياء ثابت حلها بنص الكتاب والسنة وأن عافها أكثر الناس وشجرة التنباك ليست مما ثبت حله بل نص على تحريمه كافة علماء الحكمة من مسلم وغيره بسبب ضرره وأنه يحدث ضررا كثيرا في جميع جسم الانسان حتى ان من يشربه ويستعمله يقر على نفسه بانه يحصل عنده ضرر بسببه وأن صحته تضعف وتأخذ في الانحطاط وليس يثبت أن كل حكم جزئى منصوص عليه نصا صريحا بخصوصه بل بعض الاشياء ثابت حكمه بدليل خاص وبعضه بدليل عام يندرج ذلك الجزئى تحته وهذا لا يخفى على من له أدنى ادراك بعلم الاصول وقواعد الشريعة * فيعلم العاقل أنه اسراف وقد قال تعالى (ولا تسرفوا) وتبذير وقال سبحانه (إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين) ومفتر وقد نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن كل مسكر ومفتر فلذلك اذا استعمله الانسان في بادىء أمره يحصل عنده غيبان وتفتير يشعر به ويشكو . ومهلك وقد قال تعالى (ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة) وضرر وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «لا ضرر ولا ضرار» والله أعلم

﴿ تمت بحمد الله تعالى وحسن توفيقه ويليها الرسالة السادسة ان شاء الله تعالى ﴾

الرسالة السادسة

معنى قول الامام المطلبي اذا صح الحديث فهو مذهبي

﴿ لشيخ الاسلام تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي رحمه الله ﴾

(المتوفى سنة ٧٥٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وبه نستعين وعليه التوكل ﴾

قال الشيخ الامام شيخ الاسلام بقية المجتهدين تقي الدين السبكي رحمه الله سألت وفقك الله عن قول امامنا الشافعي رضي الله عنه اذا صح الحديث فهو مذهبي وهو قول مشهور عنه لم يختلف الناس في أنه قاله وروى عنه معناه أيضا بألفاظ مختلفة * قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي قال سمعت حرملة يقول قال الشافعي كل ما قلت فكان عن النبي صلى الله عليه وسلم خلاف قولي مما يصح فحديث النبي صلى الله عليه وسلم أولى ولا تقلدوني * وقال الاصم سمعت الربيع يقول سمعت الشافعي يقول اذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بها ودعوا ما قلته * قال وسمعت الشافعي روى حديثا فقال له رجل يا أبا عبد الله تأخذ بهذا فقال متى رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا صحيحا فلم آخذ به فأشهدكم أن عقلي قد ذهب . وقال الحميدي روى الشافعي يوما حديثا فقلت أتأخذ به فقال رأيتني خرجت من كنيسة عليّ زنار حتى اذا سمعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا لا أقول به * وقال الربيع سمعت الشافعي وسأله رجل عن مسألة فقال له يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم فيها كذا وكذا فقال له السائل تقول به فرأيته أرعد وانتفض وقال يا هذا أي أرض تقلني وأي سماء تظلني اذا رويت

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا فلم أقل به نعم على السمع والبصر * وقال ابن أبي حاتم اخبرني أبو محمد السجستاني فيما كتب الى عن أبي ثور سمعت الشافعي يقول كل حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو قولي وان لم تسمعوه مني * وقال دعلج حدثنا ابو محمد الجارودي قال سمعت الربيع قال سمعت الشافعي يقول اذا وجدتم سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف قولي فخذوا بها ودعوا قولي فاني أقول بها * وقال ابن أبي حاتم كتب الي عبد الله بن الامام احمد سمعت أبي يقول كان الشافعي اذا ثبت عنده الحديث قلده وخير خصلة كانت فيه لم يكن يشتهي الكلام انما همته الفقه * وروى الطبراني عن عبد الله ابن الامام احمد قال سمعت ابي يقول قال محمد بن أدريس الشافعي أنت أعلم بالاخبار الصحاح منا فاذا كان خبر صحيح فاعلمني حتى اذهب اليه كوفيا كان أو بصريا أو شاميا فانظر انصاف الشافعي رحمه الله وقوله لأحمد واحمد من اصحابه وقد قال ابراهيم الحربي قال استاذ الأستاذين قالوا من هو قال الشافعي اليس هو استاذ احمد بن حنبل * وقال ابو أيوب حميد بن احمد البصري كنت عند احمد بن حنبل نتذاكر في مسألة فقال رجل لأحمد ياأبا عبد الله لايصح فيه حديث فقال ان لم يصح فيه حديث ففيه قول الشافعي . وحجته اثبت شيء فيه ثم قال قلت للشافعي ماتقول في مسألة كذا وكذا قال فأجاب فيها فقلت من اين قلت هل فيه حديث أو كتاب قال فنزع في ذلك حديثا للنبي صلى الله عليه وسلم وهو حديث نص * وروى البيهقي بسنده الى الربيع المرادي قال سمعت الشافعي يقول اذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ماقلت *وعن الربيع بن سليمان أيضا قال سمعت الشافعي يقول كل مسألة تكلمت فيها صح الخبر فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم عند أهل النقل بخلاف ماقلت فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي * وعن الربيع بن سليمان قال سمعت الشافعي يقول مامن احد الا ويذهب عليه سنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعزب عنه فمهما قلت من قول او أصلت من أصل فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله خلاف ماقلت فالقول ماقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله

وسلم وهو قولي وجعل يردد هذا الكلام * وسئل ابو بكر بن خزيمة هل تعرف سنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحلال والحرام لم يودعها الشافعي كتابه قال لا * وقال الشافعي لاتترك الحديث عن رسول الله صلي الله عليه وسلم بان يدخله القياس ولا موضع للقياس مع السنة * وقال الشافعي في حديث بروع بنت واشق ان ثبت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فهو أولى الأمور بنا ولا حجة فى قول احد دون النبي صلي الله عليه وعلى آله وسلم ولا فى قياس ولا شيء فى قوله الا طاعة الله بالتسليم له ولم احفظه من وجه يثبت مثله هو مرة يقال عن معقل بن يسار ومرة عن معقل بن سنان ومرة عن بعض اشجع لا يسمى * وقال الشافعي فيما روى عن على بن معبد باسناده عن النبى صلى الله عليه وسلم وعلى آله انه أجاز بيع القمح فى سنبله اما هو فغرر لانه مجهول دونه لا يرى فان ثبت الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم قلنا به وكان هذا خاصا مستخرجا من عام لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الغرر وأجاز هذا وكذا اجاز بيع الشقص من الدار فجعل فيه الشفعة لصاحب الشفعة وان كان فيه غرر وكان خاصا مخرجا من عام * وللشافعي رضى الله عنه كثير من هذا * وقد روينا منها باسانيده شيئا كثيرا لم نر التطويل بذكرها ولا بذكر الأسانيد * وقال أبو الوليد موسى بن ابي الجارود قال الشافعي اذا صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت قولا فانى راجع عن قولي وقائل بذلك * وقال الزعفرانى عن الشافعي اذا وجدتم لرسول الله صلى الله عليه وسلم سنة فاتبعوها ولا تلتفتوا الى قول احد * وحكى الامام فى النهاية عن الصيدلانى عن بعض اصحابنا المحققين القطع باستحباب التثويب وقال نحن نعلم على قطع انه لو بلغه يعنى الشافعي الحديث على خلاف مااعتقده وصح على شرطه لرجع الى موافقة الحديث * وفى المهذب فى الغسل من غسل الميت ان الشافعي قال فى البويطى ان صح الحديث قلنا به * وفى البحر فى الاشتراط عن الشافعي فى الجديد ان صح حديث ضباعة قلت به * ورجح جماعة من أصحابنا ان وقت المغرب موسع والصوم عن الميت كذلك ولأجله قال الماوردي ان الصلاة الوسطى العصر مع نص الشافعي على انها الصبح قال ولا يكون فى ذاك قولان كما وهم بعض اصحابنا

* وقال في وطء الحائض فيه وجوب دينار أو نصف دينار * روى هذا الحديث الشافعي وكان اسناده ضعيفا فقال ان صح قلت به * وحكي الربيع عن الشافعي أنه قال ما ورد من سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بخلاف مذهبي فاتركوا له مذهبي فان ذلك مذهبي واختار ابن المنذر أن الصلاة الوسطى العصر كما اختاره الماوردي ونسبه ابن عبد البر والقاضي عياض الى الشافعي *

(فصل) قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رضي الله عنه في كتاب الفتوى ممن حكى عنه أنه أفتي بالحديث في مثل ذلك أبو يعقوب البويطي وأبو القاسم الداركي وهو الذي قطع به أبو الحسن الكيا الطبري وليس هذا بالهين فليس كل فقيه يسوغ له أن يستقل بالعمل بما رآه حجة من الحديث وفيمن سلك هذا المسلك من الشافعية من عمل بحديث تركه الشافعي عمدا على علم منه بصحته لمانع اطلع عليه وخفي على غيره كأبي الوليد موسى بن أبي الجارود ممن صحب الشافعي * روي أنه روى عن الشافعي أنه قال اذا صح عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث وقلت قولا فانا راجع عن قولي قائل بذلك * قال أبو الوليد وقد صح حديث أفطر الحاجم والمحجوم فرد على أبي الوليد ذلك من حيث أن الشافعي تركه مع صحته لكونه منسوخا عنده وقد دل على ذلك رضي الله عنه رتبته * وروينا عن ابن خزيمة الامام البارع في الحديث والفقه أنه قال قيل له هل تعرف سنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الحلال والحرام لم يودعها الشافعي كتابه قال لا قال ابن الصلاح [1] وعند هذا قول من وجد من الشافعيين حديثا يخالفه مذهبه نظر فان كملت آلات

---

(١) هكذا عبارة ابن الصلاح في النسختين وفي التركيب ركاكة. وقد ذكر الامام النووي كلام العلامة ابن الصلاح في مقدمة المجموع شرح المهذب وهاك نصه. قال الشيخ أبو عمرو فمن وجد من الشافعية حديثا يخالف مذهبه نظر أن كملت آلات الاجتهاد فيه مطلقا أو في ذلك الباب أو المسألة كان له الاستقلال بالعمل به وان لم يكمل وشق عليه مخالفة الحديث بعد ان بحث فلم يجد لمخالفته عنه جوابا شافيا فله العمل به ان كان عمل به امام مستقل غير الشافعي ويكون هذا عذرا له في ترك مذهب امامه هنا اه قال النووي وهذا الذي قاله حسن متعين

الاجتهاد فيه اما مطلقا وأما فى ذلك الباب او فى تلك المسألة كان له الاستقلال بالعمل بذلك الحديث وان لم تكمل فيه آلته ووجد حرارة فى قلبه من مخالفة الحديث بعد أن بحث فلم يجد لمن لفته عنه جوابا شافيا فلينظر هل عمل بذلك الحديث إمام مستقل فان وجده فله ان يتمذهب بمذهبه فى العمل بذلك الحديث ويكون ذلك عذرا له فى ترك مذهب أمامه فى ذلك وسكت ابن الصلاح عن القسم الآخر وهو ان لا يجد من يتمذهب بمذهبه فى العمل بذلك الحديث وكأنه لان ذلك انما يكون حيث يكون اجماع ولكن قد يفرض مع الاختلاف وقد يفرض فى مسألة لا نقل فيها عن غير الشافعي فماذا يصنع والاولى عندى اتباع الحديث وليفرض الانسان نفسه بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم وقد سمع ذلك منه ايسعه التأخر عن العمل به لا والله وكل أحد مكلف بحسب فهمه وقد تبع النووى أبا عمرو بن الصلاح فيما قاله وقال مثله فى خطبة شرح المهذب وقال انما هذا يعنى كلام الشافعي فيمن له رتبة الاجتهاد فى المذهب وشرطه ان يغلب على ظنه أن الشافعي رحمه الله لم يقف على هذا الحديث أو لم يعلم بصحته وهذا انما يكون بعد مطالعة كتب الشافعي كلها ونحوها من كتب الاصحاب الاخذين عنه وما اشبهها وهذا شرط صعب قل من يتصف به وانما اشترطوا ما ذكرناه لان الشافعي رحمه الله ترك العمل بظاهر أحاديث كثيرة رآها وعلمها لكن قام الدليل عنده على طعن فيها او نسخها أو تخصيصها أو تأويلها أو نحو ذلك *

وحكى الذى قاله ابن الصلاح وقال انه حسن متعين وهذا الذى قالاه رضى الله عنهما ليس ردا لما قاله الشافعي ولا لكونه فضيلة امتاز بها عن غيره ولكنه تبيين لصعوبة هذا المقام حتى لا يغتر به كل أحد والافتاء فى الدين كه كذلك لا بد من البحث والتنقير عن الادلة الشرعية حتى ينشرح الصدر للعمل بالدليل الذى يحصل عليه فهو صعب وليس بالهين كما قالاه رضى الله عنهما ومع ذلك ينبغى الحرص عليه وطلبه * وأما قصة ابن الجارود فالرد فيها على ابن الجارود لتقصيره فى البحث لا على حسن كلام الشافعي فى نفسه وامكان اتباعه * وممن وافق ابن الجارود عليه أبو الوليد النيسابوى حسان بن محمد من ذرية سعيد بن العاص من أكابر أئمة

أصحابنا توفى سنة تسع وأربعين وثلثمائة كان يحلف بالله ان مذهب الشافعي أنه يفطر الحاجم والمحجوم استنادا الى ذلك وغلطه الاصحاب بما سبق كما غلطوا ابن الجارود وهو كمسألة يغلط فيها بعض المجتهدين لكن تغليط ذلك صعب لاتساع المدارك * وقد سهل تغليط هذا الرجل من جهة معرفة مدركه وغلطه فيه * وقد يمكن مثله فى غيره وقد يتهيأ معرفة صواب من يصيب فيه * وقد حكى عن أبى الحسن محمد بن عبد الملك الكرجي الشافعي وكان فقيها محدثا أنه كان لا يقنت فى صلاة الصبح يقول صح عندي ان النبي صلي الله عليه وسلم ترك القنوت فى صلاة الصبح وقال رأيت ليلة الشيخ أبا اسحق الشيرازى فى النوم فسلمت عليه وأردت أن أقبل يده فاعرض عنى وامتنع فقلت ياسيدى أنا من جملة غلمانك واذ كر المهذب من تصنيفك فى الدروس فقال لى لم تركت القنوت فى صلاة الصبح . فقلت له ان الشافعي قال اذا صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتركوا قولي وخذوا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فان ذلك قولي فهذا أيضا قول الشافعي وشرعت معه في شرح الحديث وهو يصغي الى أن تبسم في وجهي أو كما قال وذكر هذه الحكاية عنه ابن السمعانى وذكرها شيخنا الحافظ الدمياطى فى الصلاة الوسطى ولما قرأتها عليه تركت القنوت في صلاة الصبح مدة ثم علمت ان الذى صح من قوله صلى الله عليه وسلم القنوت في صلاة الصبح هو الدعاء على رعل وذكوان وفى غير صلاة الصبح أما ترك الدعاء مطلقا بعد القيام فى صلاة الصبح ففيه حديث عيسى بن ماهان * وفيه من الكلام ماعرف وليس هذا موضع تحريره فرجعت الي القنوت وأما الآن أقنت وليس فى شيء من ذلك اشكال على كلام الشافعي وانما قصور يعرض لنا فى بعض النظر * ولما ذكر شيخنا الدمياطى محمد بن عبد الملك الكرجى قال انه من أكابر أصحاب الشيخ أبي إسحاق الشيرازي فقال لى ابنى عبد الوهاب ليس من أصحاب الشيخ أبى اسحق ولكن من أصحاب أصحابه وكان يدرس كتابه * وأما قول ابن خزيمة انه لا يعرف لرسول الله صلى الله عليه وسلم سنة فى الحلال والحرام لم يودعها الشافعي كتبه فقد يكون أودعها كتبه وفى بعضها لم يتبين له صحتها فيتبين بعد ذلك أولا يكون فى الحلال والحرام كما فى الصلاة

الوسطى أو يكون سنة لم يعلمها ابن خزيمة أو يكون الشافعي قال ذلك على سبيل الفرض والتقدير * وأما ماقام الدليل عند الشافعي على طعن فيها أو نسخها أو تخصيصها أو تأويلها أو نحو ذلك فليس الكلام فيه وليس هذا تركا لها وانما الترك للحديث أن لا يعمل به أصلا كما يقوله من يترك الحديث لعمل أهل المدينة أو للقياس أو لعدم فقه الراوى أو لعمله أو عمل صحابي بخلافه ونحو ذلك هذا هو الترك * وأما الطعن فى اسناد الحديث أو بسبب علة أو شذوذ فذلك يمنع من الحكم بصحة الحديث وكلامنا انما هو اذا صح الحديث والنسخ ليس تركا فالنسخ قد يوجد فى القرآن والتخصيص ليس تركا بل جمع بينه وبين العام * وقد تكلم الشافعي فى الاحاديث المختلفات والجمع بينها فى كتاب اختلاف الحديث أحسن كلام وكذلك العلماء كلهم فهذا ليس هو المراد هنا وانما المراد الترك المطلق ولم يقع ذلك للشافعي أصلا ولا تقتضيه أصوله وقد تكلم الاصوليون فى العمل بالعام قبل طلب المخصص والذي أقوله ان المبادرة الى امتثال الامر مطلوبة كمن سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم لارخصة له فى تركه * والمبادرة الى طلب وجوه التأويل والتخصيص والتقييد وعدم النسخ مطلوبة فلا رخصة فى ارتكاب الهوينا بل عليه المبادرة ويمهل بقدر ماينظر غير مهمل ولا مؤخر عن الوقت الذي يتعين فيه العمل والا فينقضى العمر ولا يعمل والمكلف بذلك كل من هو من أهل الفهم بحسب ماتصل اليه قدرته من العلم والمبالغة في الطلب واشتراط رتبة الاجتهاد الكامل والتوقف عن العمل حتى يحصل الى أقصى غاية ليس مما يقتضيه سير السلف رضى الله عنهم * واذا كان لابد من العمل فالعمل بما اقتضاه الحديث أولى من العمل بما اقتضاه كلام صاحب المهذب الذى يقلده اذا كان المقلد من أهل الفهم * أما العامى فلا كلام معه الا أن يقال له هذا حكم الله أو هذا مذهب فلان * وقال الربيع قال الشافعي قد أعطيتك جملة تغيك ان شاء الله لاتدع لرسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا أبدا الا أن يأتي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلافه فتعمل بماقلت لك فى الاحاديث اذا اختلفت * قال أبو ثور سمعت الشافعي رضى الله عنه يقول كل حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو قولى وان لم تسمعوه منى

وقال الزعفراني كنا ولو قيل لنا سفيان عن منصور عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قلنا هذا مأخوذ هذا غير مأخوذ حتى قدم علينا الشافعي فقال لنا ماهذا اذا صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مأخوذ لا يترك لقول غيره * وقال الاثرم كنا عند البويطي فذكرت حديث عمار في التيمم فأخذ السكين وحته من كتابه وصيره ضربة وقال هكذا أوصى صاحبنا اذا صح عندكم الخبر فهو قولي * حكى ذلك أبو شامة في كتابه المؤمل في الرد الى الامر الاول *

(فصل) قال معن سمعت مالكا يقول انما أنا بشر أخطىء وأصيب فانظروا فى رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به وما لم يوافقهما فاتركوه قال نعيم بن حماد سمعت أبا عصمة يقول سمعت أبا حنيفة يقول ماجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين وما جاء عن أصحابه اخترنا وما كان غير ذلك فهم رجال ونحن رجال * وقال نعيم سمعت ابن المبارك يقول سمعت أباحنيفة يقول اذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين واذا جاء عن الصحابة اخترنا واذا جاء عن التابعين زاحمناهم * قال الثوري لما بلغه ذلك عن أبي حنيفة منهم رأينا كرأيهم كأنه سوى بين التابعين والصحابة فى انهم اذا أجمعوا فى مسألة على قولين مثلا لم يجز لنا احداث قول ثالث * وجوز أبو حنيفة ذلك وهذه مسألة خلافية بين الاصوليين وهذا الكلام عن مالك وابى حنيفة رضى الله عنهم يقرب من كلام الشافعي ولكن ليس فيه تعليق القول بمقتضى كل حديث على صحته كما فعله الشافعي رضى الله عنه وانما قال مالك ان رأيه ينظر فيه فما وافق الكتاب والسنة يؤخذ به وما لم يوافقها يترك ولا شك فى ذلك عند كل امام وامتاز الشافعي بزيادة وهو ان قوله هو الحديث ففى كلام مالك زيادة على كلام ابى حنيفة بالامر بالترك وفى كلام الشافعي زيادة على كلام مالك بالقول به وأنه هو مذهب فيقلده فيه من يسوغ تقليده له ويريده وكلهم مشتركون فى أنه متى جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث ثابت فواجب المصير اليه * قال مجاهد والشعبي والحكم ومالك ليس من أحد ألا يؤخذ من قوله ويترك الا النبي صلى الله عليه وسلم *

﴿فصل﴾ قال أبو شامة رحمه الله تلميذ ابن الصلاح وشيخ النووى وهو من المبالغين فى اتباع الحديث ان الشافعي بنى مذهبه بناء محكما على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والنظر الصحيح الراجع اليهما الا أنى ليس بمعصوم من النسيان فاحالنا بصريح قوله على أن ما صح عن النبي صلي الله عليه وسلم هو قوله وجميع ذلك مذهبه منه ماهو منصوص له وصحح الاصحاب خلافه لنص آخر له كصوم الولى عن الميت أو يكون النص لا خلاف عنه فيه لكنه على مخالفة حديث ثابت كاختياره قول المأموم سمع الله لمن حمده كالامام قلت لا مخالفة فى ذلك * قال أو يكون علق قوله على ثبوت الحديث فوجد ثابتا كاخراج الاقط فى الفطرة أو دل عليه حديث آخر ثابت أو يكون الشافعي تمسك فى الباب بحديث وفى الباب حديث أثبت منه كحديث التيمم ضربة يمسح بها وجهه وكفيه أو يكون الحديث دل على حكم فى مسألة لم يعلم فيها نص للشافعي بنفى ولا اثبات كرفع اليدين عند القيام من التشهد أو يكون تمسك بظاهر حديث ودل الدليل على أن ذلك ليس على ظاهره كالزام من يفرق زكاة نفسه بالاصناف الثمانية أو من قدر عليه منهم وكنقض الطهارة بمس الفرج فللنظر فيه مجال فلا نقوله ما لم يقل لكن ننبه على الدليل المقتضى خلافه ونرجح وكل ماصح عن الرسول صلى الله عليه وسلم ودل على حكم لا نص للشافعي على خلافه فهو مذهبه لا شك فيه أخذا من قوله ومما أمر به أما ماله نص على خلافه فقسمان أحدهما ما لم يكن بلغه فيه الحديث فهذا كالقسم الاول يترك نصه ويصار الى الحديث وهو مذهبه هذا اذا وضحت دلالة الحديث على ذلك الحكم أما اذا خفيت وأمكن الجمع وتنزيل الحديث على قوله فلا والثانى ان يكون قد بلغه الحديث وعرف ثبوته وأوله وتكلم عليه فينظر فى كلامه فان كان ظاهرا متوجها لادفع له لم يخالف وحمل الحديث على ما حمله هو عليه كاختياره الجهر بالبسملة وتأويله لحديث أنس رضى الله عنه الظاهر الدلالة علي نفى الجهر ومن ذلك افطار الصائم بالحجامة فانه لم يره وقال حديث أفطر الحاجم والمحجوم منسوخ وان كان لكلامه مدفع صير الى الحديث لان ذلك يتناوله قوله ودعوا ما قلت كما فى التيمم الى المرفقين ولا

يتأتى النهوض بهذا الامن عالم معلوم الاجتهاد وهو الذي خاطبه الشافعي بقوله اذا وجدتم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على خلاف قولي فخذوا به ودعوا ما قلت وليس هذا لكل أحد فكم في السنة من حديث صحيح العمل على خلافه إما اجماعا واما اختيارا لمانع منع نحو كان الثلاث واحدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر * صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعا جميعا وثمانيا جميعا في غير خوف ولا مطر * غسل الجمعة واجب على كل محتلم * فالامر في ذلك ليس بالسهل * قال ابن عيينة الحديث مضلة الا للفقهاء قلت لسنا نوافق ابن عيينة ولا ابا شامة على ذلك وليس في الاحاديث الصحيحة ما أجمع العلماء على تركه وحديث كان الثلاث واحدة مؤول وكذلك صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعا جميعا وثمانيا جميعا وليس هذا موضع تأويلها لاجل الطول وغسل الجمعة واجب معناه متأكد ولم يجمعوا على عدم الوجوب ومما قاله أبو شامة ان الله يسر وله الحمد الوقوف على ما ثبت من الاحاديث وتجنب ما ضعف منها مما جمعه الحفاظ كالصحيحين والمستدرك عليهما وابن خزيمة والترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والدارقطني والبيهقي فلا عذر في ترك الاشتغال بها وكذلك المسائل المثبتة الفقهية المبنية على اللغة كل ذلك الى علماء اللسان فالتوصل الى الاجتهاد ميسور وأسهل منه قبل اليوم لولا قلة همم المتأخرين وعدم المتبرين ومن أكبر أسبابه تعصبهم وتقيدهم برفق الوقوف * قلت وتضييع كثير من زمانهم بالتوسع في علوم غير علوم الشريعة أو في علوم الشريعة بالجدل والتعمق في التفريعات الدقيقة فيشغلهم ذلك عن فهم نفس الشريعة والاطلاع على قواعدها الكلية وأسرارها التي هي أكثر نفعا وبذلك وصل المتقدمون الى الاجتهاد وبتركه حرمه المتأخرون *

(فصل) قال الشيخ شهاب الدين أحمد بن ادريس القرافي المالكي رحمه الله في كتابه التنقيح وشرحه * ومما شنع على مالك رضي الله عنه رده لحديث بيع الخيار مع روايته له وهو مهيع متسع ومسلك غير ممتنع فلا نجد عالما الاوقد خالف من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أدلة كثيرة * ولكن لمعارض

راجح عليها عند مخالفها * وكذلك رحمه الله ترك هـذا الحديث لمعارض راجح عنده وهو عمل أهل المدينة * فليس هذا بابا اخترعه ولا بدعا اقترعه * ومن هذا الباب ما يروى عن الشافعي رضى الله عنه أنه قال اذا صح الحديث فهو مذهبي أو فاضربوا بمذهبي عرض الحائط فان كان مراده مع عدم المعارض فهومذهب العلماء كافة وليس خاصا به وان كان مع وجود المعارض فهو خلاف الاجماع فليس هذا القول خاصا به كما ظنه بعضهم هذا كلامه في التنقيح وقال فى شرحه كثيرمن فقهاء الشافعية يعتمدون على هذا ويقولون مذهب الشافعي كذا لان الحديث صح فيه وهو غلط لانه لابد من انتفاء المعارض والعلم بعدم المعارض يتوقف على من له أهلية استقراء الشريعة حتي يحسن أن يقال المعارض لهذا الحديث * أما استقراء غير المجتهد المطلق فلا عبرة به فهذا القائل من الشافعية ينبغي أن يحصل لنفسه أهلية الاستقراء قبل أن يصرح بهذه الفتيا لـكنه ليس كذلك فهم مخطئون في هـذا القول انتهى كلام القرافى رحمه الله تعالى * ومثل هذا الـكلام الذى قاله القرافى قاله جماعة غيره وسير الىَّ ابنى أبو حامد بارك الله فيه يسألنى عنـه فقلت هيهات ولنا كلامان أحدهما مختصر مع كل من يقول مثل هذا الـكلام * وهو منع ماقاله فى طرفى الترديد الذى ذكره فان قوله ان كان مراده مع عدم المعارض فهو مذهب العلماء كافة وليس خاصا به ممنوع لان المعلوم من مذهب العلماء كافة اتباعهم للحديث رضى الله عنهم فانهم اذا بلغهم حديث لامعارض له قالوا به واذا لم يبلغهم هم فى أوسع العذر فهم مشتركون فى ذلك مع الشافعي ويمتـاز الشافعي بانه عاق القول به على صحته * فاذا صح كان قائلا به وجازت نسبته اليه بخلاف غيره لايجوز أن ينسب اليه انه قاله ولـكن لو اطلع عليه لقال به وشتان بين المقامين * وقوله وان كان مع وجود المعارض فهو خلاف الاجماع ان أراد مع وجود المعارض عنده فليس خلاف الاجماع لما سنبين ان مالـكا وأبا حنيفة وغيرهما قالوا بمعارضته بأمور لا يوافقهم عليها الشافعي وان أراد مع وجود معارض مجمع على انه معارض فسنبين ان هـذا القسم مستحيل وانه ليس فى الاحاديث الصحيحة حديث أجمع العلماء على أنه معارض فهذا القسم منتف لانتفاء المعارض وبذلك يتبين ان كلا من طرفى الترديد ممنوع *

الكلام الثانى مبسوط نشرح فيه ماأشرنا اليه فى أول الكلام الاول فنقول فى كلام الشافعى هذا فوائدقدامتاز بها . احداها الفائدة التى قدمناهامن جواز نسبته اليه وفيها ثلاثة أشياء أحدهامجرد جواز نقله عنه والثانى انه اذاأراد أحد تقليده فيه جاز له ذلك اذا كان ممن يجوزله التقليدوالثالث اذا كان العلماء كلهم الا الشافعى على مقتضى حديث والشافعى بخلافه لعدم اطلاعه فاذا صح صارت المسئلة اجماعية لانه لم يكن خالف فيها الشافعى ويبين بالحديث ان قوله مرجوع فيه اولا حقيقة له فلا ينسب اليه بل ينسب اليه خلافه موافقة لبقية العلماء فيكون اجماعا فينقض قضاء القاضى بخلافه لمخالفة النص والاجماع ولو اتفق ذلك لغير الشافعى ممن لم يقل مثل قوله كان نقض قضاء القاضى به لمخالفته النص فقط لا لمخالفته الاجماع فهذه أشياء فى هذه الفائدة الواحدة ولاامتناع من تعليق القول بصحة الحديث مجملا ومفصلا فالمفصل مثل قوله فى حديث بروع ان صح قلت به والمجمل مثل قوله اذا صح الحديث فهو مذهبي وكما يصح الايمان بكل ما أنزل الله جملة كذلك يصح القول بكل ماقاله رسول الله صلى الله عليه وسلم جملة فهذه فائدة قول الشافعى اذا صح الحديث فهو مذهبي اذا لم يكن معارض ولا يقدر أحد أن ينسب هذا الى أحد من العلماء غيره وان كنا نعتقد فيهم أنهم لو اطلعوا عليه لقالوا به ولكن المعلق بالوعدعدم عند عدمه وهو معدوم والمعلق باذا وجودعند وجوده وهو موجود * واعلم ان فى قول الشافعى اذا صح الحديث فهو مذهبي ثلاثة الفاظ أحدها اذا وهى وان كانت مطلقة الا أن المراد بها العموم فيصح فيها على كل الاحوال وسنبين صحة العموم فى ذلك وانه لامعارض له أصلا *والثانى صحة الحديث وعموم الالف واللام فيه سواء كان حجازيا أم كوفيا أم بصريا أم شاميا كما أشار اليه الشافعى فى كلامه لأحمد لأن من الناس من لايأخذ باحاديث العراق * الثالث قوله فهو مذهبي ودلالته على قوله به ويدل له ماقدمناه من رواية الربيع عليه من قوله فخذوا بها ودعوا قولى فانى اقول بها فانظر تصريحه بقوله بها واذنه فى الاخذ بها ولم يوجد ذلك لأمام غيره * الفائدة الثانية ان الاحاديث الصحيحة ليس فيها شىء له معارض متفق عليه والذى يقوله الأصوليون من ان خبر الواحد اذا عارضه خبر

متواتر اوقرآن او اجماع او عقل انما هو فرض وليس شيء من ذلك واقعا ومن ادعى ذلك فليبينه حتى نرد عليه وكذلك لا يوجد خبران صحيحان من أخبار الآحاد متعارضان بحيث لايمكن الجمع بينهما والشافعي قد استقرأ الاحاديث وعرف ان الامر كذلك وصرح به في غير موضع من كلامه فلم يكن عنده مايتوقف عليه العمل بالحديث الا صحته فمتى صح وجب العمل به لانه لامعارض له فهذا بيان للواقع والذى يقوله الاصوليون مفروض وليس بواقع وهذه فائدة عظيمة واليها الأشارة بقوله اذا صح حيث اطلقه ولم يجعل معه شرطا آخر * الفائدة الثالثة ان العلماء رضوان الله عليهم لكل منهم اصول وقواعد بنى مذهبه عليها لاجلها رد بعض الأحاديث كما سنبين ذلك من مذهب مالك فى عمل أهل المدينة وغيره ومنه مذهب ابى حنيفة فى عدة مسائل واما الشافعى فليس له قاعدة يرد بها الحديث فمتى صح الحديث قال به والمعارض الذي لو وقع كان معارضا عنده وعند غيره هو المعقول او الاجماع او القرآن او السنة المتواترة لم يقع أصلا وقد صان الله شريعته عن ذلك فكان فى قول الشافعى اذا صح الحديث فهو مذهبي اشارة الى ذلك * الفائدة الرابعة فى عموم الألف واللام من قوله الحديث سواء كان حجازيا أم عراقيا ام شاميا خلافا لمن لم يقبل الا احاديث الحجاز كما اشار الي ذلك فى قوله الذى حكيناه فهذه اربع فوائد فى الفائدة الأولى ثلاثة اشياء فصارت ستة لم توجد فى كلام بقية الأئمة وها نحن نبين من كلام العلماء وقول الحنفية والمالكية مانبين ان عندهم معارضات يرد بها الحديث الصحيح ليست عند الشافعى وليس عند الشافعى معارض لم يقولوا هم به بل لامعارض واقع عنده اصلا فلنذكر كلام الائمة من الحنفية والمالكية ليتبين به ذلك ونكتفى بكلام الائمة من المذهبين عن كلام من وافقهم من بقية العلماء رضى الله عن الجميع فكلهم قصد الخير والأجر وبذل الجهد والوسع اما الحنفية رضى الله عنهم فنقول *

(فصل) من كلام الائمة الحنفية وهو مذهبهم نقلته من كتاب التحقيق فى اصول الفقه لعبد العزيز شرح الأخشيكثى واختصرت منه * خبر الواحد وجوب العمل به متعلق بشروط ثمانية الأول ان لا يكون مخالفا للكتاب قال الشارح ان

ورد مخالفا لنص الكتاب ان أمكن تأويله من غير تعسف يقبل وان لم يمكن تاويله الا بتعسف لم يقبل بلا خلاف * قال على السبكي (هو المصنف رحمه الله) هذا فرض ولكنه ليس بواقع والله اعلم * قالوا فان خالف خبر الواحد عموم الكتاب او ظاهره فكذلك عندنا حتى لا يجوز تخصيص العموم وعلى الظاهر على المجازية قال على السبكي بل يجوز ومحل تقرير ذلك اصول الفقه والله اعلم * قالوا وعند الشافعي وعامة الأصوليين يجوز تخصيص الأصول به ويثبت التعارض بينه وبين ظاهر الكتاب بناء على انها لا توجب اليقين عندهم * قال على اما جواز التخصيص فهو الحق ونحن لا نسميه معارضا ومن سماه فعلى سبيل المجاز وانما هو بيان واليقين مع الظهور محال والله اعلم قالوا وعند العراقيين من مشايخنا والقاضي ابى زيد ومن تابعه فى افادتها اليقين لا يجوز تخصيصها بمعارضتها به اما عند من جعلها ظنية من مشايخنا كابى منصور ومن تابعه من مشايخ سمرقند فيحتمل ان يجوز تخصيصها والاصح لا يجوز عندهم ايضا لأن الاحتمال فى خبر الواحد فوق الاحتمال في العام والظاهر * قال على السبكي لكن فيه ابطال دليل كامل والتخصيص انما فيه مخالفة ذلك القدر الزائد من الظهور والله اعلم * قالوا مسألة حديث مس الذكر مخالف للكتاب لأن الله مدح المتطهرين بالماء بقوله عز اسمه (يحبون ان يتطهروا) والاستنجاء بالماء لا يتصور الا بمس الفرجين وثبت بالنص انه من التطهير فلو جعل المس حدثا لم يكن الاستنجاء تطهيرا * قال على السبكى مثل هذا الكلام لا يرد عليه لعلم كل أحد بضعفه والله اعلم * قالوا ومثل قوله عليه الصلاة والسلام الحرم لا يعيذ عاصيا يخالف (ومن دخله كان آمنا) وقوله صلى الله عليه وسلم لا صلاة الا بفاتحة الكتاب يخالف (فاقرؤوا ماتيسر منه) (أى من القرآن) وحديث التسمية فى الوضوء يخالف فاغسلوا ايديكم الآيه قال على السبكي لا مخالفة فى ذلك وبتقدير تسليم المخالفة هى مخصصة والله أعلم قالوا الثانى أن لا يخالف السنة المشهورة فلا يترك الاقوى بالاضعف * قال على السبكي ليس لنا خبران صحيحان متعارضان بحيث يكون العمل بأحدهما الغاء للآخر من كل وجه لا مشهور ولا غير مشهور ومن ادعى فليبرزه حتى نحاوره والله أعلم * قالوا وحديث قضى بشاهد ويمين يخالف قوله البينة على المدعى واليمين على من أنكر

قالوا والمخالفة من وجهين أحدهما الشرع جعل الايمان كلها فى جانب المنكر والثانى ان الشرع جعل الخصوم قسمين مدعيا ومنكراً والحجة قسمين بينة ويمينا والبينة على المدعي واليمين على المنكر والعمل بالشاهد واليمين يوجب ترك هذا » قال على السبكي الـكلام فى ذلك ليس هذا موضعه والمقصود انهم يتركون الحديث لمعارض بلا تخصيص ولا تأويل وهو الذى خالفهم الشافعي فيه ودعوى كون البينة على المدعى واليمين على من أنكر أشهر من القضاء بالشاهد واليمين ممنوعة والله أعـلم * قالوا وثالثها أن لا يكون فى حادثة تعم بها البلوى وهذا مختار الكرخى وجميع المتأخرين وهو ماروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجهر بالبسملة وحديث مس الذكر الذى يرويه صح ومذهب الشافعي وجميع أصحاب الحديث يقبل اذا صح سنده * قال على السبكي هذا وأمثاله الذى تميز به الشافعي والله أعلم ولا يجب اذا كان مما تعم به البلوى أن يرد فيه خبر متواتر ولا مشهور بل يكفي أن يكون صحيحا والله أعلم قالوا ورابعها أن متروك الحاجة به عند ظهور الاختلاف مثاله عن زيد بن ثابت عن النبي صلي الله وسلم أنه قال الطلاق بالرجال فان الصحابة اختلفوا ذهب عمر وعثمان وزيد وعائشة رضى الله عنهم الى أن الطلاق معتبر بحال الرجال فى الرق والحرية كما هو قول الشافعي وذهب على وابن مسعود الى أنه يعتبر بحال المرأة كما هو مذهبهم وعن ابن عمر أنه يعتـبر بمن رق منهما حتي لا يملك الزوج عليها ثلاث طلقات الا اذا كانا حرين ثم أنهم تكلموا فى هذه المسألة بالرأى وأعرضوا عن الاحتجاج بهذا الحديث ورواية فيهم فدل علي أنه غير ثابت أو منسوخ وان ثبت فهو مؤول بان يقال ان ايقاع الطـلاق الى الرجال * قال على السبكى ان صح الحديث فالواجب تأويله ولا نقول انه متروك وأيضا من أين يثبت لنا انهم انما تكلموا بالرأى * ثم ذكروا الاربعة الاخرى التى ترجع الى حال الراوي لاحاجة بنا الى ذكرها والله أعلم * قالوا ويسقط العمل بالحديث اذا ظهرت مخالفته قولا وعملا من الراوي أو من غيره من أئمة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على تفصيل ذكروه وهو أن المخالفة ان كانت قبل الرواية وقبل بلوغه اياه لم يوجب جرحا فى الحديث لان الظاهر أن ذلك كان مذهبه وانه تركه للحديث وكذا ان لم

يعرف التاريخ لان الحديث حجة بيقين فى الاصل وشك فى سقوطه فوجب العمل بالاصل حملا على أحسن الوجوه واحسانا للظن وكذا ان كان بعد الرواية ولم يكن خلافا بيقين فان كان اللفظ عاما يعمل بخصوصه دون عمومه وان كان مشتركا أو بمعنى المشترك يعمل بأحد وجوهه لان ظاهر الحديث احتماله للمعانى لغة لاتتغير بتأويله وعمله وتأويله لايكون حجة وان كان بعد الرواية أو بعد بلوغه اياه وهو خلاف بيقين أى لا يحتمل أن يكون مرادا من الخبر فذلك يوجب جرحا فى الحديث لان خلافه ان كان لانه منسوخ أو غير ثابت بطل الاحتجاج به وان كان لقلة مبالاته سقطت روايته لانه لا يصير فاسقا ولا يقال انما صار فاسقا بالخلاف لانا نقول الحديث وصل الينا منه فاذا ثبت فسقه لم يقبل بخلاف ما اذا روى ثم مات أو جن لان الحياة والعقل كانا ثابتين بيقين والعدالة ليست كذلك ومثاله حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى الغسل من الولوغ سبعا وكان يغسل ثلاثاً وحديث عائشة رضى الله عنها أيما امرأة نكحت بغير اذن وليها فنكاحها باطل وصح انها زوجت حفصة بنت أخيها عبد الرحمن المنذر بن الزبير حين كان أخوها عبد الرحمن غائبا واذا انعقد بعبارة غير المزوجة من النساء فبعبارتها أولى وأما اذا خالف غير الراوى وغير أئمة الصحابة فلا يضر الا اذا طعن بما يوجب الجرح بالاتفاق ممن هو معروف بالعدالة والنصيحة والاتقان فيقبل وهذا كله اذا كان الحديث ظاهرا فان كان مما يخفى على المخالف كالترخيص للحائض فى ترك طواف الصدر وصح عن ابن عمر رضى الله عنهما انها تقيم حتى تطهر فتطوف لانه قد يكون خفى عليه وحديث البكر بالبكر جلد مائة وتغريب علم والثيب بالثيب جلد مائة والرجم من حديث عبادة وصح عن الخلفاء انهم لم يجمعوا بين الجلد والرجم فعرفنا انه انتسخ وصح عن عمر رضى الله عنه انه قال والله لاأنفى أبداً بعد ما نفى رجلا فلحق بالروم مرتدا * قال على السبكى ملتلخص من هذا فى القسم الذى يقولون بترك الحديث نحن لانوافقهم فيه ولا يلزم فسق الراوى ولا بطلان الاحتجاج لاحتمال أن يخالف لما ظنه دليلا وليس بدليل عندنا وكل أحد مكلف بظنه وما يعتقده دليلا واذا كان الراوى من

غير الصحابة وقد خالف فاطلاقهم وما سبق من كلام الحنفية يقتضى جريان الخلاف فيه وقال القرافى عندى ينبغى أن يخصص ببعض الرواة فيحمل علي الراوى المباشر للنقل عن رسول الله صلي الله عليه وسلم حتى يحسن أن يقال هو أعلم بمراد المتكلم أما مثل مالك ومخالفته لحديث بيع الخيار الذى رواه وغيره من الاحاديث فلا يندرج فى هذه المسألة وهذا الذى قاله القرافى فى كلام الحنفية الذى قدمناه يخالفه وقد عللوا بما لم يعلل به فالحاصل ان الراوى متى خالف اقتضى عند الحنفيـة رد الحديث سواء كان الراوى صحابيا أو غير صحابى ومخالفة غير الراوى لاتوجب رد الحديث عند الحنفية الا اذا كان صحابيا فتوجب رده مطلقا أو كان غير صحابي ورده بما يقتضى الجرح على ماسبق *

﴿ فصل ﴾ وأما المالـكية فقالوا بتقديم عمل أهل المدينة على الحديث فردوا حديث « المتبايعان بالخيار » وبذلك لم يوافقهم على هذا أحد غيرهم واشترط مالك رحمه الله فقه الراوى مطلقا واشترط أبو حنيفة فيما يخالف القياس وقاله بعض الحنفية مطلقا كما قاله مالك ومثله الحنفية بحديث المصراة فردوه لزعمهم انه مخالف للقياس ولانه من قول أبى هريرة وزعمهم ان أبا هريرة ليس بفقيه وهو كلام تقشعر منـه الجلود وأبو هريرة فقيه كبير وليس هذا موضع الـكلام على هذا وانما المقصود ان لـكل واحد من الائمة أصولا اقتضت له رد الاحاديث والشافعى ليس له كثير شيء من ذلك وقالت المالـكية بقبول خبر الواحد وان كان مما تعم به البلوي كما قلنا نحن به وبان مخالفة الراوى لاتقدح فيه كما قلنا نحن به *

﴿ فصل ﴾ وقال آخرون اجماع أهل الـكوفة حجـة فعلى مقتضاه يرد من الاحاديث ماخالفهم *

﴿ فصل ﴾ قد بان بما ذكرناه امتياز الشافعى بقوله اذا صح الحديث فهو مذهبى وما وافقه من كلامه الذى هذا معناه وانه أمر ذخره الله وخصه به فلم يبلغنا ذلك عن غيره من الائمة وان كان كلهم قائلا بالحديث غير خارج عنه ورضى الله عن الجميع والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين تمت الرسالة والحمد لله

الرسالة السابعة

﴿ خلاف الامة في العبادات ومذهب اهل السنة والجماعة ﴾

(لشيخ الاسلام وعلم الاعلام الامام تقي الدين
احمد بن تيمية رضى الله عنه المتوفي سنة ٧٢٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قاعدة ﴾

في صفات العبادات الظاهرة التي حصل فيها تنازع بين الامة في الرواية والرأى مثل الاذان والجهر بالبسملة والقنوت في الفجر والتسليم في الصلاة ورفع الايدى فيها ووضع الاكف فوق الاكف ومثل التمتع والافراد والقران في الحج ونحو ذلك فان التنازع في هذه العبادات الظاهرة والشعائر أوجب أنواعا من الفساد الذى يكرهه الله ورسوله وعباده المؤمنون *

(أحدها) جهل كثير من الناس أو اكثرهم بالامر المشروع المسنون الذي يحبه الله ورسوله والذى سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته والذى أمرهم باتباعه

(الثاني) ظلم كثير من الأمة أو اكثرهم بعضهم لبعض وبغيهم عليهم تارة بنهيهم عما لم ينه الله عنه وبغضهم على من لم يبغضهم الله عليه وتارة بترك ماأوجب الله من حقوقهم وصلتهم لعدم موافقتهم له على الوجه الذى يؤثرونه حتى يقدمون في الموالاة والمحبة واعطاء الاموال والولايات من يكون مؤخرا عند الله ورسوله ويتركون من يكون مقدما عند الله ورسوله لذلك *

(الثالث) اتباع الظن وما تهوى الانفس حتى يصير كثير منهم مدينا باتباع الاهواء في هذه الامور المشروعة وحتى يصير في كثير من المتفقهة والمتعبدة من الاهواء من جنس ما في أهل الاهواء الخارجين عن أهل السنة والجماعة كالخوارج

والروافض والمعتزلة ونحوهم وقد قال تعالى في كتابه (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب)[1] وقال فى كتابه[2] (لاتتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل) *

(الرابع) التفرق والاختلاف المخالف للاجتماع والائتلاف حتى يصير بعضهم يبغض بعضا ويعاديه ويحب بعضا ويواليه على غير ذات الله وحتى يفضى الامر ببعضهم الى الطعن واللعن والهمز واللمز وببعضهم الى الاقتتال بالايدى والسلاح وببعضهم الى المهاجرة والمقاطعة حتى لايصلى بعضهم خلف بعض وهذا كله من أعظم الامور التى حرمها الله ورسوله والاجتماع والائتلاف من اعظم الامور التى أوجبها الله ورسوله قال الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن الا وانتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)[3] الى قوله (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم * يوم تبيض وجوه وتسود وجوه)[4] قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وكثير من هؤلاء يصير من أهل البدعة بخروجه عن السنة التى شرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته ومن أهل الفرقة بالفرقة المخالفة للجماعة التى أمر الله بها رسوله وقال تعالى (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء)[5] وقال تعالى (وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات)[6] وقال تعالى (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءتهم البينة * وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة)[7] وقال تعالى (ان الدين عند الله الاسلام * وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم)[8] وقال تعالى[9] (وآتيناهم بينات من الامر فما اختلفوا الا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم)[10] وقال تعالى (فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة) وقال تعالى (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم)[11] وقال (انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم)[12] وقال (الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس)[13] وهذا

١ - ص ٢٦
٢ - المائدة ٧٧
٣ - آل عمران ١٠٢ - ١٠٣
٤ - آل عمران ١٠٥ - ١٠٦
٥ - الأنعام ١٥٩
٦ - البقرة ٢١٣
٧ - البينة ٤ - ٥
٨ - آل عمران ١٩
٩ - الجاثية ١٧
١٠ - يونس ٩٣
١١ - الأنفال ١
١٢ - الحجرات ١٠
١٣ - النساء ١١٤

الاصل العظيم وهو الاعتصام بحبل الله جميعا وان لا يتفرق هو من أعظم أصول الاسلام ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم ومما عظمت به وصية النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن عامة وخاصة مثل قوله « عليكم بالجماعة فان يد الله على الجماعة » وقوله « فان الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد » وقوله « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه فان من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه » وقوله « ألا أنبئكم بافضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ » قالوا بلى يارسول الله قال « صلاح ذات البين فان فساد ذات البين هى الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين » وقوله « من جاءكم و أمركم على رجل واحد منكم يريد ان يفرق جماعتكم فاضربوا عنقه بالسيف كائنا من كان » وقوله « يصلون لكم فان أصابوا فلكم وان اخطئوا فلكم وعليهم » وقوله « ستفترق هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة منها واحدة ناجية واثنتان وسبعون فى النار ـ قيل ومن الفرقة الناجية قال ـ هى الجماعة يد الله على الجماعة » وباب الفساد الذي وقع في هذه الامة بل وفى غيرها هو التفرق و الاختلاف فانه وقع بين أمرائها وعلمائها من ملوكها ومشايخها وغيرهم من ذلك ما الله به عليم وان كان بعض ذلك مغفورا لصاحبه لاجتهاده الذى يغفر فيه خطؤه أو لحسناته الماحية أو توبته أو لغير ذلك لكن يعلم ان رعايته من أعظم أصول الاسلام ولهذا كان امتياز أهل النجاة عن أهل العذاب من هذه الامة بالسنة والجماعة ويذكرون فى كثير من السنن والآثار في ذلك ما يطول ذكره وكان الاصل الثالث بعد الكتاب والسنة الذى يجب تقديم العمل به هو الاجماع فان الله لا يجمع هذه الامة على ضلالة *

(النوع الخامس) هو شك كثير من الناس وطعنهم فى كثير مما أهل السنة والجماعة عليه متفقون بل وفى بعض ما عليه أهل الاسلام بل وبعض ما عليه سائر أهل الملل متفقون وذلك من جهة نقلهم وروايتهم تارة ومن جهة تنازعهم ورأيهم أخرى أما الاول فقد علم الله الذكر الذى أنزله على رسوله وأمر أزواج نبيه بذكره حيث يقول (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة)[1]

١ ـ الأحزاب ٣٤

حفظه من ان يقع فيه من التحريف ما وقع فيما أنزل قبله كما عصم هذه الامة أن تجتمع علي ضلالة فعصم حروف التنزيل ان يغير وحفظ تأويله ان يضل فيه أهل الهدى المتمسكون بالسنة والجماعة وحفظ أيضا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما ليس فيها من الكذب عمدا أو خطأ بما أقامه من علماء أهل الحديث وحفاظه الذين فحصوا عنها وعن نقلتها ورواتها وعلموا من ذلك ما لا يعلم غيرهم حتى صاروا مجتمعين على ما تلقوه بالقبول منها اجماعا معصوما من الخطأ لاسباب يطول وصفها فى هذا الموضع وعلموا هم خصوصا وسائر علماء الامة بل وعامتها عموما ما صانوا به الدين عن ان يزاد فيه أو ينقص منه مثلما علموا أنه لم يفرض عليهم فى اليوم والليلة الا الصلوات الخمس وأن مقادير ركعاتها ما بين الثنائي والثلاثى والرباعى وأنه لم يفرض عليهم من الصوم الا شهر رمضان ومن الحج الا حج البيت العتيق ومن الزكاة الا فرائضها المعروفة الى نحو ذلك وعلموا كذب أهل الجهل والضلالة فيما قد يأثرونه عن النبي صلى الله عليه وسلم لعلمهم بكذب من يزعم من الرافضة ان النبي صلى الله عليه وسلم نص على علي بالخلافة نصا قاطعا جليا وزعم آخرين انه نص على العباس وعلموا أكاذيب الرافضة والناصبة التي يأثرونها فى مثل الغزوات التي يروونها عن علي وليس لها حقيقة كما يرويها المكذبون الطرقية مثل أكاذيبهم الزائدة فى سيرة عنترة والبطال حيث علموا مجموع مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وان القتال فيها كان فى تسعة مغاز فقط ولم يكن عدة المسلمين ولا العدو فى شيء من مغازى القتال عشرين الفا ومثل الفضائل المروية ليزيد بن معاوية ونحوه والاحاديث التى يرويها كثير من الكرامية فى الارجاء ونحوه والاحاديث التى يرويها كثير من النساك فى صلوات أيام الاسبوع وفى صلوات أيام الاشهر الثلاثة والاحاديث التى يروونها فى استماع النبى صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه وتواجده وسقوط البردة عن ردائه وتمزيقه الثوب وأخذ جبريل لبعضه وصعوده به الى السماء وقتال أهل الصفة مع الكفار واستماعهم لمناجاته ليلة الاسراء والاحاديث المأثورة فى نزول الرب الى الارض يوم عرفة وصبيحة مزدلفة ورؤية النبى صلى الله عليه وسلم له في الارض بعين رأسه وأمثال هذه الاحاديث المكذوبة التى يطول

وصفها فان المكذوب من ذلك لايحصيه أحد الا الله تعالى لان الكذب يحدث شيئا فشيئا ليس بمنزلة الصدق الموروث عن النبى صلى الله عليه وسلم الذى لايحدث بعده وانما يكون موجودا فى زمنه صلى الله عليه وسلم وهو محفوظ محروس بنقل خلفاء الرسول وورثة الانبياء وكان من الدلائل على انتفاء هذه الامور المكذوبة وغيرها وجوه (١)*

(أحدها) ان ماتوفرت همم الخلق ودواعيهم على نقله واشاعته يمتنع فى العادة كتمانه فانفراد العدد القليل به يدل على كذبهم كما يعلم كذب من خرج يوم الجمعة وأخبر بحادثة كبيرة فى الجامع مثل سقوط الخطيب وقتله وامساك أقوام فى المسجد اذا لم يخبر بذلك الا الواحد والاثنان ويعلم كذب من أخبر أن فى الطرقات بلادا عظيمة وأمما كثيرين ولم يخبر بذلك السيارة وانما انفرد به الواحد والاثنان ويعلم كذب من أخبر بمعادن ذهب وفضة متيسرة لمن أرادها بمكان يعلمه الناس ولم يخبر بذلك الا الواحد والاثنان وأمثال ذلك كثيرة فباعتبار العقل وقياسه وضربه الامثال يعلم كذب ماينقل من الامور التى مضت سنة الله بظهورها وانتشارها لو كانت موجودة كما يعلم أيضا صدق مامضت سنة الله فى عباده انهم لا يتواطؤون فيه على الكذب من الامور المتواترة والمنقولات المستفيضة فان الله جبل جماهير الامم على الصدق والبيان في مثل هذه الامور دون الكذب والكتمان كما جبلهم علي الاكل والشرب واللباس فالنفس بطبعها تختار الصدق اذا لم يكن لها فى الكذب غرض راجح وتختار الاخبار بهذه الامور العظيمة دون كتمانها والناس يستخبر بعضهم بعضا ويميلون الى الاستخبار والاستفهام مما يقع وكل شخص له من يؤثر أن يصدقه ويبين له دون أن يكذبه ويكتمه والكذب والكتمان يقع كثيرا فى بني آدم فى قضايا كثيرة لاتنضبط كما يقع منهم الزنا وقتل النفوس والموت جوعا وعريا ونحو ذلك لكن ليس الغالب على انسابهم الا الصحة وعلى أنفسهم الا البقاء فالغرض هنا ان الامور المتواترة يعلم أنهم لم يتواطؤا فيها على الكذب

---

(١) ذكر ابن تيمية عين هذا الكلام فى رسالة له اسمها توحد الملة وتعدد الشرائع وتنوعها وتوحد الدين وهى تتلو هذه الرسالة بالطبع ان شاء الله تعالى

والاخبار الشاذة يعلم أنهم لم يتواطئوا فيها على الكتمان *

(الوجه الثانى) ان دين الامة يوجب عليهم تبليغ الدين واظهاره وبيانه ويحرم عليهم كتمانه ويوجب عليهم الصدق ويحرم عليهم الكذب فتواطؤهم على كتمان مايجب بيانه كتواطئهم على الكذب وكلاهما من أقبح الامور التى تحرم فى دين الامة وذلك باعث موجب الصدق والبيان *

(الثالث) انه قدعلم من عدل سلف الامة ودينها وعظيم رغبتها فى تبليغ الدين واظهاره وعظيم مجانبتها للكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم مايوجب أعظم العلوم الضرورية بأنهم لم يكذبوا فيما نقلوه عنه ولا كتموا ما أمرهم بتبليغه وهذه العادة الحاجية الخاصة الدينية لهم غير العادة العامة المشتركة بين جنس البشر *

(الرابع) ان العلماء الخاصة يعلمون من نصوص رسول الله صلى الله عليه وسلم الموجبة عليهم التبليغ ومن تعظيمهم لامر الله ورسوله ومن دين آحادهم مثل الخلفاء ومثل ابن مسعود وأبي ومعاذ وأبى الدرداء الى ابن عمر وابن عباس وابن عمرو وغيرهم يعلمون علما يقينا لايتخالجه ريب امتناع هؤلاء من كتمان قواعد الدين التى يجب تبليغها الى العامة كما يعلمون امتناعهم من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلم أيضا أهل الحديث مثل أحوال المشاهير بمعرفة ذلك مثل الزهرى وقتادة ويحيى ابن أبى كثير ومثل مالك والثورى وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وغيرهم أمورا يعلمون معها امتناعهم من الكذب وامتناعهم عن كتمان تبليغ هذه الامور العظيمة التى تأبى أحوالهم كتمانها لوكانت موجودة ولهم فى ذلك أسباب يطول شرحها وليس الغرض هنا تقرير ذلك وانما الغرض التنبيه على ماوقع من الشبهة لبعض الناس من أهل الاهواء *

قالوا هذا الذى ذكرتموه معارض بأمر الاذان والاقامة فانه كان يفعل على عهد النبى صلى الله عليه وسلم كل يوم خمس مرات ومع هذا فقد وقع الاختلاف فى صفته وكذلك الجهر بالبسملة والقنوت فى الفجر وحجة الوداع من أعظم وقائعه وقد وقع الاختلاف فى نقلها وذكروا نحو هذه الامور التى وقعت فيها الشبهة والنزاع عند بعض الناس وجعلوا هذا معارضا لما تقدم ليسوغوا أن يكون من أمور الدين مالم ينقل بل كتم لاهواء وأغراض وأما جهة

الرأى والتنازع فان تنازع العلماء واختلافهم فى صفات العبادات بل وفى غير ذلك من أمور الدين صار شبهة لكثير من أهل الاهواء من الرافضة وغيرهم وقالوا ان دين الله واحد والحق لايكون فى جهتين (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) فهذا التفرق والاختلاف دليل على انتفاء الحق فيما عليه أهل السنة والجماعة ويعبرون عنهم بعبارات تارة يسمونهم الجمهور وتارة يسمونهم الحشوية وتارة يسمونهم العامة ثم صار أهل الاهواء لما جعلوا هذا مانعا من كون الحق فيما عليه أهل السنة والجماعة كل ينتحل سبيلا من سبل الشيطان فالرافضة تنتحل النقل عن أهل البيت لما لاوجود له وأصل من وضع ذلك لهم الزنادقة مثل رئيسهم الاول عبد الله بن سبأ الذي ابتدع لهم الرفض ووضع لهم ان النبى صلى الله عليه وسلم نص على علىّ بالخلافة وانه ظلم ومنع حقه وقال انه كان معصوما وغرض الزنادقة بذلك التوصل الى هدم الاسلام ولهذا كان الرفض باب الزندقة والالحاد فالصابئة المتفلسفة ومن أخذ ببعض أمورهم أو زاد عليهم من القرامطة والنصيرية والاسماعيلية والحاكمية وغيرهم أنما يدخلون إلى الزندقة والكفر بالكتاب والرسول وشرائع الاسلام من باب التشيع والروافض والمعتزلة ونحوهم تنتحل القياس والعقل وتطعن فى كثير مما ينقله أهل السنة والجماعة ويعللون ذلك بما ذكر من الاختلاف ونحوه وربما جعل ذلك بعض أرباب الملة من أسباب الطعن فيها وفى أهلها فيكون بعض هؤلاء المتعصبين ببعض هذه الامور الصغار ساعيا فى هدم قواعد الاسلام الكبار *

فصل

اذا تبين بعض ماحصل فى هذا الاختلاف والتفرق من الفساد فنحن نذكر طريق زوال ذلك ونذكر ماهو الواجب فى الدين فى هذه المنازعات وذلك ببيان الاصلين اللذين هما السنة والجماعة المدلول عليهما بكتاب الله فانه اذا اتبع كتاب الله وما تضمنه من اتباع رسوله والاعتصام بحبله جميعا حصل الهدى والفلاح وزال الضلال والشقاء *

اما الاصل الاول وهو الجماعة وبدأنا به لانه اعرف عند عموم الخلق ولهذا

يجب عليهم تقديم الاجماع على مايظنونه من معانى الكتاب والسنة فنقول عامة هذه التنازعات انمــا هى فى أمور مستحبات ومكروهات لافى واجبات ومحرمات فان الرجل اذا حج متمتعا او مفردا أو قارنا كان حجه مجزئا عند عامة علماء المسلمين وان تنازعوا فى الافضل من ذلك ولكن بعض الخارجين عن الجماعة يوجب او يمنع ذلك فمن الشيعة من يوجب المتعة ويحرم ماعداها ومن الناصبة من يحرم المتعة ولا يبيحها بحال *

وكذلك الاذان سواء رجع فيه أولم يرجع فانه اذان صحيح عند جميع سلف الامة وعامة خلفها وسواء ربع التكبير فى أوله أو ثناه وانما يخالف فى ذلك بعض شواذ المتفقهة كما خالف فيه بعض الشيعة فاوجب له الحيعلة بحى على خير العمل وكذلك الاقامة يصح فيها الافراد والتثنية بأيتها قام صحت اقامته عند عامة علماء الاسلام الاماتنازع فيه شذوذ الناس *

وكذلك الجهر بالبسملة والمخافتة كلاهما جائز لا يبطل الصلاة وان كان من العلماء من يستحب احدهما أو يكره الآخر أو يختار ان لا يقرأ بها فالمنازعة بينهم فى المستحب والا فالصــلاة باحدهما جائزة عند عامة العلماء فانهم وان تنازعوا بالجهر والمخافتة فى موضعها هل هما واجبان أم لا وفيه نزاع معروف فى مذهب مالك وأحمــد وغـــيرهما فهذا فى الجهر الطويل بالقدر الكثير مثــل المخافتة بقرآن الفجر والجهر بقراءة صلاة الظهر فاما الجهر بالشيء اليسير أو المخافتة به فيما لاينبغى لاحد أن يبطل الصلاة بذلك وما اعلم احدا قال به فقد ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان فى صلاة المخافتة يسمعهم الآية احيانا وفى صحيح البخاري عن رفاعة بن رافع الزرقى قال كنا نصــلى وراء النبى صلى الله عليــه وسلم فلما رفع رأسه من الركعة قال سمع الله لمن حمده قال رجل وراءه ربناولك الحمد حمدا كثيرا طيبامباركا فيه فلما انصرف قال «من المتكلم ؟» قال أنا قال « رأيت بضعة وثلاثين ملــكا يبتدرونها ايهم يكتبها اول » ومعلوم انه لولا جهره بها لماسمعه النبي صلى الله عليه وسلم ولا الراوي ومعلوم أن المستحب للمأموم المخافتة بمثل ذلك ، وكذلك ثبت فى الصحيح عن عمر انه كان يجهر بدعاء

الاستفتاح . سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا آله غيرك وهذا فعله بين المهاجرين والانصار والسنة الراتبة فيه المخافتة وكذلك كان من الصحابة من يجهر بالاستعاذة وفى الصحيح عن ابن عباس أنه جهر بقراءة الفاتحة على الجنازة وقال لتعلموا أنها السنة ولهذا نظائر وايضا فلا نزاع أنه كان من الصحابة من يجهر بالبسملة كابن الزبير ونحوه ومنهم من لم يكن يجهر بها كابن مسعود وغيره وتكلم الصحابة فى ذلك ولم يبطل أحد منهم صلاة أحد فى ذلك وهذا مما لم أعلم فيه نزاعا وان تنازعوا فى وجوب قراءتها فتلك مسئلة أخري *

وكذلك القنوت فى الفجر انما النزاع بينهم فى استحبابه أو كراهيته وسجود السهو لتركه أو فعله والا فعامتهم متفقون على صحة صلاة من ترك القنوت وأنه ليس بواجب وكذلك من فعله اذ هو تطويل يسير للاعتدال ودعاء الله فى هذا الموضع ولو فعل ذلك في غير الفجر لم تبطل صلاته باتفاق العلماء فيما أعلم *

وكذلك القنوت فى الوتر هل هو فى جميع الحول أو النصف الآخر من رمضان انما هو فى الاستحباب اذ لا نزاع أنه لا يجب القنوت ولا تبطل الصلاة به وكذلك كونه قبل الركوع أو بعده *

وكذلك التسليمة الثانية هل هى مشروعة فى الصلاة الكاملة والناقصة أو فى الكاملة فقط أم ليست مشروعة هو نزاع فى الاستحباب لكن عن احمد رواية أن التسليمة الثانية واجبة فى الصلاة الكاملة اما وجوب الاركان أو وجوب ما يسقط بالسهو على نزاع فى ذلك والرواية الاخرى الموافقة للجمهور أنها مستحبة فى الصلاة الكاملة

وكذلك تكبيرات العيد الزوائد انما النزاع فى المستحب منها والا فلا نزاع فى أنه يجزىء ذلك كله وكذلك أنواع التشهدات كلها جائز ما أعلم فى ذلك خلافا الا خلافا شاذا وانما النزاع فى المستحب *

وكذلك أنواع الاستفتاح فى الصلاة وأصل الاستفتاح انما النزاع فى استحبابه وفى أى الانواع أفضل والخلاف فى وجوبه خلاف قليل نذكر قولا فى مذهب الامام أحمد *

واذا كان النزاع انما هو فى الاستحباب علم الاجماع على جواز ذلك وإجزائه ويكون ذلك بمنزلة القرا آت فى القرآن فان جميعها جائز وان كان من الناس من يختار بعض القرا آت على بعض وبهذا يزول الفساد المتقدم فانه اذا علم ان ذلك جميعه جائز مجزيء فى العبادة لم يكن النزاع فى الاختيار ضارا بل قد يكون النوعان سواء وان رجح بعض الناس بعضها ولو كان أحدهما أفضل لم يجز أن يظلم من يختار المفضول ولا يذم ولا يعاب باجماع المسلمين بل المجتهد المخطيء لا يجوز ذمه باجماع المسلمين ولا يجوز التفرق بذلك بين الامة ولا أن يعطى المستحب فوق حقه فانه قد يكون من أتى بغير ذلك المستحب من أمور أخرى واجبة ومستحبة أفضل بكثير ولا يجوز أن تجعل المستحبات بمنزلة الواجبات بحيث يمتنع الرجل من تركها ويرى أنه قد خرج من دينه أو عصى الله ورسوله بل قد يكون ترك المستحبات لمعارض راجح أفضل من فعلها بل الواجبات كذلك ومعلوم أن ائتلاف قلوب الامة أعظم فى الدين من بعض هذه المستحبات فلو تركها المرء لائتلاف القلوب كان ذلك حسنا وذلك أفضل اذا كان مصلحة ائتلاف القلوب دون مصلحة ذلك المستحب وقد أخرجا فى الصحيحين عن عائشة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لها « لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لنقضت الكعبة ولالصقتها بالارض وجعلت لها بابا يدخل الناس منه وبابا يخرجون منه » وقد احتج بهذا الحديث البخاري وغيره على ان الامام قد يترك بعض الامور المختارة لاجل تأليف القلوب ودفعها لنفرتها ولهذا نص الامام أحمد على انه يجهر بالبسملة عند المعارض الراجح فقال يجهر بها اذا كان بالمدينة قال القاضي لان أهلها اذ ذاك كانوا يجهرون فيجهر بها للتأليف وليعلمهم أنه يقرأ بها وقال غيره بل لانهم كانوا لا يقرؤنها بحال فيجهر بها ليعلمهم أنه يقرأ بها وان قراءتها سنة كما جهر ابن عباس بقراءة الفاتحة فى صلاة الجنازة فهذا أصل عظيم ينبغي مراعاته وبهذا يزول الشك والطعن فان الاتفاق اذا حصل على جواز الجميع واجزائه علم انه داخل فى المشروع فالتنازع فى الرجحان لا يضر كالتنازع في رجحان بعض القراآت وبعض العبادات وبعض العلماء ونحو ذلك بل قد أمر النبي صلى الله عليه وسلم كلا من القراء أن يقرأ كما

يعلم ونهاهم عن الاختلاف فى ذلك فمن خالف فى ذلك كان ممن ذمه الله ورسوله فأما أهل الجماعة فلا يختلفون فى ذلك *

وأما الاصل الثانى فنقول السنة المحفوظة عن النبى صلى الله عليه وسلم فيها من السعة والخير مايزول به الحرج وانما وقعت الشبهة لاشكال بعض ذلك على بعض الناس أما الاذان فقد ثبت في الاحاديث الصحيحة ان النبى صلى الله عليه وسلم سن فى الاقامة الايتار والشفع فى الصحيحين أنه أمر بلالا أن يشفع الاذان ويوتر الاقامة وفى صحيح مسلم أنه علم أبا محذورة الاقامة مثنى مثنى مثل الاذان فاذا كان كل واحد من مؤذنى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمره النبى صلى الله عليه وسلم بأحد النوعين صار ذلك مثل تعليمه القرآن لعمر بحرف ولهشام بن حكيم بحرف آخر وكلاهما قرآن أذن الله أن يقرأ به *

وكذلك الترجيع فى الاذان هو ثابت فى أذان أبى محذورة وهو محذوف من أذان بلال الذى رووه في السنن وكذلك الجهر بالبسملة والمخافتة بها صح الجهر بها عن طائفة من الصحابة وصحت المخافتة بها عن أكثرهم وعن بعضهم الامران جميعا وأما المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم فالذى في الصحاح والسنن يقتضى أنه لم يكن يجهر بها كما عليه عمل أكثر الصحابة وأمته ففى الصحيح حديث أنس وعائشة وأبى هريرة يدل على ذلك دلالة بينة لاشبهة فيها وفى السنن أحاديث أخر مثل حديث ابن مغفل وغيره وليس فى الصحاح والسنن حديث فيه ذكر جهره بها والاحاديث المصرحة بالجهر عنه كلها ضعيفة عند أهل العلم بالحديث ولهذا لم يخرجوا فى أمهات الدواوين منها شيئا ولكن فى الصحاح والسنن أحاديث محتملة وقد روى الطبرانى باسناد حسن عن ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يجهر بها اذ كان بمكة وانه لما هاجر الى المدينة ترك الجهر بها حتى مات ورواه أبو داود فى الناسخ والمنسوخ وهذا يناسب الواقع فان الغالب على أهل مكة كان الجهر بها وأما أهل المدينة والشام والكوفة فلم يكونوا يجهرون بها وكذلك أكثر البصريين وبعضهم كان يجهر بها ولهذا سألوا أنسا عن ذلك ولعل النبى صلى الله عليه وسلم كان يجهر بها بعض الاحيان أو جهرا خفيفا اذا كان ذلك محفوظا واذا

كان في نفس كتب الحديث انه فعل هذا مرة وهذا مرة زالت الشبهة *

وأما القنوت فامره بين لاشبهة فيه عند التأمل التام فانه قد ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قنت في الفجر مرة يدعو على رعل وذكوان وعصية ثم تركه ولم يكن تركه نسخا له لانه ثبت عنه في الصحاح انه قنت بعد ذلك يدعو للمسلمين مثل الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام والمستضعفين من المؤمنين ويدعو على مضر وثبت عنه أنه قنت أيضا في المغرب والعشاء وسائر الصلوات قنوت استنصار فهذا في الجملة منقول ثابت عنه لكن اعتقد بعض العلماء من الكوفيين أنه تركه ترك نسخ فاعتقد ان القنوت منسوخ واعتقد بعضهم من المكيين انه مازال يقنت في الفجر القنوت المتنازع فيه حتى فارق الدنيا والذي عليه أهل المعرفة بالحديث انه قنت لسبب وتركه لزوال السبب فالقنوت من السنن العوارض لا الرواتب لانه ثبت انه تركه لما زال العارض وثبت في الصحاح انه لم يقنت بعد الركوع الا شهرا هكذا ثبت عن أنس وغيره ولم ينقل أحد قط عنه انه قنت القنوت المتنازع فيه لاقبل الركوع ولا بعده ولا في كتب الصحاح والسنن شيء من ذلك بل قد أنكر ذلك الصحابة كابن عمر وأبي مالك الاشجعي وغيرهما ومن المعلوم قطعا ان الرسول صلى الله عليه وسلم لو كان كل يوم يقنت قنوتا يجهر به لكان له فيه دعاء ينقله بعض الصحابة فانهم نقلوا ما كان يقوله في القنوت العارض وقنوت الوتر فالقنوت الراتب أولى أن ينقل دعاؤه فيه فاذا كان الذي نستحبه انما يدعو فيه لقنوت الوتر علم انه ليس فيه شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم وهذا مما يعلم باليقين القطعي كما يعلم عدم النص على هذا وأمثاله فانه من الممتنع أن يكون الصحابة كلهم أهملوا نقل ذلك فانه مما يعلم بطلانه قطعا وكذلك المأثور عن الصحابة مثل عمر وعلي وغيرهما هو القنوت العارض قنوت النوازل ودعاء عمر فيه وهو قوله اللهم عذب كفرة أهل الكتاب الخ يقتضي انه دعا به عند قتاله للنصاري وكذلك دعاء عليّ عند قتاله لبعض أهل القبلة والحديث الذي فيه عن أنس انه لم يزل يقنت حتى فارق الدنيا مع ضعف في اسناده وانه ليس في السنن انما فيه القنوت قبل الركوع وفي الصحاح عن أنس انه قال لم يقنت رسول الله

صلى الله عليه وسلم بعد الركوع الا شهرا والقنوت قبل الركوع هو القيام الطويل اذ لفظ القنوت معناه دوام الطاعة فتارة يكون فى السجود وتارة يكون فى القيام كما قد بيناه فى غير هذا الموضع *

وأما حجة الوداع وان اشتبهت على كثير من الناس فانما أتوا من جهة الالفاظ المشتركة حيث سمعوا بعض الصحابة يقول انه تمتع بالعمرة الى الحج وهؤلاء أيضا يقولون انه أفرد الحج و يقول بعضهم انه قرن العمرة الى الحج ولا خلاف فى ذلك فانهم لم يختلفوا أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يحل من احرامه وانه كان قد ساق الهدى ونحره يوم النحر وانه لم يعتمر بعد الحجة فى ذلك العام لاهو ولا أحد من أصحابه الا عائشة أمر أخاها أن يعمرها من التنعيم أدنى الحل وكذلك الاحاديث الصحيحة عنه فيها أنه لم يطف بالصفا والمروة الا مرة واحدة مع طوافه الاول فالذين نقلوا أنه أفرد الحج صدقوا لانه أفرد أعمال الحج لم يقرن بها عمل العمرة كما يتوهم من يقول ان القارن يطوف طوافين و يسعى سعيين ولم يتمتع تمتعا حل به من احرامه كما يفعله المتمتع الذى لم يسق الهدى بل قد أمر جميع أصحابه الذين لم يسوقوا الهدى أن يحلوا من احرامهم ويجعلوها عمرة ويهلوا بالحج بعد قضاء عمرتهم *

انتهت الرسالة السابعة والحمد لله رب العالمين ويليها الرسالة الثامنة

الرسالة الثامنة

﴿ قاعدة ﴾

فى توحد الملة وتعدد الشرائع وتنوعها وتوحد الدين الملى دون الشرعي

﴿ لشيخ الاسلام تقى الدين أحمد بن تيميه ﴾

(المتوفى سنة ٧٢٨)

فصل

في توحد الملة وتعدد الشرائع وتنوعها وتوحد الدين الملى دون الشرعى وما فى ذلك من اقرار ونسخ وجريان ذلك فى أهل الشريعة الواحدة بنوع من الاعتبار قال الله تعالى (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس اماماً)[١] فهذا نص فى أنه امام الناس كلهم وقال (ان ابراهيم كان أمة)[٢] وهو القدوة الذى يؤتم به وهو معلم الخير وقال (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون)[٣] فقد بين أنه لا يرغب عن ملة ابراهيم الا من هو سفيه

١ ـ البقرة ١٢٤
٢ ـ النحل ١٢٠
٣ ـ البقرة ١٣٠ ـ ١٣٤

وانه أمر بالاسلام فقال أسلمت لرب العالمين وأن هذه وصية الى نبيه ووصية اسرائيل الى بنيه وقد اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ثم قال (وقالوا كونوا هودا أونصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين)[1] فأمر باتباع ملة ابراهيم ونهى عن التهود والتنصر وأمر بالايمان الجامع كما أنزل على النبيين وما أوتوه والاسلام له وأن نصبغ بصبغة الله وأن نكون له عابدين ورد على من زعم أن ابراهيم وبنيه واسرائيل وبنيه كانوا هودا أونصارى وقد قال قبل هذا (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولن اتبعت أهواءهم[2]) الآية والمعنى ولن ترضى عنك اليهود حتى تتبع ملتهم ولا النصارى حتى تتبع ملتهم وقد يستدل بهذا على أن لكل طائفة ملة لقوله تعالى (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء)[3] وقال تعالى فى آخر السورة (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه)[4] الى آخر السورة كما قال فى أولها (والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون)[5] ففتحها بالايمان الجامع وختمها بالايمان الجامع ووسطها بالايمان الجامع ونبينا صلى الله عليه وسلم أعطي فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه وقال تعالى فى آل عمران بعد أن قص أمر المسيح ويحيي (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)[6] وهى التى كتبها النبي صلى الله عليه وسلم الى هرقل عظيم الروم لما دعاهم الى الاسلام وقال (ياأهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين)[7] الى قوله (واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة)[8] الى قوله (وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها)[9] فانكر على من يبغى غير دين الله كما قال فى أول السورة (شهد الله أنه لا اله الا هو

ـ البقرة ١٣٥
ـ البقرة ١٢٠
ـ البقرة ١١٣
ـ البقرة ٢٨٥
ـ البقرة ٤
آل عمران ٦٤
آل عمران ٦٥ ـ ٦٨
آل عمران ٨١
آل عمران ٨٣

والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لااله الا هو العزيز الحكيم ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم)[١] فاخبر أن الدين عند الله الاسلام وأن الذين اختلفوا من أهل الكتاب وصاروا على ملل شتى مااختلفوا الا من بعد ماجاءهم العلم وفيه بيان أن الدين واحد لااختلاف فيه وقال تعالى (قل إننى هدانى ربى الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين قل ان صلاتى ونسكي ومحياى ومماتى لله رب العالمين)[٢] هذا بعد أن ذكر الانبياء فقال (اؤلئك الذين هدي الله فبهداهم اقتده)[٣] وذكر في الاعراف دعوة المرسلين جميعهم واتفاقهم على عبادة الله وحده لاشريك له وقال (ولقد بعثنافى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)[٤] الآية وقال (إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وانه فى الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين)[٥] وقال (ذلك عيسي بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون)[٦] الى قوله (مشهد يوم عظيم)[٧] وقال فى سورة الانبياء (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لااله الا أنا فاعبدون)[٨] وقال بعد أن قص قصصهم (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)[٩] وقال فى آخرها (قل إنما يوحى الىّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون)[١٠] وقال فى سورة المؤمنين (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون)[١١] وقال في آخر سورة الحج التى ذكر فيها الملل الست وذكر ما جعل لهم من المناسك والمعابد وذكر ملة ابراهيم خصوصا (وجاهدوافى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل)[١٢] وقال (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك)[١٣] الآية وقال (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب)[١٤] الى قوله (وذلك دين القيمة)[١٥] وهذا فى القرآن مذكور فى مواضع كثيرة وكذلك فى الاحاديث الصحيحة مثل ماترجم عليه البخارى فقال باب ما جاء فى أن دين

١ - آل عمران ١٨ ـ
٢ - الأنعام ١٦١ ـ
٣ - الأنعام ٩٠
٤ - النحل ٣٦
٥ - النحل ١٢٠ ـ ٣
٦ - مريم ٣٤
٧ - مريم ٣٧
٨ - الأنبياء ٢٥
٩ - الأنبياء ٩٢
١٠ - الأنبياء ١٠٨
١١ - المؤمنون ٥١ ـ
١٢ - الحج ٧٨
١٣ - الشورى ١٣
١٤ - البينة ١
١٥ - البينة ٥

الانبياء واحد وذكر الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «انا معاشر الانبياء اخوة لعلات» ومثل صفته في التوراة لن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فافتح به أعينا عميا وأذانا صما وقلوبا غلفا ولهذا وحد الصراط والسبيل في مثل قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)[١] ومثل قوله تعالى (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل)[٢] ومثل قوله (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور)[٣] وقوله (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله وجاهدوا في سبيل الله) وقوله (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله)[٤] والاسلام دين جميع المرسلين قال نوح عليه السلام (فان توليتم فما سألتكم من أجر ان أجري الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين)[٥] وقال الله عن ابراهيم وبنيه ماتقدم * وقال الله عن السحرة (ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين)[٦] وعن فرعون (آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنوا اسرائيل وأنا من المسلمين)[٧] وقال الحواريون (آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون)[٨] وفي السورة الاخرى (واشهد بأننا مسلمون)[٩] وقال يوسف الصديق (توفني مسلما وألحقني بالصالحين)[١٠] وقال موسى (إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين)[١١] وقالت بلقيس (رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)[١٢] وقال في التوراة (يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار)[١٣] قال شيخ الاسلام وقد قررت في غير هذا الموضع الاسلام العام والخاص والايمان العام والخاص كقوله (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون)[١٤] وأما تنوع الشرائع وتعددها فقال تعالى لما ذكر القبلة بعد الملة بقوله (فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون)[١٥] الى قوله (ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات)[١٦] فأخبر أن لكل أمة وجهة ولم يقل جعلنا لكل أمة وجهة بل قد يكون هم ابتدعوها كما ابتدعت النصارى وجهة المشرق بخلاف ماذكره في الشرع والمناهج فانه قال

١ ـ الفاتحة ٥ ـ ٧
٢ ـ الأنعام ١٥٣
٣ ـ البقرة ٢٥٧
٤ ـ الأنفال ٣٩
٥ ـ يونس ٧٢
٦ ـ الاعراف ١٢٦
٧ ـ يونس ٩٠
٨ ـ آل عمران ٥٢
٩ ـ المائدة ١١١
١٠ ـ يوسف ١٠١
١١ ـ يونس ٨٤
١٢ ـ النمل ٤٤
١٣ ـ المائدة ٤٤
١٤ ـ البقرة ٦٢
١٥ ـ البقرة ١٤٤
١٦ ـ البقرة ١٤٨

(ياأيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر)[١] الى قوله (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)[٢] وهذه الآيات نزلت بسبب الحكم فى الحدود والقصاص والديات أخبر أن التوراة يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا وهذا عام فى النبيين جميعهم والربانيين والاحبار ثم لما ذكر الانجيل قال وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه فأمر هؤلاء بالحكم لان الانجيل بعض مافى التوراة وأقر الاكثر والحكم بما أنزل الله فيه حكم بما فى التوراة أيضا ثم قال (فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا)[٣] فأمره أن يحكم بما أنزل الله على من قبله لكل جعلنا من الرسولين والكتابين شرعة ومنهاجا أى سنة وسبيلا فالشرعه الشريعة وهي السنة والمنهاج الطريق والسبيل وكان هذا بيان وجه تركه لما جعل لغيره من السنة والمنهاج الى ماجعل له ثم أمره أن يحكم بينهم بما أنزل الله اليه فالاول نهى له أن يأخذ بمنهاج غيره وشرعته والثانى وان كان حكما غير الحكم الذى أنزل نهى له أن يترك شيئا مما انزل فيها اتباع محمد صلى الله عليه وسلم الذى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل فمن لم يتبعه لم يحكم بما أنزل الله وان لم يكن من اهل الكتاب الذين أمروا أن يحكموا بما فيها مما يخالف حكمه وقال تعالى فى الحج (ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الانعام)[٤] ولكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الامر)[٥] وذكر فى أثناء السورة (لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا)[٦] فبين أنه هو جعل المناسك وذكر مواضع العبادات كما ذكر فى البقرة الوجهة التى يتوجهون اليها وقال فى سورة الجاثية بعد أن ذكر بنى اسرائيل (ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون)[٧] الآية وقال فى النسخ ووجوب اتباعهم للرسول (واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة)[٨] الى قوله (وأنا معكم من الشاهدين) وقال (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة)[٩] الآية والتى بعدها وقد تقدم مافى البقرة وآل عمران من أمرهم بالايمان بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم وكذلك فى سورة النساء وهو كثير فى القرآن *

١ - المائدة ٤١
٢ - المائدة ٥٠
٣ - المائدة ٤٨
٤ - الحج ٣٤
٥ - الحج ٦٧
٦ - الحج ٤٠
٧ - الجاثية ١٨
٨ - آل عمران ٨١
٩ - الاعراف ١٥٦

﴿ فصل ﴾

قال الله تعالى لنا (يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا)[1] الى قوله تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات)[2] إلى قوله (كنتم خير أمة اخرجت للناس)[3] فامرنا بملازمة الاسلام الى الممات كما أمر الأنبياء جميعهم بالاسلام وأن نعتصم بحبله جميعا ولا نتفرق ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وذكر انه تبيض وجوه وتسود وجوه قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وذكر انه يقال لهم (أكفرتم بعد ايمانكم)[4] وهذا عائد الى قوله (ولا تموتن الا وانتم مسلمون) فأمر بملازمة الاسلام و بين أن المسودة وجوههم أهل التفرق والاختلاف يقال لهم أكفرتم بعد ايمانكم وهذا دليل على كفرهم وارتدادهم وقد تأولها الصحابة فى الخوارج وهذا نظير قوله للرسل (أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه)[5] وقد قال فى البقرة (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه)[6] الآية وقال أيضا (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء)[7] وقال تعالى(فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون)[8] وقال تعالى (وان أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) وقال تعالى (إن الدين عند الله الاسلام وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الامن بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم)[9] الآية (وماتفرق الذين أوتوا الكتاب الامن بعد ماجاءتهم البينة)[10] الآية ونظيرها فى الجاثية وقال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا)[11] وقال تعالى (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم)[12] *

١ ـ آل عمران ١٠٢ ـ ١٠٣
٢ ـ آل عمران ١٠٥
٣ ـ آل عمران ١١٠
٤ ـ آل عمران ١٠٦
٥ ـ الشورى ١٣
٦ ـ البقرة ٢١٣
٧ ـ الأنعام ١٥٩
٨ ـ المؤمنون ٥٣
٩ ـ آل عمران ١٩
١٠ ـ البينة ٤
١١ ـ النساء ٥٩
١٢ ـ الحشر ١٠

﴿ فصل ﴾

إذا كان الله تعالى قد أمرنا بطاعة الله وطاعة رسوله وأولى الامر منا وامرنا عند التنازع فى شيء أن نرده الى الله والى الرسول وأمرنا بالاجتماع والائتلاف ونهانا عن التفرق والاختلاف وأمرنا أن نستغفر لمن سبقنا بالايمان وسمانا المسلمين وأمرنا أن ندوم عليه الى الممات فهذه النصوص وما كان في معناها توجب علينا الاجتماع فى الدين كاجتماع الأنبياء قبلنا فى الدين وولاة الأمور فيناهم خلفاء الرسول قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « إن بنى اسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي قام نبي وأنه لانبي بعدى وسيكون خلفاء ويكثرون قالوا فما تأمرنا يارسول الله قال أوفوا بيعة الأول فالاول وأدوا لهم الذى لهم فأن الله سائلهم عما استرعاهم » وقال أيضا « العلماء ورثة الانبياء » وروى عنه أنه قال « وددت أنى قد رأيت خلفائى قالوا ومن خلفاؤك قال الذين يحيون سنتى يعلمونها الناس » فهؤلاء هم ولاة الأمر بعدهم وهم الأمراء والعلماء وبذلك فسرها السلف ومن تبعهم من الائمة كالامام أحمد وغيره وهو ظاهر قد قررناه فى غير هذا الموضع فالأصول الثابتة بالكتاب والسنة والأجماع هى بمنزلة الدين المشترك بين الانبياء ليس لأحد خروج عنها ومن دخل فيها كان من أهل الاسلام المحض وهم أهل السنة والجماعة وما تنوعوا فيه من الأعمال والأقوال المشروعة فهو بمنزلة ماتنوعت فيه الأنبياء قال الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)[1] وقال تعالي (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام)[2] وقال (ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة)[3] والتنوع قد يكون فى الوجوب تارة وفى الاستحباب أخرى فالأول مثل مايجب على قوم الجهاد وعلى قوم الزكاة وعلى قوم تعليم العلم وهذا يقع فى فروض الأعيان وفى فروض الكفايات ففروض الأعيان مثل مايجب على كل رجل إقامة الجماعة والجمعة فى مكانه مع أهل بقعته ويجب عليه زكاة نوع ماله بصرفه إلى مستحقه لجيران ماله ويجب عليه استقبال الكعبة من ناحيته والحج إلى بيت الله من طريقه ويجب عليه بر والديه وصلته ذوى رحمه والأحسان إلى جيرانه وأصحابه ومماليكه ورعيته ونحو ذلك من الامور

١ ـ العنكبوت ٦٩
٢ ـ المائدة ١٦
٣ ـ البقرة ٢٠٨

التي تتنوع فيها أعيان الوجوب وان اشتركت الامة فى جنس الوجوب وتارة تتنوع بالقدرة والعجز كتنوع صلاة المقيم والمسافر والصحيح والمريض والآمن والخائف وفروض الكفايات تتنوع بتنوع فروض الاعيان ولها تنوع يخصها وهوانها تتعين على من لم يقم بها غيره فقد تتعين فى وقت ومكان وعلى شخص أو طائفة وفى وقت آخر أو مكان آخر على شخص آخر أو طائفة أخرى كما يقع مثل ذلك فى الولايات والجهاد والفتيا والقضاء وغير ذلك وأما فى الاستحباب فهو أبلغ فان كل تنوع يقع فى الوجوب فانه يقع مثله فى المستحب ويزداد المستحب بان كل شخص انما يستحب له من الاعمال التي يتقرب بها الي الله تعالى التي يقول الله فيها وما يزال عبدي يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ما يقدر عليه ويفعله وينتفع به والافضل له من الاعمال ما كان أنفع له وهذا يتنوع تنوعا عظيما فاكثر الخلق يكون المستحب لهم ماليس هو الافضل مطلقا اذ أكثرهم لايقدرون على الافضل ولا يصبرون عليه اذا قدروا عليه وقد لا ينتفعون به بل قد يتضررون اذا طلبوه مثل من لا يمكنه فهم العلم الدقيق اذا طلب ذلك فانه قد يفسد عقله ودينه أو من لا يمكنه الصبر على مرارة الفقر ولا يمكنه الصبر على حلاوة الغنى أولا يقدر على دفع فتنة الولاية عن نفسه والصبر علي حقوقها ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل «ان من عبادى من لا يصلحه الا الفقر ولو أغنيته لافسده ذلك وان من عبادى من لا يصلحه الا الغني ولو أفقرته لافسده ذلك» وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابى ذر لما سأله الامارة «يا أبا ذر أني أراك ضعيفا وإني أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولاتولين مال يتيم» وروى عنه أنه قال للعباس عمه نفس تنجيها خير من امارة لا تحصيها ولهذا اذا قلنا هذا العمل أفضل فهذا قول مطلق ثم المفضول يكون أفضل فى مكانه ويكون أفضل لمن لا يصلح له الافضل مثال ذلك أن قراءة القرآن أفضل من الذكر بالنص والاجماع والاعتبار أما النص فقوله صلى الله عليه وسلم «أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهي من القرآن سبحان الله والحمد لله ولااله الا الله والله أكبر» وقوله صلى الله عليه وسلم «فضل القرآن علي سائر الكلام كفضل

الله على خلقه» وقوله عن الله «من شغله قراءة القرآن عن ذكرى ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» وقوله «ما تقرب العباد الى الله بمثل ما خرج منه» وقول الاعرابى له انى لا أستطيع أن آخذ شيئا من القرآن فعلمني ما يجزيني فى صلاتى فقال «قل سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر» وأما الاجماع على ذلك فقد حكاه طائفة ولا عبرة بخلاف جهال المتعبدة وأما الاعتبار فان الصلاة يجب فيها القراءة فان عجز عنها انتقل الى الذكر ولا يجزيه الذكر مع القدرة على القراءة والمبدل منه أفضل من البدل الذى لا يجوز إلا عند العجز عن المبدل وأيضا فالقراءة يشترط لها الطهارة الكبرى كما يشترط للصلاة الطهارتان والذكر لا يشترط انه الكبرى ولا الصغري فعلم أن أعلى أنواع ذكر الله هو الصلاة ثم القراءة ثم الذكر المطلق ثم الذكر في الركوع والسجود أفضل بالنص والاجماع من قراءة القرآن وكذلك كثير من العبادات قد ينتفع بالذكر فى الابتداء مالا ينتفع بالقراءة اذ الذكر يعطيه ايمانا والقرآن يعطيه العلم وقد لا يفهمه ويكون الى الايمان أحوج منه لكونه في الابتداء والقرآن مع الفهم لاهل الايمان أفضل بالاتفاق فهذا وأمثاله يشبه تنوع شرائع الانبياء فانهم متفقون على أن الله أمر كلا منهم بالدين الجامع وان نعبده بتلك الشرعة والمنهاج كما أن الامة الاسلامية متفقة علي ان الله أمر كل مسلم من شريعة القرآن بما هو مأمور به اما ايجابا وأما استحبابا وان تنوعت الافعال فى حق أصناف الامة فلم يختلف اعتقادهم ولا معبودهم ولا اخطأ أحد منهم بل كلهم متفقون علي ذلك يصدق بعضهم بعضا *

﴿ فصل ﴾

وأما ما يشبه ذلك من وجه دون وجه فهو ما تنازعوا فيه مما أقروا عليه وساغ لهم العمل به من اجتهاد العلماء والمشايخ والامراء والملوك كاجتهاد الصحابة في قطع اللينة وتركها واجتهادهم فى صلاة العصر لما بعثهم النبي صلى الله عليه وسلم الى بني قريظة وأمرهم ان لا يصلوا العصر الا فى بنى قريظة فصلى قوم في الطريق فى الوقت وقالوا انما أراد التعجل لا تفويت الصلاة وأخرها قوم الى أن وصلوا وصلوها بعد الوقت تمسكا بظاهر لفظ العموم فلم يعنف النبي صلى الله عليه وسلم

واحدة من الطائفتين وقال صلى الله عليه وسلم «إذا اجتهد الحاكم فاصاب فله أجران وإذا اجتهد فاخطاء فله أجر» وقد اتفق الصحابة فى مسائل تنازعوا فيها على أن اقرار كل فريق للفريق الآخر على العمل باجتهادهم كمسائل في العبادات والمناكح والمواريث والعطاء والسياسة وغير ذلك وحكم عمر أول عام في الفريضة الحمارية بعدم التشريك وفى العام الثانى بالتشريك فى واقعة مثل الأولى ولما سئل عن ذلك قال تلك على ماقضينا وهذه على مانقضى وهم الأئمة الذين ثبت بالنصوص أنهم لايجتمعون على باطل ولا ضلالة ودل الكتاب والسنة على وجوب متابعتهم وتنازعوا فى مسائل علمية اعتقادية كسماع الميت صوت الحى وتعذيب الميت ببكاء أهله ورؤية محمد صلى الله عليه وسلم ربه قبل الموت مع بقاء الجماعة والالفة وهذه المسائل منها ماأحد القولين خطأ قطعا ومنها ماالمصيب فى نفس الامر واحد عند الجمهور اتباع السلف والآخر مؤد لما وجب عليه بحسب قوة ادراكه وهل يقال له مصيب أو مخطىء فيه نزاع ومن الناس من يجعل الجميع مصيبين ولا حكم فى نفس الأمر ومذهب أهل السنة والجماعة أنه لا إثم على من اجتهد وإن اخطأ فهذا النوع يشبه النوع الأول من وجه دون وجه أما وجه المخالفة فلأن الانبياء عليهم السلام معصومون عن الاقرار على الخطأ بخلاف الواحد من العلماء والأمراء فانه ليس معصوما من ذلك ولهذا يسوغ بل يجب أن نبين الحق الذى يجب اتباعه وإن كان فيه بيان خطأ من اخطأ من العلماء والأمراء وأما الأنبياء فلا يبين أحدهما مايظهر به خطاء الآخر وأما المشابهة فلأن كلا مأمور باتباع مابان له من الحق بالدليل الشرعى كامر النبى صلى الله عليه وسلم باتباع ماأوحى إليه وليس لأحدهما ان يوجب على الآخر طاعته كما ليس ذلك لأحد النبيين مع الآخر وقد يظهر له من الدليل ما كان خافيا عليه فيكون انتقاله بالاجتهاد عن الاجتهاد ويشبه النسخ فى حق النبى لكن هذا رفع للاعتقاد وذاك رفع للحكم حقيقة وعلى الأتباع اتباع من ولى أمرهم من الأمراء والعلماء فيما ساغ له اتباعه وأمر فيه باتباع اجتهاده كما على الأمة اتباع أى نبى بعث اليهم وان خالف شرعه شرع الأول لكن

تنوع الشروع لهؤلاء وانتقاله لم يكن لتنوع نفس الأمر النازل على الرسول ولكن تنوع أحوالهم وهو ادراك هذا لما بلغه من الوحي سمعا وعقلا وعجز الآخر عن ادراك ذلك البلاغ إما سمعا لعدم تمكنه من سماع ذلك النص وإما عقلا لعدم فهمه لما فهمه الأول من النص وإذا كان عاجزا سقط عنه الاثم فيما عجز عنه وقد يتبين لأحدهما عجز الآخر وخطاؤه وتعذره فى ذلك وقد لايتبين له عجزه وقد لايتبين لكل منهما أيهما الذى أدرك الحق واصابه ولهـذا امتنع من امتنع من تسمية مثل هذا خطأ قال لان التكليف مشروط بالقدرة فما عجز عنه من العلم لم يكن حكم الله فى حقه فلا يقال اخطأه وأما الجمهور فيقولون أخطأه كما دلت عليه السنة والاجماع لكن خطؤه معذور فيه وهو معنى قوله عجز عن ادراكه وعلمه لكن هذا لايمنع أن يكون ذاك هو مراد الله ومأموره فان عجز الانسان عن فهم كلام العالم لايمنع أن يكون قد أراد بكلامه ذلك المعنى وأن يكون الذي فهمه هو المصيب الذي له الأجران ولهـذا تنازع أصحابنا فيمن لم يصب الحكم الباطن هـل يقال إنه مصيب فى الظاهر لكونه أدى الواجب المقدور عليه من اجتهاده واقتصاره أولا يطلق عليه اسم الاصابة بحال وإن كان له أجر على اجتهاده وقصده الحق على قولين هما روايتان عن أحمد وذلك لانه لم يصب الحكم الباطن ولكن قصد الحق وهل اجتهد الاجتهاد المأمور به التحقيق أنه اجتهد الاجتهاد المقدور عليه فهو مصيب من هـذا الوجه من جهة المأمور المقـدور وإن لم يكن مصيبا من جهة إدراك المطلوب وفعل المأمور المطلق يوضح ذلك أن السلطان نوعان سلطان الحجة والعلم وهـو اكثر ماسمى فى القرآن سلطانا حتى روى عن ابن عباس، أن كل سلطان فى القرآن فهو الحجة والثانى سلطان القـدرة : والعمل الصالح لايقوم إلا بالسلطانين فأذا ضعف سلطان الحجة كان الأمر بقـدره واذا ضعف سلطان القدرة كان الامر بحسبه والأمر مشروط بالقدرة على السلطانين فالاثم ينتفى عن الأمر بالعجز عن كل منهما وسلطان الله فى العلم هو الرسالة وهو حـجة الله على خلقه كما قال تعالى (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)[١] وقال تعالى (ان هى الا اسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان)[٢] وقال (أم أنزلنا

١ ـ النساء ١٦٥
٢ ـ النجم ٢٣

عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون)[1] ونظائره متعددة فالمذاهب والطرائق والسياسات للعلماء والمشايخ والامراء اذا قصدوا بها وجه الله تعالى دون الاهواء ليكونوا مستمسكين بالملة والدين الجامع الذى هو عبادة الله وحده لاشريك له واتبعوا ماأنزل اليهم من ربهم من الكتاب والسنة بحسب الامكان بعد الاجتهاد التام هى لهم من بعض الوجوه بمنزلة الشرع والمناهج للانبياء وهم مثابون على ابتغائهم وجه الله وعبادته وحده لاشريك له وهو الدين الاصلى الجامع كما يثاب الانبياء على عبادتهم الله وحده لاشريك له ويثابون على طاعة الله ورسوله فيما تمسكوا بهلامن شرعة رسوله ومنهاجه كما يثاب كل نبى على طاعة الله فى شرعه ومنهاجه ويتنوع شرعهم ومناهجهم مثل أن يبلغ أحدهم الاحاديث بألفاظ غير الالفاظ التى بلغت الآخر وتفسرله بعض آيات القرآن بتفسير يخالف لفظه لفظ التفسير الآخر ويتصرف فى الجمع بين النصوص واستخراج الاحكام منها بنوع من الترتيب والتوفيق ليس هو النوع الذى سلكه غيره وكذلك فى عباداته وتوجهاته وقد يتمسك هذا بآية أو حديث وهذا بحديث أو آية أخرى وكذلك في العلم من العلماء من يسلك بالاتباع طريقة ذلك العالم فتكون هى شرعهم حتى يسمعوا كلام غيره ويروا طريقته فيرجح الراجح منهما فتتنوع في حقهم الاقوال والافعال السالفة لهم من هذا الوجه وهم مأمورون بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه كما أمرت الرسل بذلك ومأمورون بان لايفرقوا بين الامة بل هى أمة واحدة كما أمرت الرسل بذلك وهؤلاء آكد فان هؤلاء تجمعهم الشريعة الواحدة والكتاب الواحد وأما القدر الذي تنازعوا فيه فلا يقال ان الله أمر كلامنهم باطنا وظاهرا بالتمسك بما هو عليه كما أمر بذلك الانبياء وان كان هذا قول طائفة من أهل الكلام فانما يقال ان الله أمر كلا منهم أن يطلب الحق بقدر وسعه وامكانه فان أصابه والا فلا يكلف الله نفسا الا وسعها وقد قال المؤمنون (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا)[2] وقال الله قد فعلت وقال تعالى (ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به) فمن ذمهم ولامهم على مالم يؤاخذهم الله عليه فقد اعتدى ومن أراد أن يجعل أقوالهم وأفعالهم بمنزلة قول المعصوم وفعله وينتصر لها بغيرهدى من الله فقد اعتدى

[1] - الروم ٣٥
[2] - البقرة ٢٨٦

واتبع هواه بغير هدى من الله ومن فعل ما أمر به بحسب حاله من اجتهاد يقدر عليه أو تقليد اذا لم يقدر على الاجتهاد وسلك فى تقليده مسلك العدل فهو مقتصد اذ الامر مشروط بالقدرة (لا يكلف الله نفسا الا وسعها)[١] فعلى المسلم فى كل موطن أن يسلم وجهه لله وهو محسن ويدوم على هذا الاسلام فاسلام وجهه اخلاصه لله واحسان فعله الحسن فتدبر هذا فانه أصل جامع نافع عظيم *

قاعدة

فى صفات العبادات الظاهرة التى حصل فيها نزاع بين الامة فى الرواية والرأى مثل الاذان والجهر بالبسملة والقنوت فى الفجر والتسليم فى الصلاة ورفع الايدي فيها ووضع الاكف فوق الاكف ومثل التمتع والافراد والقران فى الحج ونحو ذلك فان التنازع في هذه العبادات الظاهرة والشعائر أوجب أنواعا من الفساد الذى يكرهه الله ورسوله وعباده المؤمنون أحدها جهل كثير من الناس او اكثرهم بالأمر المشروع المسنون الذى يحبه الله ورسوله والذى سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته والذى أمرهم باتباعه * الثانى ظلم كثير من الامة أو أكثرهم بعضهم لبعض وبغيهم عليهم تارة بنهيهم عما لم ينه الله عنه وبغضهم على مالم يبغضهم الله عليه وتارة بترك ماأوجب الله من حقوقهم وصلتهم لعدم موافقتهم لهم على الوجه الذي يؤثرونه حتى يقدمون فى الموالاة والمحبة واعطاء الاموال والولايات من يكون مؤخراً عند الله ورسوله ويتركون من يكون مقدما عند الله ورسوله لذلك * الثالث اتباع الظن وما تهوي الانفس حتي يصير كثير منهم متدينا باتباع الاهواء فى هذه الامور المشروعة وحتى يصير فى كثير من المتفقهة والمتعبدة من الاهواء من جنس مافى أهل الاهواء الخارجين عن السنة والجماعة كالخوارج والروافض والمعتزلة ونحوهم وقد قال الله فى كتابه (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب)[٢] وقال فى كتابه (لا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل)[٣] * الرابع التفرق والاختلاف المخالف للاجتماع والائتلاف حتى يصير بعضهم يبغض بعضا ويعاديه

١ - البقرة ٢٨٦
٢ - ص ٢٦
٣ - المائدة ٧٧

ويحب بعضا ويواليه على غير ذات الله وحتى يفضي الامر ببعضهم الى الطعن واللعن والهمز واللمز وببعضهم إلى الاقتتال بالأيدى والسلاح وببعضهم الى المهاجرة والمقاطعة حتى لا يصلى بعضهم خلف بعض وهذا كله من أعظم الأمور التى حرمها الله ورسوله والاجتماع والائتلاف من أعظم الامور التى أوجبها الله ورسوله قال الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)[1] الى قوله (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه)[2] قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وكثير من هؤلاء يصير من أهل البدعة بخروجه عن السنة التى شرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته من أهل الفرقة بالفرقة المخالفة للجماعة التى أمر الله بها ورسوله وقال تعالى (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء)[3] وقال تعالى (وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات)[4] وقال تعال (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة)[5] وقال تعالى (ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم)[6] وقال تعالى (وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم)[7] وقال (فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة)[8] وقال (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم)[9] وقال (إنما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم)[10] وقال (إلا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس)[11] وهذا الأصل العظيم وهو الاعتصام بحبل الله جميعا وأن لا نتفرق هو من أعظم أصول الاسلام ومما عظمت وصية الله به في كتابه ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم ومما عظمت به وصية النبى صلى الله عليه وسلم فى مواطن عامة وخاصة مثل قوله « عليكم بالجماعة فأن يد الله على الجماعة » وقوله « فان الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد » وقوله « من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه فان من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الأسلام من عنقه » وقوله « ألا أنبؤكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف

. آل عمران ١٠٢ ـ ١٠٣
. آل عمران ١٠٦
. الأنعام ١٥٩
. البقرة ٢١٣
. البينة ٤ ـ ٥
. آل عمران ١٩
. الجاثية ١٧
. يونس ٩٣
. الأنفال ١
١ ـ الحجرات ١٠
١ ـ النساء ١١٤

والنهي عن المنكر قالوا بلى يارسول الله قال صلاح ذات البين فأن فساد ذات البين هى الحالقه لاأقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين » وقوله « من جاءكم وأمركم على رجل واحد يريد أن يفرق جماعتكم فاضربوا عنقه بالسيف كائنا من كان » وقوله « يصلون لكم فان أصابوا فلكم ولهم وان اخطأوا فلكم وعليهم » وقوله « ستفترق هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة منها واحدة ناجية وثنتان وسبعون في النار قيل ومن الفرقة الناجية قال هى الجماعة يد الله على الجماعة » وباب الفساد الذى وقع فى هذه الامة بل وفى غيرها هو التفرق والاختلاف فانه وقع بين أمرائها وعلمائها من ملوكها ومشايخها وغيرهم من ذلك ما الله به عليم وإن كان بعض ذلك مغفورا لصاحبه لاجتهاده الذى يغفر فيه خطاؤه أو لحسناته الماحية أو لتوبته أو غير ذلك لكن يعلم الله أن رعايته من أعظم أصول الأسلام ولهذا كان امتياز أهل النجاة عن اهل العذاب من هذه الأمة بالسنة والجماعة ويذكرون في كتب السنة والجماعة من السنن والآثار فى ذلك مايطول ذكره وكان الأصل الثالث بعد الكتاب والسنة التي يجب تقديم العمل به هو الاجماع فان الله لايجمع هذه الأمة على ضلالة (النوع الخامس) هو شك كثير من الناس وطعنهم فى كثير مما أهل السنة والجماعة عليه متفقون بل وفى بعضها ماعليه أهل الأسلام بل وبعض ماعليه سائر أهل الملل متفقون وذلك من جهة نقلهم وروايتهم تارة ومن جهة تنازعهم ورأيهم أخرى أما الاول فقد علم أن الله حفظ هذا الدين كما قال (إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)[1] فحفظ الله الذكر الذي انزله على رسوله وأمر أزواج نبيه بذكره حيث يقول (واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة)[2] حفظه من أن يقع فيه من التحريف ماوقع فيما أنزل قبله كما عصم هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة فعصم حروف التنزيل أن تغير وحفظ تأويله أن يضل فيه أهل الهدى المتمسكون بالسنة والجماعة وحفظ أيضا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما ليس فيها من الكذب عمدا أو خطأ بما أقامه من علماء الحديث وحفاظه الذين فحصوا عنها وعن نقلها ورواتها وعلموا من ذلك مالم يعلمه غيرهم حتى صاروا مجتمعين على ماتلقوه بالقبول منها اجماعا معصوما من الخطأ لأسباب يطول وصفها فى هذا الموضع وعلموا اهم

١ - الحجر ٩
٢ - الأحزاب ٣٤

خصوصا وسائر علماء الأمة بل وعامتها عموما ماصانوا به الدين عن أن يزاد فيه أو ينقص منه مثل ماعلموا أنه لم يفرض عليهم في اليوم والليلة إلا الصلوات الخمس وأن مقادير ركعاتها مابين الثنائي والثلاثي والرباعي وانه لم يفرض عليهم من الصوم إلا شهر رمضان ومن الحج إلا حج البيت العتيق ومن الزكاة إلا فرائضها المعروفة إلى نحو ذلك وعلموا كذب أهل الجهل والضلالة فيما قد يؤثرونه عن النبي صلى الله عليه وسلم بكذب من يزعم من الرافضة أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على علي بالخلافة نصا قاطعا جليا وزعم آخرين أنه نص على العباس وعلموا أحاديث الرافضة والناصبة التي يؤثرونها في مثل الغزوات التي يروونها عن علي وليس لها حقيقة كما يرويها المكذبون الطرقية مثل اكاذيبهم الزائدة في سيرة عنترة والبطال حيث علموا مجموع مغازي رسول الله صلي الله عليه وسلم وان القتال فيها كان في تسع مغاز فقط ولم يكن عدد المسلمين ولا العدو في شيء من مغازي القتال عشرين الفا ومثل الفضائل المروية ليزيد بن معاوية ونحوه والأحاديث التي يرويها كثير من الكرامية في الارجاء ونحوه والأحاديث التي يرويها كثير من النساك في صلوات ايام الاسبوع وفي صلوات أيام الأشهر الثلاثة والأحاديث التي يروونها في استماع النبي صلى الله عليه وسلم هو واصحابه وتواجده وسقوط البردة عن ظهره وتمزيقه الثوب وأخذ جبريل لبعضه وصعوده به إلى السماء وقتال أهل الصفة مع الكفار واستماعهم لمناجاته ليلة الاسراء والأحاديث المأثورة في نزول الرب الى الأرض يوم عرفة وصبيحة مزدلفة ورؤية النبي صلى الله عليه وسلم له في الارض بعيني رأسه وأمثال هذه الاحاديث المكذوبة التي يطول وصفها فان المكذوب من ذلك لايحصيه أحد إلا الله لأن الكذب يحدث شيئا فشيئا ليس بمنزلة الصدق المورروث عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي لايحدث بعده وانما يكون موجودا في زمنه صلى الله عليه وسلم وهو محفوظ محروس بنقل خلفاء الرسول وورثة الأنبياء وكان من الدلائل علي انتفاء هذه الأمور المكذوبة وغيرها وجوه * أحدها أن ماتوفرت همم الخلق ودواعيهم على نقله واشاعته يمتنع في العادة كتمانه فانفراد العدد القليل به يدل على كذبهم كما يعلم كذب من خرج يوم

الجمعة وأخبر بحادثة كبيرة فى الجامع مثل سقوط الخطيب وقتله وإمساك أقوام فى المسجد إذا لم يخبر ذلك إلا الواحد والاثنان ويعلم كذب من أخبر أن فى الطرقات بلادا عظيمة وأمما كثيرين ولم يخبر بذلك السيارة وانما انفرد به الواحد والاثنان ويعلم كذب من أخبر بمعادن ذهب وفضة ظاهرة متيسرة لمن أرادها بمكان يعلمه الناس ولم يخبر بذلك إلا الواحد والاثنان وأمثال ذلك كثيرة فباعتبار العقل وقياسه وضربه الأمثال يعلم كذب ماينقل من الأمور التى مضت سنة الله بظهورها وانتشارها لو كانت موجودة كما يعلم أيضا صدق مامضت سنة الله فى عباده أنهم لايتواطئون فيه على الكذب من الأمور المتواترة والمنقولات المستفيضه فان الله جبل جماهير الأمم على الصدق والبيان فى مثل هذه الأمور دون الكذب والكتمان كما جبلهم على الأكل والشرب واللباس فالنفس بطبعها تختار الصدق إذا لم يكن لها فى الكذب غرض راجح وتختار الاخبار بهذه الأمور العظيمة دون كتمانها والناس يستخبر بعضهم ويميلون الى الاستخبار والاستفهام عما يقع وكل شخص له من يؤثر ان يصدقه ويبين له دون أن يكذبه ويكتمه والكذب والكتمان يقع كثيرا في بنى آدم فى قضايا كثيرة لاتنضبط كما يقع منهم الزنا وقتل النفوس والموت جوعا وعريا ونحو ذلك لكن ليس الغالب على أنسابهم الا الصحة وعلى أنفسهم الا البقاء فالغرض هنا ان الامور المتواترة تعلم انهم لم يتواطئوا فيها على الكذب والاخبار الشاذة تعلم أنهم لم يتواصوا فيها على الكتمان * الوجه الثانى أن دين الامة يوجب عليهم تبليغ الدين واظهاره وبيانه ويحرم عليهم كتمانه ويوجب عليهم الصدق ويحرم عليهم الكذب فتواطؤهم على ما يجب بيانه كتواطئهم على الكذب وكلاهما من أقبح الامور التى تحرم في دين الامة وذلك باعث يوجب الصدق والبيان * الثالث أنه قد علم من عدل سلف الامة ودينها وعظيم رغبتها فى تبليغ الدين واظهاره وعظيم مجانبتها للكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم مايوجب أعظم العلوم الضرورية بأنهم لم يكذبوا فيما نقلوه عنه ولا كتموا ماأمرهم بتبليغه وهذه العادة الخاصة الدينية لهم غير العادة العامة المشتركة بين جنس البشر * الرابع أن العلماء الخاصة يعلمون من نصوص رسول الله صلى

الله عليه وسلم الموجبة عليهم التبليغ ومن تعظيمهم لامر الله ورسوله ومن دين آحادهم مثل الخلفاء ومثل ابن مسعود وأبي ومعاذ وأبي الدرداء الى ابن عمر وابن عباس وابن عمرو وغيرهم يعلمون علما يقينيا لا يتخالجه ريب امتناع هؤلاء من كتمان قواعد الدين التي يجب تبليغها الى العامة كما يعلمون امتناعهم من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلم أيضا أهل الحديث مثل أحوال المشاهير بمعرفة ذلك مثل الزهري وقتادة ويحيى بن أبي كثير ومثل مالك والثوري وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وغيرهم أمورا يعلمون معها امتناعهم عن الكذب وامتناعهم عن كتمان تبليغ هذه الامور العظيمة التي تأبى أحوالهم كتمانها لو كانت موجودة ولهم في ذلك الباب مايطول شرحه وليس الغرض هنا تقرير ذلك وانما الغرض التنبيه على ماوقع من الشبهة لبعض الناس من أهل الاهواء قالوا هذا الذي ذكرتموه معارض بامر الاذان والاقامة فانه كان يفعل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كل يوم خمس مرات ومع هذا فقد وقع الاختلاف في صفته وكذلك الجهر بالبسملة والقنوت في الفجر وحجة الوداع من أعظم وقائعه وقد وقع الاختلاف في نقلها وذكروا نحو هذه الامور التي وقعت فيها الشبهة والنزاع عند بعض الناس وجعلوا هذا معارضا لما تقدم ليسوغوا أن تكون من امور الدين مالم ينقل بل كتم لاهواء وأغراض وأما جهة الرأي والتنازع فان تنازع العلماء واختلافهم في صفات العبادات بل وفي غير ذلك من أمور الدين صار شبهة لكثير من أهل الاهواء من الرافضة وغيرهم وقالوا ان دين الله واحد والحق لا يكون في جهتين (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)[1] فهذا التفرق والاختلاف دليل على انتفاء الحق فيما عليه أهل السنة والجماعة ويعبرون عنهم بعبارات تارة يسمونهم الجمهور وتارة يسمونهم الحشوية وتارة يسمونهم العامة ثم صار أهل الاهواء لما جعلوا هذا مانعا من كون الحق فيما عليه أهل السنة والجماعة كل ينتحل سبيلا من سبل الشيطان فالرافضة تنتحل النقل عن أهل البيت لكن لا وجود له وأصل من وضع ذلك لهم زنادقة مثل رئيسهم الاول عبد الله بن سبأ الذي ابتدع لهم الرفض ووضع لهم أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على علي بالخلافة وأنه ظلم ومنع حقه وقال انه كان معصوما وغرض الزنادقة

١ ـ النساء ٨٢

بذلك التوسل الى هدم الاسلام ولهذا كان الرفض باب الزندقة والالحاد فالصابئة المتفلسفة ومن أخذ ببعض أمورهم أوزاد عليهم من القرامطة والنصيرية والاسماعيلية والحاكمية وغيرهم انما يدخلون الى الزندقة والكفر بالكتاب والرسول وشرائع الاسلام من باب التشيع والرفض والمعتزلة ونحوهم تنتحل القياس والعقل ويطعن فى كثير مما ينقله أهل السنة والجماعة ويعللون ذلك بما ذكر من الاختلاف ونحوه وربما جعل ذلك بعض أعداء الملة من أسباب الطعن فيها وفى أهلها فيكون بعض هؤلاء المتعصبين ببعض هذه الامور الصغار داعيا فى هدم قواعد الاسلام الكبار *

﴿فصل﴾ اذا تبين بعض ماحصل فى هذا الاختلاف والتفرق من الفساد فنحن نذكر طريق زوال ذلك ونذكر ماهو الواجب فى الدين فى هذه المنازعات وذلك ببيان الأصلين الذين هما السنة والجماعة المدلول عليهما بكتاب الله فانه اذا اتبع كتاب الله وما تضمنه من اتباع رسوله والاعتصام بحبله جميعا حصل الهدى والفلاح وزال الضلال والشقاء أما الاصل الاول وهو الجماعة وبدأنا به لانه أعرف عند عموم الخلق ولهذا يجب عليهم تقديم الاجماع على ما يظنونه من معانى الكتاب والسنة فنقول عامة هذه التنازعات انما هى فى أمور مستحبات ومكروهات لافى واجبات ومحرمات فان الرجل اذا حج متمتعا أو مفردا أو قارنا كان حجه مجزئا عند عامة علماء المسلمين وان تنازعوا فى الافضل من ذلك ولكن بعض الخارجين عن الجماعة يمنع ذلك فمن الشيعة من يوجب المتعة ويحرم ماعداها ومن الناصبة من يحرم المتعة ولا يبيحها بحال وكذلك الاذان سواء رجع فيه أولم يرجع فانه أذان صحيح عند جميع سلف الامة وعامة خلفها وسواء ربع التكبير فى أوله أو ثناه وانما يخالف فى ذلك بعض شواذ المتفقهة كما خالف فيه بعض الشيعة فأوجب فيه الحيعلة بحى على خير العمل وكذلك الاقامة يصح فيها الافراد والتثنية بأيها أقام صحت اقامته عند عامة علماء الاسلام الا ماينازع شذوذ الناس وكذلك الجهر بالبسملة والمخافتة كلاهما جائز لايبطل الصلاة وان كان من العلماء من يستحب أحدهما ويكره الآخر ويختار أن لايقرأ بها فالمنازعة بينهم فى المستحب والافالصلاة بأحدهما جائزة عند عوام العلماء فانهم وان تنازعوا فى الجهر والمخافتة فى موضعهما

هل هما واجبان أم لا وفيه نزاع معروف في مذهب مالك واحمد وغيرهما فهذا فى الجهر والطويل بالقدر الكثير مثل المخافتة بقرآن الفجر والجهر بقراءة صلاة الصبح فأما الجهر بالشيء اليسير أو المخافتة به فما ينبغى لاحد أن يبطل الصلاة بذلك وما أعلم أحدا قال به فقد ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان فى صلاة المخافتة يسمعهم الآية أحيانا وفى صحيح البخارى عن رفاعة ابن رافع الزرقى قال كنا نصلى وراء النبى صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركعة قال سمع الله لمن حمده قال رجل وراءه ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه فلما انصرف قال من المتكلم قال أنا قال رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أول ومعلوم أنه لولا جهره بها لماسمعه النبى صلى الله عليه وسلم ولا الراوى ومعلوم أن المستحب للمأموم المخافتة بمثل ذلك وكذلك ثبت فى الصحيح عن عمر انه كان يجهر بدعاء الاستفتاح سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك وهذا فعله بين المهاجرين والانصار. والسنة الراتبة فيه المخافتة وكذلك كان من الصحابة من يجهر بالاستعاذة. وفى الصحيح عن ابن عباس أنه جهر بقراءة الفاتحة على الجنازة وقال لتعلموا أنها السنة. ولهذا نظائر. وأيضا فلا نزاع أنه كان من الصحابة من يجهر بالبسملة كابن الزبير ونحوه ومنهم من لم يكن يجهر بها كابن مسعود وغيره وتكلم الصحابة فى ذلك ولم يبطل أحد منهم صلاة أحد في ذلك وهذا مما لم أعلم فيه نزاعا وان تنازعوا فى وجوب قراءتها فتلك مسألة أخرى وكذلك القنوت في الفجر وانما النزاع بينهم في استحبابه أو كراهته وسجود السهو لتركه أو فعله والا فعامتهم متفقون على صحة صلاة من ترك القنوت وانه ليس بواجب وكذلك من فعله اذهو تطويل يسير للاعتدال ودعاء لله في هذا الموضع ولو فعل ذلك فى غير صلاة الفجر لم تبطل صلاته باتفاق العلماء فيما أعلم وكذلك القنوت فى الوتر هل هو في جميع الحول أوفى النصف الاخر من رمضان انما هو في الاستحباب اذلا نزاع أنه لايجب القنوت ولا تبطل الصلاة وكذلك كونه قبل الركوع أو بعده وكذلك التسليمة الثانية هل هى مشروعة فى الصلاة الكاملة والناقصة أوفى الكاملة فقط أم ليست مشروعة انما هو نزاع فى

الاستحباب لكن عن أحمد رواية أن التسليمة الثانية واجبة في الصلاة الكاملة إما وجوب الاركان أو وجوب ما يسقط بالسهو على نزاع فى ذلك والرواية الأخرى الموافقة للجمهور أنها مستحبة فى الصلاة الكاملة وكذلك تكبيرات العيد الزوائد انما النزاع فى المستحب فيها والا فلا نزاع فى أنه يجزىء ذلك كله وكذلك أنواع التشهدات كلها جائز ما أعلم فى ذلك خلافا الا خلافا شاذا وانما النزاع فى المستحب وكذلك أنواع الاستفتاح فى الصلاة وأصل الاستفتاح انما النزاع فى استحبابه وفى أي الانواع أفضل والخلاف فى وجوبه خلاف قليل يذكر قولا فى مذهب الامام احمد واذا كان النزاع انما هو فى الاستحباب علم الاجماع على جواز ذلك وأجزائه ويكون ذلك بمنزلة القراآت فى القرآن فان جميعها جائز وان كان من الناس من يختار بعض القراآت علي بعض وبهذا يزول الفساد المتقدم فانه اذا علم أن ذلك جميعه جائز مجزىء فى العبادة لم يكن النزاع فى الاختيار ضارا بل قد يكون النوعان سواء وان رجح بعض الناس بعضها ولو كان أحدهما أفضل لم يجز أن يظلم من يختار المفضول ولا يذم ولا يعاب باجماع المسلمين بل المجتهد المخطىء لا يجوز ذمه باجماع المسلمين ولا يجوز التفريق بذلك بين الامة ولا أن يعطي المستحب فوق حقه فانه قد يكون من أتى بغير ذلك المستحب من أمور أخرى واجبة ومستحبه أفضل بكثير ولا يجوز أن يجعل المستحبات بمنزلة الواجبات بحيث يمنع الرجل من تركها ويرى أنه قد خرج من دينه أو عصى الله ورسوله بل قد يكون ترك المستحبات لمعارض راجح أفضل من فعلها بل الواجبات كذلك ومعلوم أن ائتلاف قلوب الامة واجتماعهم أعظم فى الدين من بعض هذه المستحبات فلو تركها المرء لائتلاف القلوب كان ذلك حسنا وذلك أفضل اذا كان مصلحة ائتلاف القلوب دون مصلحة ذلك المستحب. وقد أخرجا فى الصحيحين عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لنقضت الكعبة ولالصقتها بالارض ولجعلت لها بابين بابا يدخل الناس منه و بابا يخرجون منه» وقد احتج بهذا الحديث البخارى وغيره على أن الامام قد يترك بعض الامور المختارة لاجل تأليف القلوب ودفعا لنفرتها ولهذا نص الامام أحمد على أنه يجهر بالبسملة عند

المعارض الراجح فقال يجهر بها اذا كان بالمدينة قال القاضى لان أهلها اذ ذاك كانوا يجهرون فيجهر بها للتأليف وليعلمهم أنه يقرأ بها وقال غيره بل لانهم كانوا لا يقرؤنها بحال فيجهر بها ليعلمهم أنه يقرأ بها وان قراءتها سنة كما جهر ابن عباس بقراءة الفاتحة فى صلاة الجنازة فهذا أصل عظيم ينبغى مراعاته وبهذا يزول الشك والطعن فان الاتفاق اذا حصل على جواز الجميع واجزائه علم أنه داخل فى المشروع فالتنازع فى الرجحان لا يصير كالتنازع فى رجحان بعض القراآت وبعض العبادات وبعض العلماء ونحو ذلك بل قد أمر النبي صلى الله عليه وسلم كلا من القراء أن يقرأ كما يعلم ونهاهم عن الاختلاف في ذلك فمن خالف فى ذلك كان ممن ذمه الله ورسوله فأما أهل الجماعة فلا يختلفون فى ذلك *

وأما الاصل الثانى فنقول السنة المحفوظة عن النبى صلى الله عليه وسلم فيها من السعة والخير ما يزول به الحرج وانما وقعت الشبهة لاشكال بعض ذلك على بعض الناس أما الاذان فقد ثبت فى الاحاديث الصحيحة أن النبى صلي الله عليه وسلم سن في الاقامة الايتار والشفع فى الصحيحين أنه أمر بلالا أن يشفع الاذان ويوتر الاقامة * وفى صحيح مسلم أنه علم أبا محذورة الاقامة مثنى مثنى مثل الاذان فاذا كان كل واحد من مؤذنى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمره النبى صلى الله عليه وسلم بأحد النوعين صار ذلك مثل تعليمه القرآن لعمر بحرف ولهشام بن حكيم بحرف آخر وكلاهما قرآن أذن الله أن يقرأ به وكذلك الترجيع فى الأذان هو ثابت فى أذان أبى محذرة وهو محذوف من أذان بلال الذى رووه فى السنن وكذلك الجهر بالبسملة والمخافتة بها صح الجهر بها عن طائفة من الصحابة وصحت المخافتة بها عن أكثرهم وعن بعضهم الأمران جميعا وأما المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم فالذى فى الصحاح والسنن يقتضى أنه لم يكن يجهر بها كما عليه أكثر الصحابة وأمته ففى الصحيح حديث أنس وعائشة وأبى هريرة يدل على ذلك دلالة بينة لا شبهة فيها : وفى السنن أحاديث أخر مثل حديث ابن معقل وغيره وليس فى الصحاح والسنن حديث فيه ذكر جهره بها والاحاديث المصرحة بالجهر عنه كلها ضعيفة عند أهل العلم بالحديث ولهذا لم يخرجوا فى

أمهات الدواوين منها شيئا ولكن فى الصحاح والسنن احاديث محتملة وقد روى الطبرانى باسناد حسن عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجهر بها إذ كان بمكة وأنه لما هاجر إلى المدينة ترك الجهر بها حتى مات . ورواه أبو داود فى الناسخ والمنسوخ وهذا يناسب الواقع فان الغالب على أهل مكة كان الجهر بهاوأماأهل المدينة والشاموالكوفةلم يكونوا يجهرونوكذلكا كثرالبصريين وبعضهم كان يجهر بها ولهذا سألوا أنسا عن ذلك ولعل النبى صلى الله عليه وسلم كان يجهر بهـا بعض الأحيان أو جهرا خفيا إذا كان ذلك محفوظا وإذا كان فى نفس كتب الحديث أنه فعل هـذا مرة وهذا مرة زالت الشبهة * وأما القنوت فأمره بين لاشبهة فيه عند التأمل التام فأنه قد ثبت في الصحاح عن النبي صـلى الله عليـه وسلم انه قنت فى الفجر مرة يدعو على رعل وذكوان وعصية ثم تركه ولم يكن تركه نسخا لانه ثبتعنه فى الصحاحانه قنت بعد ذلك يدعو للمسلمين مثل الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام والمستضعفين من المؤمنين ويدعو على مضر وثبت عنـه أنه قنت أيضا فى المغرب والعشاء وسائر الصلوات قنوت استنصار فهـذا فى الجملة فنقول ثابت عنه لكن اعتقد بعض العلماء من الكوفيين أنه تركه ترك نسخ فاعتقد أن القنوت منسوخ واعتقد بعضهم من المكيين أنه مازاليقنت فى الفجر القنوت المتنازع فيه حتى فارق الدنيا والذى عليه أهل المعرفة بالحديث أنه قنت لسبب ثم تركه لزوال السبب فالقنوت من السنن العوارض لاالرواتب لانه ثبت أنه تركه لما زال العارض ثم عاد اليه مرةأخرى ثم تركه لمازال العارض وثبت فىالصحاحانه لم يقنت بعد الركوع إلا شهرا هكذا ثبت عن أنس وغيره ولم ينقل أحد قط عنه انه قنت القنوت المتنازع فيه لاقبل الركوعولا بعدهولافى كتب الصحاح والسنن شيء من ذلك بل قد أنكر ذلك الصـحابة كابن عمر وأبي مالك الأشجعى وغيرهما ومن المعلوم قطعا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لو كان كل يوم يقنت قنوتا يجهر به لكان له فيه دعاء ينقله بعض الصحابة فانهم نقلوا ما كان يقوله فى القنوت العارضوقنوت الوتر فالقنوتالراتب أولىأن ينقل دعاؤه فيه فاذا كان الذى يستحبه إنما يدعو فيه بقنوت الوتر علم أنه ليس فيـه

شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم وهذا مما يعلم باليقين القطعي كما يعلم عدم النص على هذا وأمثاله فأنه من الممتنع أن يكون الصحابة كلهم أهملوا نقل ذلك فأنه مما يعلم بطلانه قطعا وكذلك المأثور عن الصحابة مثل عمر وعلي وغيرهما هو القنوت العارض قنوت النوازل ودعا عمر فيه وهو قوله اللهم عذب كفرة أهل الكتاب إلى آخره يقتضي أنه دعا به عند قتاله للنصارى وكذلك دعا على عند قتاله لبعض أهل القبلة والحديث الذى فيه عن أنس انه لم يزل يقنت حتى فارق الدنيا مع ضعف في اسناده وانه ليس فى السنن إنما فيه القنوت قبل الركوع وفى الصحاح عن أنس أنه قال لم يقنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الركوع إلا شهرا والقنوت قبل الركوع هو القيام الطويل إذ لفظ القنوت معناه دوام الطاعة فتارة يكون فى السجود وتارة يكون فى القيام كما قد بيناه فى غير هذا الموضع وأما حجة الوداع وان اشتبهت على كثير من الناس فأنما أتوا من جهة الألفاظ المشتركة حيث سمعوا بعض الصحابة يقول إنه تمتع بالعمرة إلى الحج وهؤلاء يقولون إنه أفرد الحج ويقول بعضهم انه قرن العمرة الى الحج ولا خلاف فى ذلك فانهم لم يختلفوا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحل من احرامه وأنه كان قد ساق الهدى ونحره يوم النحر وأنه لم يعتمر بعد الحجة فى ذلك العام لا هو ولا أحد من أصحابه إلا عائشة أمر أخاها أن يعمرها من التنعيم أدنى الحل وكذلك الأحاديث الصحيحة عنه فيها أنه لم يطف بالصفا والمروة الا مرة واحدة مع طوافه الأول فالذين نقلوا أنه أفرد الحج صدقوا لانه أفرد أعمال الحج لم يقرن بها عمل العمرة كما يتوهم من يقول أن القارن يطوف طوافين ويسعى سعيين ولم يتمتع تمتعا حل به من احرامه كما يفعله المتمتع الذى لم يسق الهدى بل قد أمر جميع أصحابه الذين لم يسوقوا الهدى أن يحلوا من احرامهم ويجعلوها عمرة ويهلوا بالحج بعد قضاء عمرتهم *

﴿ قاعدة فى أن الأعتقادات قد تؤثر فى الأحكام ﴾

هذه قاعدة عظيمة جامعة متشعبة وللناس فى تفاصيلها اضطراب عظيم حتى منهم من صار فى طرفى نقيض فى كلا نوعى الأحكام العلمية الشرعية والأحكام العينية النظرية وذلك أن كل واحد من العلوم والاعتقادات والاحكام والكلمات بل

والمحبة والاردات إما أن يكون تابعا لمتعلقه مطابقا له وإما أن يكون متبوعه تابعا له مطابقا له ولهذا اقسمت الحق والحقائق والكلمات إلي موجود ومقصود إلى كونى ودينى الى قدرى وشرعى كما قد بينته فى غير هذا الموضع وقد تنازع النظار فى العلم هل هو تابع للمعلوم غير مؤثر فيه بل هو انفعالى كما يقوله كثير من أهل الكلام أو المعلوم تابع له والعلم مؤثر فيه وهو فعلى كما يقوله كثير من أهل الفلسفة والصواب أن العلم نوعان أحدهما تابع والثانى متبوع والوصفان يجتمعان فى العلم غالبا أو دائما فعلمنا بمالا يفتقر الى علمنا كعلمنا بوجود السموات والارض وكذلك علمنا بالله وأسمائه وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والنبيين وغير ذلك علم تابع انفعالى وعلمنا بما يقف على علمنا مثل ما يريده من أفعالنا علم فعلى متبوع وهو سبب لوجود المعلوم وكذلك علم الله بنفسه المقدسة تابع غير مؤثر فيها وأما علمه بمخلوقاته فهو متبوع وبه خلق الله الخالق كما قال تعالى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) فان الارادة مستلزمة للعلم فى كل مريد كما أن هذه الصفات مستلزمة للحياة فلا ارادة الا بعلم ولا ارادة وعلم الا بحياة وقد يجوز أن يقال كله علم فهو تابع للمعلوم مطابق سواء كان سببا فى وجود المعلوم أو لم يكن فيكون اطلاق المتكلمين أحسن وأصوب من اطلاق المتفلسفة ان كل علم فهو فعلى متبوع وما أظن العقلاء من الفريقين الا يقصدون معنى صحيحا وهو أن يشيروا الى ماتصوروه فينظر هؤلاء فى أن العلم تابع لمعلومه مطابق له ويشيروا هؤلاء الى مافى حسن العلم فى الجملة من أنه قد يؤثر فى المعلوم وغيره ويكون سببا له وأن وجود الكائنات كان بعلم الله وعلم الانسان بما هو حق أو باطل وهدى أو ضلال ورشاد أو غي وصدق أو كذب وصلاح أو فساد من اعتقاداته وارادته وأقواله وأعماله ونحو ذلك يجتمع فيه الوصفان بل غالب العلم أو كله يجتمع فيه الامران ولهذا كان الايمان قولا أو عملا قول القلب وعمله وقول الجسد وعمله فانه من عرف الله أحبه فعمله بالله تابع للمعلوم ومتبوع لحبه لله ومن عرف الشيطان أبغضه فمعرفته به تابعة للمعلوم ومتبوعة لبغضه وكذلك عامة العلم لابد أن يتبعه أثر مافى العالم من حب أو غيره حتى علم الرب سبحانه بنفسه المقدسة يتبعه

١ ـ الملك ١٤

صفات وكلمات وأفعال متعلقة بنفسه المقدسة فما من علم إلا ويتبعه حال ما وعمل ما فيكون متبوعا مؤثرا فاعلا بهذا الاعتبار وما من علم إلا وهو مطابق لمعلومه موافق له سواء كان المعلوم مستغنيا عنه أو كان وجود المعلوم بوجوده فيكون تابعا منفعلا مطابقا بهذا الاعتبار لكن كل علم وان كان له تأثير فلا يجب أن يكون تأثيره في معلومه فان من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فأحب الله وملائكته وأنبياءه والجنة وأبغض النار لم يكن علمه بذلك مؤثرا فى المعلوم وإنما أثر فى محبة المعلوم وارادته او فى بغضه وكراهته كذلك وإن كان كل علم فانه مطابق للمعلوم لكن قد يكون ثبوت المعلوم فى ذهن العالم وتصوره قبل وجوده في الخارج كتصور الانسان لأقواله وأعماله وقد يكون وجوده في الخارج قبل تصور الانسان له وعلمه أو بدون تصور الانسان له فلهذا التفريق حصل التقسيم الذي قدمناه من أنه ينقسم إلى مؤثر فى المعلوم وغير مؤثر فيه وإلى تابع للمعلوم وغير تابع له وان كان كل علم فان له أثرا فى نفس العالم وإن كان كل علم فانه تابع تبع المطابقة والموافقة وإن لم يكن بعضه تابعا تبع التأخر والتأثر والافتقار والتعلل فهذه مقدمة جامعة نافعة جدا فى أمور كثيرة إذا تبين هذا فى جنس العلم ظهر ذلك فى الاعتقاد والرأى والظن ونحو ذلك الذى قد يكون علما وقد لا يكون علما بل يكون اعتقادا صحيحا أو غير صحيح او ظنا صحيحا أو غير صحيح أو غير ذلك من أنواع الشعور والاحساس والادراك فان هذا الجنس هو الأصل فى الحركات والأفعال الروحانية والجسمانية ما كان من جنس الحب والبغض وغير ذلك وما كان من جنس القيام والقعود وغير ذلك فان جميع ذلك تابع للشعور مفتقر اليه مسبوق به والعلم أصل العمل مطلقا وإن كان قد يكون فرعا لملوم غير العمل كما تقدم. فالاعتقاد تارة يكون فرعا للمعتقد تابعا له كاعتقاد الأمور الخارجة عن كسب العبد كاعتقاد المؤمنين والكفار فى الله تعالى وفى اليوم الآخر وقد يكون أصلا للمعتقد متبوعا له كاعتقاد المنقد وظنه إن هذا العمل يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة إما فى الدنيا وإما فى الآخرة مثل إعتقاده أن أكل هذا الطعام يشبعه وأن

تناول هذا السم يقتله وأن هذه الرمية تصيب هذا الغرض وهـذه الضربة تقطع هذا العنق وهذا البيع والتجارة يورثه ربحا أو خسارة وأن صلاته وزكاته وحجه وبره وصدقه ونحو ذلك من الأعمال الصالحة يورثه السعادة في الدنيـا والآخرة وأن كفره وفسوقه وعصيانه يورثه الشقاوة فى الدنيا والآخرة.وهذا باب واسع تدخل فيه الديانات والسياسات وسائر الأعمال الدينية و الدنيوية ويشترك فيـه الدين الصحيح والفاسد لكن هذا الاعتقاد العملى لابد أن يتعلق ايضا بأمور غير العمل فان اعتقاده أن هذا العمل ينفعه فى الدنيا والآخرة أو يضره يتعلق أيضا بصفات ثابتة الأعيان لا يتعلق باعتقاده كما أن الاعتقاد النظرى وإن كان معتقده غير العمل فانه يتبعه عمل كما تقدم أن كلا من الأعتقادين تابع متبوع والأحكام أيضا من جنس الأعتقادات فانه أيضا ينقسم قسمين:أحكام عينية تابعة للمحكوم فيه كالحكم بما يستحقه الله تعـالي من الحمد والثناء وما يتقدس عنـه من الفقر والشركاء وأحكام عملية يتبعها المحكوم فيه كالحكم بان هذا العمل حسن أو قبيح صالح او فاسـد خير أو شر نافع أو ضار واجب او محرم مأمور به أو منهى عنه رشاد أوغى عدل أو ظلم. وكذلك الكلمات فانها تنقسم إلى خبرية وانشائية فالكلمات الخبرية تطابق المخبر عنه وتتبعه وهى موافقة للعلم التابع والأعتقاد التابع والحكم التابع. والكلمات الانشائية مثل الأمر والنهى والاباحة تستتبع المتكلم فيه المأمور به والمنهى عنه والمباح ويكون سببا فى وجوده أو عدمه كالعلم المتبوع والاعتقاد المتبوع وهو الحكم العملى.إذا عرف هذان النوعان فمن النـاس من يسمى العلم والأعتقاد والحكم والقـول الخبرى التابع علم الأصـول وأصول الدين أو علم الكلام أو الفقه الأ كبر ونحو ذلك من الاسماء المتقاربة وإن اختلفت فيها المقاصد والاصطلاحات. و يسمى النوع الآخر علم الفروع وفروع الدين وعلم الفقه والشريعة ونحو ذلك من الأسماء.وهذا اصطلاح كثير من المتفقهة و المتكلمة المتأخرين ومن الناس من يجعل أصول الدين اسما لـكل ما اتفقت فيه الشرائع ممـا لا ينسخ ولا يغير سـواء كان علميا أو عمليا سواء كان من القسم الأول أو الآخر حتى يجعل عبادة الله وحده ومحبته وخشيته ونحو ذلك من أصول الدين وقد يجعل بعض الأمور

الاعتقادية الخبرية من فروعه ويجعل اسم الشريعة ينتظم العقائد والأعمال ونحو ذلك وهذا اصطلاح غلب على أهل الحديث والتصوف وعليه أئمة الفقهاء وطائفة من أهل الكلام *

فصل

إذا تبين هذا فمن الناس من صار فى طرف نقيض فحكى عن بعض السوفسطائية أنه جعل جميع العقائد هى المؤثرة فى الاعتقادات ولم يجعل للأشياء حقائق ثابتة فى نفسها يوافقها الاعتقاد تارة ويخالفها أخرى بل جعل الحق فى كل شىء ما اعتقده المعتقد وجعل الحقائق تابعة للعقائد وهذا القول على اطلاقه وعمومه لا يقوله عاقل سليم العقل وإنما هو من جنس ما يحكى أن السوفسطائية أنكروا الحقائق ولم يثبتوا حقيقة ولا علما بحقيقة وأن لهم مقدما يقال له سوفسطا كما يذكره فريق من أهل الكلام .وزعم آخرون أن هذا القول لا يعرف أن عاقلا قاله ولا طائفة تسمى بهذا الأسم وإنما هى كلمة معربة من اللغة اليونانية ومعناها الحكمة المموهة يعنون الكلام الباطل الذى قد يشبه الحق كما قد يتخيله الأنسان لفساد عقله أو مزاجه أو اشتباه الأمر عليه وجعلوا هـذا نوعا من الكلام والرأى يعرض للنفوس لا أنه صنف من الآدميين. وبكل حال فمعلوم أن التخيلات الفاسدة كثيرا ما تعرض لبنى آدم بل هى كثيرة عليهم وهم يجحدون الحق إما عنادا واما خطأ فى أمور كثيرة وفي أحوال كثيرة وإن كان الجاحد قد يقر بحق آخر أو يقر بذلك الحق فى وقت آخر فالجهل والعناد الذى هو السفسطة هو فيهم خاصا مقيدا إلا أنه عام مطلق قد يبتلى به بعضـهم مطلقا وان لم يستمر به الأمر وقد يبتلى به فى شىء بعينه على سبيل الدوام واما ابتلاء الشخص المعين به فقد يكون اما مع فساد العقل المسقط للتكليف وهو الجنون وأما مع صحة العقل المشروط فى التكليف فما أعلم شخصا جاهلا بكل شىء معاندا لكل شىء حتى يكون سوفسطائيا. ومما يبين أن هذا لم يقع عند المتكلمة أيضا أن كثيرا من متكلمة أهل الحديث والسنة وغيرهم يقولون إن العقل المشروط فى التكليف نوع من العلوم الضرورية كالعلم بوجوب الواجبات وجواز الجائزات

وامتناع الممتنعات.واستدلوا على ذلك بأن العاقل لايخلو من علم شيء من ذلك وهذا قول القاضي أبي بكر وابن الباقلاني وأبي الطيب الطبري والقاضي أبي يعلى وابن عقيل وغيرهم فمن كان هذا قوله لم يصح أن يحكى عن عاقل أنه أنكر العلوم جميعها إلاعلى سبيل العناد ومعلوم أن العناد لايكون إلالغرض وليس لأحد غرض أن يعاند في كل شيء ويجحده على سبيل الدوام ومن الناس بازاء هؤلاء من قد يتوهم أنه لاتأثير للعقائد في المعتقدات ولا تختلف الأحكام باختلاف العقائد بل يتخيل أنه إذا اعتقد وجوب فعل أو تحريمه كان من خرج عن اعتقاده مبطلا مرتكبا للمحرم أو تاركا للواجب وأنه يستحق من الذم والعقاب مايستحقه جنس من ترك الواجب أو فعل المحرم وإذا عورض بأنه متأول أو مجتهد لم يلتفت الى هذاوقال هو ضال مخطيء مستحق للعقاب وهذا أيضا على اطلاقه وعمومه لا يعتقده صحيح العقل والدين ماأعلم قائلا به على الاطلاق والعموم كالطرف الأول وإنما أعلم أقواما وطوائف يبتلون ببعض ذلك ولوازمه في بعض الأشياء فان من غالب من يقول بعصمة الأنبياء والأئمة الأثني عشر عن الخطأ في الأقوال والأعمال من قد يرى أنه لو أخطأ الامام في فعل لكان ذلك عيبا وذما وبين هذين الطرفين المتباعدين أطراف أيضا نشأ عنها اختلاف الناس في تصويب المجتهدين وتخطئتهم في الأصول والفروع كما سننبه عليه إن شاء الله *

فصل

والمتحقق أن الأحكام والأقوال والاعتقادات كما تقدم نوعان: عيني وعملي تابع للمعتقد ومتبوع للمعتقد فرع للمعتقد وأصل له. فأما الأول وهو العيني التابع للمعتقد المتفرع عليه فهذا لاتؤثر فيه الاعتقادات ولا يختلف باختلافها فان حقائق الموجودات ثابتة في نفسها سواء اعتقدها الناس أولم يعتقدوها وسواء اتفقت عقائدهم فيها أو اختلفت وإذ اختلف الناس فيها على قولين متناقضين لم يكن كل مجتهد مصيبا بمعنى أن قوله مطابق للمعتقد موافق له لايقول ذلك عاقل كما تقدم ومن حكى عن أحد من علماء المسلمين سواء كان عبيد الله بن الحسن العنبري أو

غيره أنه قال كل مجتهد فى الاصول مصيب بمعنى أن القولين المتناقضين صادقان مطابقان . فقد حكى عنه الباطل بحسب وهمه وإذا رد هذا القول وأبطله فقد أحسن فى رده وابطاله وإن كان هذا القول المردود لاقائل به ولكن المنازعات والمخالفات فى هذا الجنس تشتمل على أقسام وذلك أن التنازع إما أن يكون فى اللفظ فقط أو فى المعني فقط أو فى كل منهما أو فى مجموعهما . فان كان فى المعنى مع اللفظ أو بدونه فلا يخلو اما أن يتناقض المعنيان أو يمكن الجمع بينهما فان كان النزاع فى المعنيين المتناقضين فأحد القولين صواب والآخر خطأ وأما بقية الاقسام فيمكن فيها أن يكون القولان صوابا ويمكن أن يكون الجميع خطأ ويمكن أن يكون كل منهما أو أحدهما صوابا أو من وجه خطأ دون وجه وحيث كان القولان خطأ وقد لايكون وإذا لم يكن كفرا فقد يكون فسوقا وقد لايكون . فمن قال ان المتنازعين كل منهما صواب بمعنى الاصابة فى بعض الأقسام المتقدمة أو بمعنى أنه لايعاقب على ذلك فهذا ممكن وأما تصويب المتناقضين فمحال. فانه كثيرا مايكون النزاع فى المعنى نزاع تنوع لانزاع تضاد وتناقض فيثبت أحدهما شيئا وينفى الآخر شيئا آخر ثم قد لايشتركان فى لفظ مانفاه أحدهما وأثبته الآخر وقد يشتركان فى الالفاظ فيكون التناقض والاختلاف فى اللفظ وأما المعنى فلا يختلفان فيه ولا يتناقضان. ثم قد يكونان متفقين عليه يقوله كل منهما وقد يكون أحدهما قاله أو يقوله والآخر لايتعرض له بأثبات ولا نفى وقد يكون النزاع اللفظى مع اتحاد المعنى لاتنوعه وكثير من تنازع الأمة فى دينهم هو من هذا الباب فى الأصول والفروع والقرآن والحديث وغير ذلك . مثال التنوع الذى ليس فيه نزاع لفظى أن يقول أحدهما الصراط المستقيم هو الأسلام ويقول الآخر هو السنة والجماعة ويقول الآخر هو القرآن ويقول الآخر هو طريق العبودية فان هذا تنوع فى الاسماء والصفات التى تبين بها الصراط المستقيم بمنزلة اسماء الله واسماء رسوله وكتابه وليس بينها تضاد لا فى اللفظ ولا فى المعنى وكذلك إذا قال بعضهم فى السابق والمقتصد والظالم أقوالا يذكر فيها كل قوم نوعا من المسلمين ويكون الاسم متناولا للجميع من غير منافاة. ومثال التنوع الذى فيه نزاع لفظى لأجل اشتراك اللفظ كما قيل: أكثر اختلاف العقلاء

من جهة اشتراك الاسماء تنازع قوم فى ان محمداً رأى ربه فى الدنيا أوفى الآخرة فقال قوم رآه فى الدنيا لأنه رآه قبل الموت وقال آخرون بل فى الآخرة لانه رآه وهو فوق السموات ولم يره وهو فى الارض والتحقيق أن لفظ الآخرة يراد به الحياة الدنيا والحياة الآخرة ويراد به الدار الدنيا والدار الآخرة ومحمد رأى ربه فى الحياة الدنيا فى الدار الآخرة وكذلك كثير ممن يتنازعون فى أن الله فى السماء أوليس فى السماء فالمثبتة تطلق القول بان الله فى السماء كما جاءت به النصوص ودلت عليه بمعنى أنه فوق السموات على عرشه بائن من خلقه وآخرون ينفون القول بان الله فى السماء ومقصودهم أن السماء لاتحويه ولا تحصره ولا تحمله ولا تقله ولا ريب أن هذا المعنى صحيح أيضا فان الله لاتحصره مخلوقاته بل وسع كرسيه السموات والارض والكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة وكذلك ليس هو مفتقرا الى غيره محتاجا اليه بل هو الغنى عن خلقه الحى القيوم الصمد فليس بين المعنيين تضاد ولكن هؤلاء أخطأوا فى نفى اللفظ الذى جاء به الكتاب والسنة وفى توهم أن اطلاقه دال على معنى فاسد وقد يعذر بعضهم اذا رأى من أطلق هذا اللفظ وأراد به أن السماء تقله أو تظله واذا أخطأ من عنى هذا المعنى فقد أصاب وأما الاول فقد أصاب فى اللفظ لاطلاقه ما جاء به النص وفى المعنى الذى تقدم لانه المعنى الحق الذى دل عليه النص لكن قد يخطىء بعضهم فى تكفير من يطلق اللفظ الثانى اذا كان مقصوده المعنى الصحيح فان من عنى المعني الصحيح لم يكفر باطلاق لفظ وان كان مسيئا أو فاعلا أمرا محرما وأما من فسر قوله انه ليس فى السماء بمعنى أنه ليس فوق العرش وانما فوق السموات عدم محض فهؤلاء هم الجهمية الضلال المخالفون لاجماع الانبياء ولفطرة العقلاء*

فصل

ونحن نذكر من ذلك أصولا (أحدها) تأثير الاعتقادات فى رفع العذاب والحدود فنقول: ان الاحكام الشرعية التي نصبت عليها أدلة قطعية معلومة مثل الكتاب والسنة المتواترة والاجماع الظاهرة كوجوب الصلاة والزكاة والحج

والصيام وتحريم الزنا والخمر والربا اذا بلغت هذه الادلة للمكلف بلاغا يمكنه من اتباعها فخالفها تفريطا في جنب الله وتعديا لحدود الله فلا ريب أنه مخطىء آثم وان هذا الفعل سبب لعقوبة الله فى الدنيا والآخرة فان الله أقام حجته على خلقه بالرسل الذين بعثهم اليهم مبشرين ومنذرين (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)[١] قال تعالى عن أهل النار (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ان أنتم الا فى ضلال كبير)[٢] وقال تعالى (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين). وأما اذا كان فى الفعل والحادثة والمسئلة العملية نص لا يتمكن المكلف من معرفته ومعرفة دلالته مثل أن يكون الحديث النبوى الوارد فيها عند شخص لم يعلم به المجتهد ولم يشعر بما يدله عليه أو تكون دلالته خفية لا يقدر المجتهد على فهمها أو لم يكن فيها نص بحال فهذا مورد نزاع فذهب فريق من أهل الكلام مثل أبى على وأبى هاشم والقاضى ابى بكر والغزالى الى قول مبتدع يشبه فى المجتهدات قول الزنادقة الاباحية فى المنصوصات وهو أنه ليس لهذه الحادثة حكم عند الله فى نفس الامر وانما حكمه في حق كل مكلف يتبع اجتهاده واعتقاده فمن اعتقد وجوب الفعل فهو واجب عليه ومن اعتقد تحريمه فهو حرام عليه و بنوا ذلك على مقدمتين احداهما أن الحكم انما يكون بالخطاب فما لا خطاب فيه لا حكم لله فيه فاذا لم يكن للعقل فيه حكم اما لعدم الحكم العقلى مطلقا أو فى هذه الصورة علم انه لا حكم فيه يكون من أصابه مصيبا ومن أخطأه مخطئا (الثانى) انه قد علم أن من اعتقد وجوب شيء فعليه فعله ومن اعتقد تحريمه فعليه اجتنابه فالحكم فيه يتبع الاعتقاد. قالوا والاحكام الشرعية تختلف باختلاف أحوال المكلفين فى اجتهاداتهم وغير اجتهاداتهم بدليل اتفاق الفقهاء وأهل السنة على أن الاجتهاد والاعتقاد يؤثر فى رفع الاثم والعقاب كما جاءت به النصوص وأن الوجوب والتحريم يختلف بالاقامة والسفر والطهارة والحيض والعجز والقدرة وغير ذلك فيجوز أن تختلف الاحكام باختلاف الاعتقادات

١ ـ النساء ١٦٥
٢ ـ الملك ٨ ـ ٩

ويكون الحكم فى حق المجتهد عند عدم النص ما اعتقده .هذا ملخص قولهم .وأما السلف والفقهاء والصوفية والعامة وجمهور المتكلمين فعلى انكار هذا القول وانه مخالف للكتاب والسنة واجماع السلف بل هو مخالف للعقل الصريح حتى قال أبو اسحاق الاسفرايني وغيره هذا المذهب أوله سفسطة وآخره زندقة يعنى أن السفسطة جعل الحقائق تتبع العقائد كما قدمناه فمن قال ان الايجاب والتحريم يتبع الاعتقادات فقد سفسط فى الاحكام العملية وان لم يكن مسفسطا فى الاحكام العينية وقد قدمنا أنه لم تجر العادة بان عاقلا يسفسط فى كل شيء لا خطأ ولا عمدا الا ضلا لا ولا عنادا الا جهلا ولا تجاهلا .وأما كون آخره زندقة فلأنه يرفع الامر والنهي والايجاب والتحريم والوعيد فى هذه الاحكام ويبقى الانسان ان شاء أن يوجب وان شاء أن يحرم وتستوى الاعتقادات والافعال وهذا كفر وزندقة .وجماع الكلام على هؤلاء فى مقامين (أحدهما) امتناع هذا القول فى نفسه واستحالته وذلك معلوم بالعقل (والثانى) أنه لو كان جائزا فى العقل لكن لم يرد به الشرع بل هو مخالف له وتعرف مخالفته للنص والاجماع . أما الاول فمن وجوه: (أحدها) أنه قد تقدم أن كل علم واعتقاد وحكم لا بد له من معلوم معتقد محكوم به يكون الاعتقاد مطابقا له موافقا سواء كان للاعتقاد تأثير فى وجوده أو لم يكن فان الاعتقادات العملية المؤثرة فى المعتقد مثل اعتقاد أن أكل هذا الخبز يشبع واعتقاد أن أكل هذا السم يقتل .وان كان هذا الاعتقاد يؤثر في وجود الاكل مثلا فلا بد له من معتقد ثابت بدونه وهو كون أكل ذلك الخبز موصوفا بتلك الصفة. والاكل فان كان معدوما قبل وجوده فان محله وهو الخبز والاكل موجود ان فان لم يكن الخبز متصفا بالاشباع اذا أكل والاكل متصفا بانه يشبع اذا أكله لم يكن الاعتقاد صحيحا بل فاسدا كما لو اعتقد فى شيء أنه رغيف فاكله فاذا هو جص أو جبصين فان اعتقاده وان أقدم به على الاكل فانه لا يشبعه لفساد الاعتقاد وهكذا من اعتقد فى شيء أنه ينفعه أو يضره فان الاعتقاد يدعوه الى الفعل أو الترك ويبعثه على ذلك فان كان مطابقا حصلت المنفعة واندفعت المضرة اذا انتفت الموانع والا فمجرد الانتفاع بالفعل أو الضرر به لا يوجب حصول المنفعة والمضرة وانما هذا قول بعض جهال

الكفار)لوأحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه الله فيجعلون الانتفاع بالشيء تبعا لظن المنفعة فيه وقد اعتقد المشركون الانتفاع بالاصنام التى قال الله فيها (يدعو لمن ضره أقرب من نفعه) فاذا اعتقد المعتقد أن هذا الفعل مأمور به أمر استحباب يثيب الله عليه ثواب الفعل المستحب أو أمرا يجاب يعاقب من تركه عقوبة العاصي أو اعتقد أن الله نهى عنه كذلك فهو معتقد اما صفة في ربه فقط من الامر والنهى وهى صفة اضافية للفعل كما يقوله طائفة من المتكلمة والفقهاء من أصحابنا وغيرهم واما صفة فى الفعل فقط من الحسن والقبح والامر والنهى كاشفة لذلك كما يقوله طائفة من المتكلمة والفقهاء من أصحابناوغيرهم.وإما ثبوت الصفتين جميعا للامر والمأمور به كما عليه جمهور الفقهاء وهو انما يعتقد وجود تلك الصفة التى هى الحكم الشرعى لاعتقاده أنها ثابتة فى نفسها موجودة بدون اعتقاده لأنه يطلب باعتقاده أن يثبت للامر والفعل صفة لم تكن له قبل ذلك اذ ليس لاحد من المجتهدين غرض في أن يثبت للافعال أحكاما باعتقاده ولا أن يشرع دينا لم يأذن به الله وانما مطلوبه أن يعتقد حكم الله ودينه ولاله مقصود أن يجيء الى الافعال المتساوية فى ذواتها وفى أمر الله فيعتقد فى أحدها الوجوب على نفسه وفى الآخر التحريم من غير سبب تختص به الافعال فهذا موضع ينبغي تدبره فان المؤمن الطالب لحكم الله إذا علم أن تلك الافعال عند الله سواء لم يميز بعضها عن بعض بامر ولا نهى وهى فى أنفسها سواء لم يميز بعضها عن بعض بحسن ولا سوء ولا مصلحة ولا مفسدة فان هذا الاعتقاد منه موجب لاستوائها وتماثلها فاعتقاده بعد هذا أن هذا واجب يذم تاركه وهذا حرام يعاقب فاعله متناقض فى العقل وسفسطة وكفر فى الدين وزندقة : أما الاول فلأن اعتقاد التساوى و التماثل ينافى اعتقاد الرجحان والتفضيل فضلا عن وجوب هذا وتحريم هذا فكيف يجمع العاقل بين الاعتقادين المتناقضين الا أن يكون أخرق كافرا فيقول أنا اوجب هذا وأحرم هذا بلا أمر من الله ولا مرجح لاحدهما من جهة العقل فاذا فعل هذا كان شارعا من الدين لما لم يأذن به الله وهو مع هذا دين معلوم الفساد بالعقل حيث جعل الافعال المستوية بعضها

١ - الحج ١٣

واجب وبعضها محرم بلا سبب يوجب التخصيص الا محض التحكم الذى لا يفعله حيوان أصلا لا عاقل ولا مجنون اذ لو فرض اختصاص أحد الفعلين لشهوة أو لذة أمكن أن يقال تلك جهة توجب الترجيح وهى جهة حسن عند من يقول بالتحسين العقلى فيجب لذلك والغرض انتفاء ذلك جميعه وإذا انتفى ذلك كله علم أن اعتقاد حسن الفعل وقبحه ووجوبه وتحريمه يتبع أمرا ثابتا فى نفسه يكون مطابقا له أو غير مطابق واذا كان كذلك فالأعتقاد المطابق صواب والاعتقاد المخالف ليس بصواب لا ان الحكم يتبع الاعتقاد من كل وجه (الثانى) أن الطالب المستدل بالدليل ليستبين له الأحكام هو يطلب العلم بمدلول الدليل فان لم يكن للدليل مدلول وانما مدلول الدليل يحصل عقب التأمل لم يكن مطلوبه العلم بالمدلول وانما مطلوبه وجود المدلول وليس هذا شأن الادلة التى تبين المدلولات وانما هو شأن الأسباب والعلل توجد المسببات وفرق كثير بين الدليل المقتضى للعلم القائم بالقلب وبين العلم المقتضى للوجود القائم فى الخارج فان مقتضى الأول الاعتقاد الذهنى ومقتضى الثانى الوجود الخارجى وأحد النوعين مباين للآخر *

فصل

وأما الأحكام والأعتقادات والأقوال العملية التى يتبعها المحكوم فهى الامر والنهى والتحسين والتقبيح واعتقاد الوجوب والتحريم ويسميها كثير من المتفقهة والمتكلمة الاحكام الشرعية وتسمى الفروع والفقه ونحو ذلك وهذه تكون فى جميع الملل والاديان وتكون فى الأمور الدنيوية من السياسات والصناعات والمعاملات وغير ذلك وهى التى قصدنا الكلام عليها فى هذه القاعدة حيث قلنا إن الاعتقادات قد تؤثر فى الأحكام الشرعية فهذه أيضا للناس فيها طرفان ووسط : الطرف الاول طرف الزنادقة الاباحية الكافرة بالشرائع والوعيد والعقاب فى الدار الآخرة الذين يرون أن هذه الأحكام تتبع الاعتقاد مطلقا والأعتقاد هو المؤثر فيها فلا يكون الشىء واجبا إلا عند من اعتقد تحريمه ويرون ان الوعيد الذى يلحق هؤلاء هو عذاب نفوسهم بما اعتقدوه من الأمر والنهى

والايجاب والتحريم وما اعتقدوه من أنهم إذا فعلوا المحرمات وتركوا الواجبات عذبوا وعوقبوا فيبقى في نفوسهم خوف وتألم وتوهم للعذاب وتخيل له فيزعمون أن هذا الالم الناشيء عن هذا الاعتقاد والتخيل هو عقابهم وعذابهم وذاك ناشيء عما اعتقدوه كمن اعتقد أن هنا أسدا أو لصا أو قاطع طريق من غير أن يكون له وجود فيتألم ويتضرر بخوفه من هذا المحذور الذى اعتقده. فاجتمع اعتقاد غير مطابق ومعتقد يؤلم وجوده فتألمت النفس بهذا الاعتقاد والتخيل وقد يقول حذاق هؤلاء من الاسماعيلية والقرامطة وقوم يتصوفون أو يتكلمون وهم غالية المرجئة ان الوعيد الذى جاءت به الكتب الالهية انما هو تخويف للناس لتنزجر عما نهيت عنه من غير أن يكون له حقيقة بمنزلة ما يخوف العقلاء الصبيان والبله بما لا حقيقة له لتأديبهم وبمنزلة مخادعة المحارب لعدوه اذا أوهمه أمرا يخافه لينزجر عنه أو ليتمكن هو من عدوه وغير ذلك. وهؤلاء هم الكفار برسل الله وكتبه واليوم الآخر المنكرون لامره ونهيه ووعده ووعيده وما ضرب به الله فى القرآن من الامثال وقصه من أخبار الامم المكذبة للرسل فهو متناول لهؤلاء ويكفى ما عاقب الله به أهل الكفر والفسوق والعصيان فى الدنيا من أنواع المثلات فانه أمر محسوس مشاهد لا يمكن دفعه وما من أحد الا قد سمع من ذلك أنواعا أو رأى بعضه وأهل الارض متفقون على أن الصادق البار العادل ليس حاله كحال الكاذب الفاجر الظالم بل يرون من ثواب الحسنات وعقوبة السيئات ما فيه عبرة ومزدجر كما كانوا عليه فى الجاهلية قبل الرسل فلما جاءت الرسالة بوعيد الآخرة بين ذلك ما كان الناس عنه غافلين. الطرف الثاني طرف الغالية المتشددين الذين لا يرون للاعتقاد أثرا فى الافعال بل يقول غاليتهم كقوم من متكلمة المعتزلة ان لله حكما فى كل فعل من أخطأه كان آثما معاقبا فيرون المسلم العالم المجتهد متى خفي عليه دليل شرعى وقد اجتهد واستفرغ وسعه فى طلب حكم الله أنه آثم معاقب على خطئه فهذا قولهم فى الاجتهاد والاعتقاد ثم اذا ترك واجبا أو فعل محرما قالوا بنفوذ الوعيد فيه فيوجبون تخليد فساق أهل الملة فى النار وهذا قول جمهور المعتزلة والخوارج ولكن الخوارج يكفرون بالذنب الكبير أو الصغير عند بعضهم. وأما المعتزلة فيقولون

هو في منزلة بين منزلتين لامؤمن ولا كافر .وأما الامة الوسط فعلى ان الاعتقاد قد يؤثر فى الاحكام وقدلا يؤثر بحسب الادلة والاسباب كما ان ذلك هو الواقع فى الامور الطبيعية فالاغذية والادوية قد يختلف حكمها بحسب اعتقاد الطبيب والمتداوى وقد لا يختلف وقد يعتقد الانسان فى الشيء صفة نافعة أو ضارة فينتفع به أو يتضرر وان لم يكن كذلك وقد يعتقد ذلك فلا يؤثر فلو اعتقد في الخبز واللحم أنه غير مشبع لم يؤثر ذلك بل هو مشبع ولو اعتقد ضد ذلك *

﴿ فصل ﴾

مذاهب الأئمة تؤخذ من أقوالهم .وأما أفعالهم فقد اختلف أصحابنا فى فعل الامام أحمد هل يؤخذ منه مذهبه على وجهين (أحدهما) لا لجواز الذنب عليه أو أن يعمل بخلاف معتقده أو يكون عمله سهوا أو عادة أو تقليدا أو لسبب ما غير الاعتقاد الذى يفتى به فان عمل المرء بعمله فى كل حادثة والا يعمل الا بعلم يفتى به فى كل حادثة تفتقر الى أن يكون له فى ذلك رأى وأن يذكره وأن يكون مريدا له من غير صارف اذ الفعل مع القدرة يقف على الداعى والداعى هو الشعور وميل القلب (والثانى) بل يؤخذ منه مذهبه لما عرف من تقوى أبى عبد الله وورعه وزهده فانه كان من أبعد الناس عن تعمد الذنب وان لم ندع فيه العصمة لكن الظاهر والغالب أن عمله موافق لعلمه فيكون الظاهر فيما عمله أنه مذهبه وهكذا القول فيمن تغلب عليه التقوى والورع وبعضهم أشد من بعض فكل ما كان الرجل أتقى لله وأخشى له كان ذلك أقوي فيه.وأبو عبد الله من أتقي الامة وأعظمهم زهدا وورعا بل هو فى ذلك سابق ومقدم كما تشهد به سيرته وسيرة غيره المعروفة عند الخاص والعام وكذلك أصحاب الشافعى لما رأوا نصه أنه لا يجوز بيع الباقلا الاخضر ثم انه اشتراه فى مرضه فاختلف أصحابه هل يخرج له فى ذلك مذهب على وجهين وقد ذكروا مثل هذا فى اقامة جمعتين فى مكان واحد لما دخل بغداد فاذا قلنا هو مذهب الامام احمد فهل يقال فيما فعله انه كان أفضل عنده من غيره هذا أضعف من الاول فان فعله يدل على جوازه فيما ليس من

تعبداته و اذا كان متعبدا به دل على انه مستحب عنده أو واجب. أما كونه أفضل من غيره عنده فيفتقر الى دليل منفصل و كثيرا ما يعدل الرجل عن الافضل الى الفاضل لما فى الافضل من الموانع وما يفتقر اليه من الشروط أو لعدم الباعث واذا كان فعله جائزا أو مستحبا أو أفضل فانه لاعموم له فى جميع الصور بل لايتعدى حكمه الا الى ما هو مثله فان هذا شأن جميع الافعال لاعموم لها حتى فعل النبى صلى الله عليه وسلم لاعموم له. ثم يقال فعل الأئمة وتركهم ينقسم كما تنقسم أفعال النبى صلى الله عليه وسلم تارة يفعله على وجه العبادة والتدين فيدل على استحبابه عنده وأما رجحانه ففيه نظر. وأما على غير وجه التعبد ففى دلالته الوجهان فعلى هذا مايذكر عن الأئمة من أنواع التعبدات والتزهدات والتورعات يقف على مقدمات (أحداها) هل يعتقد حسنها بحيث يقوله ويفتى به أو فعله بلا اعتقاد لذلك بل تأسيا بغيره أو تأسيا على الوجهين كالوجهين فى المباح (والثانية) هل فيه ارادة لها توافق اعتقاده فكثيرا ما يكون طبع الرجل يخالف اعتقاده (والثالثة) هل يرى ذلك أفضل من غيره أو يفعل المفضول لاغراض أخري مباحة والاول أرجح (والرابعة) أن ذلك الرجحان هل هو مطلق أو فى بعض الاحوال والله أعلم *

تمت الرسالة الثامنة ويليها الرسالة التاسعة انشاء الله تعالى

الرسالة التاسعة

﴿في السماع والرقص﴾

جمعه الشيخ محمد بن محمد المنيجي الحنبلي من كلام الأئمة والعلماء المفسرين

وقد نقلت هذه النسخة عن أصل مسودته رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل شيخ الاسلام بحر العلوم تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رضي الله عنه عن صفة سماع الصالحين ماهو وهل سماع القصائد الملحنة بالآلات المطربة هو من القرب والطاعات أم هو محرم أو مباح *

فاجاب: الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله الا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم * أصل هذه المسئلة أن يفرق بين السماع الذي ينتفع به في الدين وبين مايرخص فيه رفعا للحرج وبين سماع المتقربين وسماع المتلعبين. فأما السماع الذي شرعه الله لعباده وكان سلف الامة من الصحابة والتابعين وتابعيهم يجتمعون عليه لصلاح قلوبهم وزكاة نفوسهم فهو سماع آيات الله وهو سماع النبيين والمؤمنين وأهل العلم وأهل المعرفة فان الله تعالى لما ذكر من ذكره من الانبياء عليهم السلام في قوله (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا)[1] وقوله تعالى (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون)[2] وقوله تعالى (ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم

١ - مريم ٥٨
٢ - الأنفال ٢

يخرون للاذقان سجدا و يقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا)[١] وقوله تعالى (واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق)[٢] وبهذا السماع أمر الله تعالى في قوله (واذا قريء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون)[٣] وعلى أهله أثنى تعالى كما في قوله تعالى (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)[٤] وقال تعالى فى الاخرى (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)[٥] فالقول الذى أمروا بتدبره هو الذى أمروا بسماعه وقال تعالى (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته)[٦] وكما أثنى تعالى على هذا السماع ذم تعالى المعرضين عن هذا السماع فقال تعالى (واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا)[٧] وقال تعالى (وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)[٨] وقال تعالى (وقال الرسول يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا)[٩] وقال تعالى (فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة)[١٠] وقال تعالى (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب)[١١] وقال تعالى (واذا قرأت القرآن جعلنا بينك و بين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا)[١٢] وهذا هو السماع الذى شرعه الله للمسلمين فى صلواتهم وخطبهم كصلاة الفجر وصلاة العشاءين وفى غير ذلك .وعلى هذا السماع كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتمعون وكانوا اذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم يقرأ والباقى يستمعون وكان عمر يقول لابى موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون *

وهذا هو السماع الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم يشهده مع أصحابه ويستدعيه منهم كما في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له « اقرأ علي قال قلت أقرأ عليك وعليك أنزل قال اني أحب أن أسمعه من غيري فقرأت عليه سورة النساء حتى وصلت الى هذه الآية (فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا)[١٣] قال حسبك فاذا عيناه تذرفان» *

١ ـ الاسراء ١٠٧ ـ ١٠٩
٢ ـ المائدة ٨٣
٣ ـ الاعراف ٢٠٤
٤ ـ الزمر ١٧ ـ ١٨
٥ ـ محمد ٢٤
٦ ـ ص ٢٩
٧ ـ لقمان ٧
٨ ـ فصلت ٢٦
٩ ـ الفرقان ٣٠
١٠ ـ المدثر ٤٩ ـ ٥١
١١ ـ فصلت ٥
١٢ ـ الاسراء ٤٥ ـ ٤٦
١٣ ـ النساء ٤١

وهذا هو الذى كان النبي صلى الله عليه وسلم يسمعه وأصحابه كما قال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) والحكمة هى السنة وقال تعالى (قل انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وان أتلو القرآن فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين)[٢] وكذلك غيره من الرسل صلوات الله عليهم قال تعالى (يابنى ادم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون)[٣] وكذلك يحتج عليهم يوم القيامة كما قال تعالى (يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا)[٤] الآية * وقال تعالى (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم[٥] رسل منكم يتلون عليكم ايات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى) الآية *

وقد أخبر الله تعالى ان المعتصم بهذا السماع مهتد مفلح والمعرض ضال شقى قال الله تعالى (فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى)[٦] الآية * وقال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين)[٧] *

وذكر الله يراد به تارة ذكر العبد ربه ويراد به الذكر الذى أنزله الله كما قال تعالى (وهذا ذكر مبارك أنزلناه)[٨] وقال تعالى (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم)[٩] وقال (ياأيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون)[١٠] وقال تعالى (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون)[١١] وقال تعالى (وانه لذكر لك ولقومك)[١٢] وقال تعالى (إن هو الا ذكر للعالمين)[١٣] وقال تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغى له ان هو الا ذكر وقرآن مبين)[١٤] وهذا السماع له اثار ايمانية من المعارف القدسية والاحوال الزكية مايطول شرحها ووصفها وله فى الجسد آثار محمودة من خشوع القلب ودموع العين واقشعرار الجلد وهذا

٢ - النمل ٩١ - ٩٢
٣ - الاعراف ٣٥
٤ - الأنعام ١٣٠
٥ - الزمر ٧١
٦ - طه ١٢٣ - ١٢٥
٧ - الزخرف ٣٦
٨ - الأنبياء ٥٠
٩ - الأعراف ٦٣
١٠ - الحجر ٦
١١ - الأنبياء ٢
١٢ - الزخرف ٤٤
١٣ - التكوير ٢٧
١٤ - يس ٦٩

مذكورة فى القرآن وهذه الصفات موجودة فى الصحابة ووجدت بعدهم آثار ثلاثة من الاضطراب الصراخ والاغماء والموت فى التابعين ❊

وبالجملة فهذا السماع هو أصل الايمان فان الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم الى الخلق أجمعين ليبلغهم رسالات ربهم فمن سمع مابلغه الرسول فآمن به واتبعه اهتدى وأفلح ومن أعرض عن ذلك ضل وشقى ❊

وأما سماع المكاء والتصدية فالتصدية هى التصفيق بالايدي والمكاء مثل الصفير ونحوه فهذا سماع المشركين الذى ذكره الله تعالى في قوله (وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية)[١] فأخبر الله تعالى عن المشركين أنهم كانوا يتخذون التصفيق باليد والتصويت باليد قربة ودينا ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يجتمعون على مثل هذا السماع ولا حضروه قط ومن قال ان النبي صلى الله عليه وسلم حضر ذلك فقد كذب عليه باتفاق أهل المعرفة بحديثه وسننه والحديث الذى ذكره محمد بن طاهر المقدسى فى مسئلة السماع فى صفة التصوف ورواه من طريقه الشيخ أبو حفص عمر السهروردى صاحب عوارف المعارف ان النبي صلى الله عليه وسلم أنشده اعرابي

قد لسعت حية الهوى كبدى ❊ فلا طبيب لها ولا راقى
الا الحبيب الذى شغفت به ❊ فعنده رقيتى وترياقى

فتواجد حتى سقطت البردة عن منكبيه فقال معاوية ما أحسن لهوكم فقال مهلا يامعاوية ليس بكريم من لم يتواجد عند ذكر الحبيب هو حديث مكذوب موضوع باتفاق أهل العلم بهذا الشأن وأظهر منه كذبا حديث آخر يذكرون فيه انه لما بشر الفقراء بسبقهم للاغنياء الى الجنة تواجدوا وخرقوا أثوابهم وان جبريل نزل من السماء فقال يامحمد ان ربك يطلب نصيبه من هذه الخروق فأخذ منه خرقة فعلقها بالعرش وان ذلك هو زيق الفقراء ❊ وهذا وأمثاله انما يرويه من هو من أجهل الناس بحال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن بعدهم بمعرفة الايمان والاسلام وهو شبيه برواية من روى ان اهل الصفة قاتلوا مع الكفار لما انكسر المسلمون يوم

١ ـ الأنفال ٣٥

حنين أو غير يوم حنين وانهم قالوا نحن مع الله من كان معه كنا معه. ومن روى ان صبيحة المعراج وجد أهل الصفة يتحدثون بشيء كان الله أمر نبيه أن يكتمه فقال لهم من أين لكم هذا فقالوا الله علمنا إياه فقال يارب ألم تأمرني أن لاأفشيه فقال أمرتك أنت أن لاتفشيه ولكن أنا أعلمتهم به ونحو هذه الأحاديث التي يرويها طوائف منتسبون الى الدين مع فرط جهلهم بدين الاسلام ويبنون عليها من النفاق والبدع مايناسبها تارة يسقطون التوسط بالرسول وانهم يصلون الى الله من غير طريق الرسول مطلقا وهذا أعظم من كفر اليهود والنصارى فان أولئك أسقطوا وساطة رسول واحد ولم يسقطوا وساطة الرسل مطلقا وهؤلاء اذا أسقطوا وساطة الرسل مطلقا عن أنفسهم كان هذا أغلظ من كفر أولئك لكنهم يقولون لاتسقط الوساطة الا عن الخاصة لاعن العامة فيكونون أكفر من أهل الكتاب من جهة اسقاط السفارة مطلقا عنهم وفي بعض الاحوال وأهل الكتاب أكفر من جهة اسقاط السفارة مطلقا بل أهل الكتاب الذين يقولون انه رسول الى الاميين دون أهل الكتاب خير من هؤلاء فان أولئك أخرجوا عن رسالته من له كتاب وهؤلاء يخرجون عن رسالته من لايبقى معه الا خيالات ووساوس وظنون القاها اليه الشيطان مع ظنه انه من خواص أولياء الله وهو من أشد أعداء الله وتارة يجعلون هذه الآثار المختلفة حجة فيما يفترونه من أمور تخالف دين الاسلام ويدعون انها من أسرار الخواص كما يفعله الملاحدة والقرامطة والباطنية وتارة يجعلونه حجة في الاعراض عن كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ما ابتدعوه من اتخاذ دينهم لهوا ولعبا*

وبالجملة قد علم بالاضطرار من دين الاسلام ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يشرع لصالحي أمته وعبادهم وزهادهم أن يجتمعوا على استماع الابيات الملحنة مع ضرب بالاكف أو ضرب بالقضيب أو الدف كما لم يبح لاحد أن يخرج عن متابعته واتباع ماجاء به من الكتاب والحكمة لافي باطن الأمر ولا في ظاهره لا لعامي ولا لخاص ولكن رخص النبي صلى الله عليه وسلم في انواع من اللهو في العرس ونحوه كما رخص للنساء أن يضربن بالدف في الاعراس والافراح وأما

الرجال على عهده فلم يكن أحد منهم يضرب بدف ولا يصفق بكف بل قد ثبت عنه فى الصحيح انه قال انما التصفيق للنساء والتسبيح للرجال . ولعن المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء ولما كان الغناء والضرب بالدف والكف من عمل النساء كان السلف يسمون من يفعل ذلك مخنثا ويسمون الرجال المغنين مخانيث وهذا مشهور فى كلامهم *(ومن هذا الباب)* حديث عائشة رضى الله عنها لما دخل عليها أبو بكر فى أيام العيد وعندها جاريتان من الأنصار تغنيان بما تقاولت به الانصار يوم بعاث فقال أبو بكر أبمزمور الشيطان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان النبى صلى الله عليه وسلم معرضا عنه مقبلا بوجهه الى الحائط فقال دعهما ياأبا بكر فان لكل قوم عيدا وهذا عيدنا أهل الاسلام ففى هذا الحديث بيان ان هذا لم يكن من عادة النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه الاجتماع عليه ولهذا سماه الصديق أبو بكر رضى الله عنه مزمور الشيطان والنبي صلي الله عليه وسلم أقر الجوارى عليه معللا ذلك بانه يوم عيد والصغار يرخص لهم فى اللعب فى الاعياد كما جاء فى الحديث ليعلم المشركون ان فى ديننا فسحا وكما كان لعائشة لعب تلعب بهن وتجيء صواحباتها من صغار النسوة يلعبن معها وليس فى حديث الجاريتين أن النبى صلى الله وسلم استمع الى ذلك والامر والنهى انما يتعلق بالاستماع لا بمجرد السماع كما فى الرؤية فانه انما يتعلق بقصد الرؤية لانها يحصل منها بغير الاختيار كذلك فى اشتمام الطيب انما ينهى المحرم عن قصد الشم فاما اذا شم مالا يقصده فانه لا اثم عليه وكذلك فى مباشرة المحرمات كالحواس الخمس من السمع والبصر والشم والذوق واللمس انما يتعلق الأمر والنهى فى ذلك بما للعبد فيه قصد وعمل وأما مايحصل بغير اختياره فلا أمر فيه ولا نهى وهذا مما وجه به الحديث الذى فى السنن حديث ابن عمر انه كان مع النبى صلى الله عليه وسلم فسمع صوت زمارة راع فعدل عن الطريق وقال هل تسمع حتى انقطع الصوت فان من الناس من يقول بتقدير صحة الحديث لم يأمر ابن عمر بسد أذنه فيجاب بان ابن عمر لم يكن يستمع وانما كان يسمع وهذا لا اثم فيه وانما النبى صلى الله عليه وسلم عدل طلبا للأكمل والافضل كمن اجتاز بطريق فسمع قوما يتكلمون

بكلام محرم فسد أذنه كيلا يسمعه فهذا حسن ولو لم يسد أذنه لم يأثم بذلك اللهم الا أن يكون فى سماعه ضرب ديني لايندفع الا بالسد *

وبالجملة فهذه مسئلة السماع تكلم فيها كثير من المتأخرين فى السماع هل هو محظور أو مكروه أو مباح وليس المقصود بذلك رفع الحرج بل مقصودهم بذلك أن يتخذ طريقا الى الله يجتمع عليه أهل الربابات لصلاح القلوب والتشويق الى المحبوب والتخويف من المهروب والتحزين على فوات المطلوب يستنزل به الرحمة ويستجلب به النعمة ويحرك به مواجيد أهل الايمان ويستجلى به مشاهد أهل العرفان حتى يقول بعضهم انه أفضل لبعض الناس أو للخاصة من سماع القرآن من عدة وجوه وحتى يجعلونه قوتا للقلوب وغذاء للارواح وحاديا للنفوس يحدوها على المسير الي الله عز وجل ويحثها على الأقبال عليه ولهذا يوجد من اعتاده واغتذى به لايحب القرآن ولا يفرح به ولا يحدى فى سماع الآيات كما يحدى في سماع الابيات بل اذا سمعوا القرآن سمعوه بقلوب لاهية وألسن لاغية واذا سمعوا سماع أهل المكاء والتصدية خشعت الأصوات وسكنت الحركات وأصغت القلوب وتعاطت المشروب فمن تكلم فى هذا هل هو مكروه أو مباح وشبهه بما كان النساء يغنين به فى الأعياد والأفراح لم يكن قد اهتدي الى الفرق بين طريق أهل الخسارة والفلاح ومن لم يتكلم فى هذا هل هو من الدين ومن سماع المتقين ومن أحوال المقربين والمقتصدين ومن أعمال أهل اليقين ومن طريق المحبين المحبوبين ومن أفعال السالكين الى رب العالمين كان كلامه فيه من وراء وراء بمنزلة من سئل عن علم الكلام المختلف فيه هل هو محمود أو مذموم فاخذ يتكلم فى جنس الكلام وانقسامه الى الاسم والفعل والحرف أو يتكلم في مدح الصمت أوفى أن الله أباح الكلام والنطق وأمثال ذلك مما لايمس المحل المشتبه المتنازع فيه واذا عرف هذا

فاعلم أنه لم يكن فى القرون الثلاثة المفضلة لا بالحجاز ولا بالشام ولا باليمن ولا بمصر والمغرب والعراق وخراسان من أهل الدين والصلاح والزهد والعبادة من يجتمع على مثل سماع المكاء والتصدية لا بدف ولا بكف ولا بقضيب وانما حدث هذا بعد ذلك فى أواخر المائة الثانية فلما رآه الائمة أنكروه فقال الشافعى

خلفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن وقال يزيد بن هرون مايغبر الا فاسق ومتى كان التغبير وسئل عنه أحمد فقال أكرهه هو محدث قيل أنجلس معهم قال لا وكذلك سائر أئمة الدين كرهوه واكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه فلم يحضره مثل ابراهيم بن أدهم ولا الفضيل ابن عياض ولا معروف الكرخي ولا أبو سليمان الداراني ولا أحمد بن أبي الحواري ولا السري السقطي وأمثالهم والذين حضروه من الشيوخ من المحمودين تركوه في آخر أمرهم وأعيان المشايخ عابوا أهله كما ذكر ذلك الشيخ عبد القادر والشيخ أبو البيان وغيرهما من الشيوخ وما ذكره الامام الشافعي رضي الله عنه انه من إحداث الزنادقة من كلام امام خبير باصول الاسلام فان هذا السماع لم يرغب فيه ويدع اليه في الاصل الا من هو متهم بالزندقة كابن الراوندي والفارابي وابن سينا وأمثالهم كما ذكر أبو عبد الرحمن السلمي في مسئلة السماع عن ابن الراوندي أنه قال اختلف الفقهاء في السماع فاباحه قوم وكرهه قوم وأنا أوجبه أو قال آمر به فخالف اجماع العلماء في الامر به وأبو نصر الفارابي كان بارعا في الغناء الذي يسمونه الموسيقا وله فيه طريقة معروفة عند أهل صناعة الغناء وحكايته مع ابن حمدان مشهورة لما ضرب فابكاهم ثم أضحكهم ثم نومهم ثم خرج . وابن سينا ذكر في اشاراته في مقامات العارفين من الترغيب فيه وفي عشق الصور مايناسب طريقة أسلافه الصابئين المشركين الذين كانوا يعبدون الكواكب والأصنام كارسطو وشيعته من اليونان ومن اتبعه كبرقلس وثامسطيوس والاسكندر الافروديسي وكان ارسطو وزير الاسكندر بن فيلفوس المقدوني الذي تؤرخ له اليهود والنصارى وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة وأما ذوالقرنين المذكور في القرآن الذي بنى السد فكان قبل هؤلاء بزمان طويل وأما الاسكندر الذي وزر له ارسطو فانه انما بلغ بلاد خراسان ونحوها في دولة الفرس لم يصل الى السد وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع وابن سينا أحدث فلسفة ركبها من كلام سلفه اليوناني ومما أخذه من أهل الكلام المبتدعين الجهمية ونحوهم وسلك طريق الملاحدة الاسماعيلية في كثير من أمورهم العلمية والعملية ومزجه بشيء من كلام الصوفية

حقيقته تعود الى كلام اخوانه الاسماعيلية القرامطة الباطنية فان أهل بيته كانوا من أتباع الحاكم الذى كان بمصر وكانوا فى زمانه ودينهم دين أصحاب رسائل اخوان الصفا وأمثالهم من أئمة منافقى الأمم الذين ليسوا مسلمين ولا يهود ولا نصارى وكان الفارابى قد حذق فى حروف اليونانى التى هى تعاليم ارسطو واتباعه من الفلاسفة المشائين وفى أصولهم صناعة الغناء ففى هذه الطوائف من يرغب فيه ويجعله مما تزكو به النفوس وترتاض به وتهذب به الاخلاق.

وأما الحنفاء أهل ملة ابراهيم الخليل الذى جعله الله للناس إماما وأهل دين الاسلام لايقبل الله من أحد دينا غيره المتبعون لشريعة خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم تسليما فهؤلاء ليس منهم من يرغب فى ذلك ولا يدعو اليه وهؤلاء هم أهل القرآن والايمان والهدى والرشاد والسعد والفلاح وأهل المعرفة والعلم واليقين والأخلاص لله والحب له والتوكل عليه والخشية منه والانابة اليه.

ولكن قد حضره أقوام من أهل الارادة وممن له نصيب فى المحبة لما فيه من التحريك لهم ولم يعلموا غائلته ولا عرفوا مغبته كما أدخل قوم من الفقهاء أهل الايمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم في انواع من كلام الفلاسفة المخالف لدين الاسلام ظنا منهم أنه حق موافق ولم يعلموا غائلته ولا عرفوا مغبته فان القيام بحقائق الدين علما وقولا وعملا وذوقا وخبرة لايستقل به أكثر الناس ولكن الدليل الجامع هو الأعتصام بالكتاب والسنة فان الله عز وجل بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا وقد قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا)[1] وقال تعالى (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)[2] قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا وخط خطوطا عن يمينه وشماله ثم قال هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ثم قرأ (وان هذا صراطى مستقيما) ومن كان له خبرة بحقائق الدين وأحوال القلوب ومعارفها وأذواقها ومواجيدها عرف أن سماع المكاء والتصدية لايجلب للقلب منفعة ولا مصلحة الا وفى ضمن ذلك من

١ ـ المائدة ٣
٢ ـ الأنعام ١٥٣

الضلال والمفسدة ماهو أعظم منه فهو للروح كالخمر للجسد يفعل فى النفوس أعظم ماتفعله حميا الكؤوس ولهذا يورث أصحابه سكرا أعظم من سكر الخمر فيجدون لذة كما يجد شارب الخمر بل يحصل لهم أكثر وأكبر مما يحصل لشارب الخمر ويصدهم ذلك عن ذكر الله أعنى الصلاة أعظم مما يصدهم الخمر ويوقع بينهم العداوة والبغضاء أعظم من الخمر حتى يقتل بعضهم بعضا من غير مس بيد بل بما يقترن بهم من الشياطين فانه يحصل لهم أحوال شيطانية بحيث تتنزل عليهم الشياطين فى تلك الحال ويتكلمون على ألسنتهم كما يتكلم الجنى على لسان المصروع اما بكلام من جنس كلام الاعاجم الذين لا يفقه كلامهم كلسان الترك أو الفرس أو غيرهم ويكون الانسان الذى لبسه الشيطان عربياً لا يحسن أن يتكلم بذلك بل يكون الكلام من جنس كلام من تكون تلك الشياطين من إخوانهم واما بكلام لا يعقل ولا يفهم له معنى وهذا يعرفه أهل المكاشفة شهودا وعيانا وهؤلاء الذين يدخلون النار مع خروجهم عن الشريعة هم من هذا النمط فان الشياطين تلبس أحدهم بحيث يسقط احساس بدنه حتى ان المصروع يضرب ضربا عظيما وهو لا يحس ولا يؤثر فى بدنه فكذلك هؤلاء تلبسهم الشياطين فتدخل بهم النار وقد تطير بهم فى الهواء وانما يلبس أحدهم الشيطان مع تغيب عقله كالمصروع وبالمغرب ضرب من الزط يقال لاحدهم المصل يلبسه الشياطين ويدخلها ويطير فى الهواء ويفعل أشياء أبلغ مما يفعله هؤلاء وهم من الزط الذين لاخلاق لهم والجن تخطف كثيرا من الانس وتغيبه عن أبصار الناس وتطير به فى الهواء وقد باشرنا من هذه الأمور مايطول وصفه وكذلك هؤلاء المتولهون المنتسبون الى بعض الشيوخ اذا حصل لهم وجد سماعى عند سماع المكاء والتصدية منهم من يصعد فى الهواء ومنهم من يدخل النار ويأخذ الحديد المحمى بالنار يضعه على بدنه وأنواع من هذا الجنس ولا تحصل لهم هذه الأفعال عند الصلاة ولا عند الذكر ولا عند قراءة القرآن لان هذه عبادات شرعية ايمانية اسلامية نبوية محمدية تطرد الشياطين وتلك عبادات بدعية شركية شيطانية فلسفية تستجلب الشياطين *

وبالجملة فعلى المؤمن أن يعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يترك شيئا يقرب

الى الجنة الا وقد حدث به ولا شيئا يبعد عن النار الا وقد حدث به وان هذا السماع لو كان مصلحة لشرعه الله ورسوله فان الله يقول (اليوم أكملت لكم دينكم) الآية. واذا وجد السامع به منفعة لقلبه ولم يجد شاهد ذلك من كتاب الله ولا من سنة رسوله لم يلتفت اليه كما ان الفقيه اذا رأى قياسا لا يشهد له الكتاب والسنة لم يلتفت اليه *

وفصل النزاع فى حكم مسئلة السماع ثلاث قواعد من أهم قواعد الايمان والسلوك فمن لم يبن عليها فبناؤه على شفا جرف هار *

* ﴿ القاعدة الأولى ﴾ ان الذوق والحال والوجد هل هو حاكم أو محكوم عليه بحاكم آخر أو متحاكم اليه فهذا منشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة حيث جعلوه حاكما يتحاكمون اليه فيما هو صحيح فاسد فجعلوه حكما بين الحق والباطل فنبذوا الكتاب والسنة ولم يحكموا العلم والنصوص وحكموا الأذواق والحال والمواجيد فعظم الفساد وطمست معالم الايمان والسلوك المستقيم والعجب أنهم دخلوا فى الرياضات والمجاهدات والزهد ليتجردوا عن شهوات النفوس وحظوظها فانتقلوا من شهوات الى شهوات أكبر منها ومن حظوظ الى حظوظ أعظم منها وكان حالهم فى الشهوات التى انتقلوا عنها أكمل وخير من هؤلاء لانهم لم يعارضوا بها العلم ولا قدموها على النصوص ولا جعلوها قربة ودينا واقفون مع حظوظهم من الله فانون بها عن مراد الله وانما زهدوا فى حظ الى حظ أعلا منه وتركوا شهوة بشهوة فليتدبر اللبيب هذا فى نفسه وفى غيره فكل ما خالف مراد الله الديني من العبد فهو حظه وشهوته ذوقا كان أو حالا أو وجدا أولا أو صورة ونحو ذلك فمن قدمه على مراده فهو أسوأ حالا ممن يعترف انه يعصى ويحبه وان مراد الله أولى بالتقديم منه وانه ذنب تجب التوبة منه *

* ﴿ القاعدة الثانية ﴾ انه إذا وقع النزاع فى حكم فعل من الأفعال أو حال أو ذوق هل هو صحيح أو فاسد أو حق أو باطل وجب الرجوع فيه الى الحجة المقبولة عند الله من كتاب الله وسنة رسوله فهذا هو الأساس ومن لم يبن على هذا الأصل فعلمه وسلوكه ليس على شيء *

(القاعدة الثالثة) * اذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شيء هل هو الاباحة أو التحريم فلينظر الى مفسدته وثمرته وغايته فان كان مشتملا على مفسدة راجحة ظاهرة فانه يستحيل على الشارع الامر به أو اباحته بل يقطع ان الشرع يحرمه لاسيما اذا كان طريقه مفضيا الى مايبغضه الله ورسوله فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الابرة من المسكر لانه يشوق النفس الى المسكر الذى يشوقها الى المحرمات ثم يبيح ماهو أعظم منها شوقا للنفوس الى المحرم بكثير فان الغناء كما قال ابن مسعود هو رقية الزنا وقد شاهد الناس أنه ماعاناه صبى الا وفسد ولا امرأة الا وبغت ولا شاب ولا شيخ الا وقع في محذور

وقال شيخ الاسلام بن تيمية فصل الخطاب فى هذا الباب ينبغى أن ينظر في ماهية الشيء ثم يطلق عليه التحريم أو الكراهة أو غير ذلك والغناء اسم يطلق على أشياء منها غناء الحجيج فانهم ينشدون أشعارا يصفون فيها الكعبة وزمزم والمقام وغير ذلك فسماع تلك الاشعار مباح وفى معنى هؤلاء الغزاة فانهم ينشدون اشعارا يحرضون بها على الغزو وفى هذا المعنى انشاد المتبارزين للقتال وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم لحاديه رويدك سوقا بالقوارير . وقال عبدالله بن رواحة يمدح النبي صلى الله عليه وسلم

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... اذا انشق معروف من الفجر ساطع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه ... اذا استثقلت بالمشركين المضاجع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خرج على أهل الصفة وفيهم واحد يقرأ والباقى يستمعون فجلس معهم *

وقال الشيخ فى موضع ولكن تكلموا فى الغناء المجرد عن آلات اللهو هل هو حرام أو مكروه أو مباح وذكر أصحاب أحمد لهم فى ذلك ثلاثة أقوال وذكرنا عن الشافعى قولين ولم يذكروا عن أبى حنيفة ومالك فى ذلك نزاعا وذكر زكريا ابن يحيى الساجي وهو أحد الائمة المتقدمين من المائلين الى مذهب الشافعى انهلم

يخالف من الفقهاء المتقدمين الا ابراهيم بن سعد من أهل المدينة وعبيد الله بن الحسن العنبرى من أهل البصرة وما ذكره أبو عبد الرحمن السلمى وأبو القاسم القشيرى وغيرهما عن مالك وأهل المدينة في ذلك فغلط وانما وقعت به لان بعض أهل المدينة كان يحضر السماع الا أن هذا ليس قول أئمتهم وفقهائهم*

وقال شيخ الاسلام أيضا وجماع الامر فى ذلك أنه اذا كان الكلام فى السماع وغيره هل هو طاعة وقربة فلابد من دليل شرعى يدل على ذلك واذا كان الكلام هل هو محرم أو غير محرم فلابد من دليل شرعى يدل على ذلك اذ لا حرام الا ما حرمه الله ولا دين الا ماشرعه الله والله تعالى سبحانه ذم المشركين على انهم ابتدعوا فى الدين مالم يأذن به الله وانهم حرموا مالم يحرمه الله قال الله تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله)[١] وقال تعالى (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها)[٢] الآية *

قال أبو سليمان الدارانى انه لتمر بى النكتة من نكت القوم فلا أقبلها الا بشاهدين الكتاب والسنة وقال أيضا ليس لمن ألهم شيئا من الخير أن يفعله حتى يسمع فيه بأثر فاذا سمع بأثر كان نورا على نور وقال الجنيد علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لايصلح له أن يتكلم فى علمنا. وقال سهل بن عبد الله التسترى كل وجد لايشهد له الكتاب والسنة فهو باطل وقال كل عمل على اقتداء فهو عذاب على النفس وكل عمل بلا اقتداء فهو عيش النفس وقال أبو عثمان النيسابورى من أمر السنة عل نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ومن أمر الهوي على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة*

وقال أبو الفرج بن الجوزى اعلم ان سماع الغناء يجمع شيئين أحدهما أن يلهى القلب عن التفكر فى عظمة الله تعالى والقيام بخدمته والثانى أن يميله الى اللذات العاجلة ويدعو الى استيفائها من جميع الشهوات الحسية ومعظمها النكاح وليس تمام لذته الا فى المتجددات ولا سبيل الى كثرة المتجددات من الحل فلذلك يحث على الزنا فبين الغناء والزنا تناسب من جهة أن الغناء لذة الروح والزنا أكبر لذات النفس*

١ ـ الشورى ٢١
٢ ـ الأعراف ٢٨

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية في موضع من كلامه فى السماع و أما أبو حنيفة ومالك والثورى ونحوهم فهم أعظم كراهة وانكارا لذلك من الشافعى وأحمد

وقال فى موضع آخر ولم يحضره مثل ابراهيم بن أدهم ولا الفضيل بن عياض ولا معروف الكرخى ولا السرى السقطى ولا أبو سليمان الدارانى ولا مثل الشيخ عبد القادر والشيخ عدى والشيخ أبي البيان والشيخ حياة وغيرهم بل فى كلام طائفة من هؤلاء مثل الشيخ عبدالقادر وغيره النهى عنه و كذلك أعيان المشايخ وقد حضره من المشايخ جماعة وشرطوا المكان والامكان والخلان والشيخ الذى يحرس من الشيطان وأكثر الذين حضروه من المشايخ الموثوق بهم رجعوا عنه فى آخر عمرهم كالجنيد فانه كان يحضره وهو شاب وتركه فى آخر عمره وكان يقول من تكلف السماع فتن به ومن صادف السماع استراح به فقد ذم من يجتمع له ورخص فيمن يصادفه من غير قصد ولا اعتماد للجلوس له وسبب ذلك انه مجمل ليس فيه تفصيل فان الابيات المتضمنة لذكر الحب والوصل والهجر والقطيعة والشوق والصبر على العزل واللوم ونحو ذلك هو قول مجمل يشترك فيه محب الرحمن ومحب الاوثان ومحب الصلبان ومحب الاخوان ومحب الاوطان ومحب النسوان ومحب الصبيان فقد يكون فيه منفعة اذا هيج القاطن أثار الساكن وكان ذلك مما يحبه الله ورسوله لكن تكون فيه مضرة راجحة على نفعه كما فى الخمر والميسر فان فيهما اثما كبيرا ومنافع للناس وانمهما أكبر من نفعهما فلهذا لم تأت به الشريعة فان الشريعة لم تأت الا بالمصلحة الخالصة أو الراجحة وأما ماتكون مفسدته غالبة على مصلحته فهو بمنزلة من يأخذ درهما بدينار أو يسرق خمسة دراهم يتصدق منها بدرهمين وذلك انه يهيج الوجد المشترك فيثير من النفس كوامن تضره آثارها ويغذى النفس ويقيتها به فتعتاض به عن سماع القرآن حتى لايبقى فيها محبة لسماع القرآن ولا يلتذ به ولا يستطيبه بل قد يبقى فى النفس بغض لذلك واستثقال به كمن يستثقل نفسه بتعلم التوراة والانجيل وعلوم أهل الكتاب والصابئين واستفادة العلم والحكمة منها فأعرض بذلك عن كتاب الله وسنة رسوله الى أشياء أخر يطول ذكرها

فلما كان هذا السماع لا يعطى بنفسه مايحبه الله ورسوله من الاحوال والمعارف

بل قد يصد عن ذلك ويعطي مالا يحبه الله ورسوله بل ما يبغضه الله ورسوله لم يأمر الله به ولا رسوله ولا سلف الامة ولا أعيان مشايخها *

والصوت يؤثر فى النفس بحسب الاوقات تارة فرحا وتارة حزنا وتارة غضبا وتارة رضا واذا قوى السكر بصوت اللذة المطربة من غير تمييز كما يحصل للنفس اذا سكرت بالصور والجسد اذا سكر بالطعام والشراب فان السكر هو الطرب الذى يورث لذة بلا عقل فلا تقوم منفعة تلك اللذة بما يحصل من غيبة العقل الذى صد عن ذكر الله وعن الصلاة وأورث العداوة والبغضاء*

وأما الرقص فلم يأمر الله عز وجل به ولا رسوله ولا أحد من الائمة بل قال الله تعالى (ولا تمش في الارض مرحا)[1] والرقص شيء من هذا وقال تعالى (واقصد فى مشيك)[2] وقال تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا)[3] أي بسكينة ووقار *

وانما عبادة المسلمين الركوع والسجود بل الزفن والرقص فى الطريق لم يأمر الله به ولا رسوله ولا أحد من سلف الامة بل أمروا فى الصلاة بالسكينة والوقار ولو ورد على الانسان حال يغلب فيها حتى يخرج الى حالة خارجة عن المشروع وكان ذلك الحال بسبب مشروع كسماع القرآن الكريم ونحوه لسلم اليه ذلك كما تقدم فاما الذى اذا تكلف من الاسباب مالم يؤمر به مع علمه بانه يوقعه فيما لا يصلح له فهو بمنزلة من شرب الخمر مع علمه انها تسكره واذا قال ورد على حال وأنا سكران قيل له اذا كان السبب محظورا لم يكن صاحبه معذورا فهذه الاحوال الفاسدة من كان فيها صادقا فهو مبتدع ضال من جنس خفر التتر وأعوان الظلمة من ذوى الاحوال الفاسدة الذين ضاهوا عبادة النصارى والمشركين ببعض مالهم من الاحوال ومن كان كاذبا فهو منافق ضال*

﴿ فصل ﴾ وقد استدل قوم على اباحة السماع بامور أخصها ذلك: منها انه مستلذ طيب تلتذ به النفوس وتستريح اليه وان الطفل يسكن الى الصوت الطيب بل بعض الصغار لا ينام حتى تحدوله القائمة بامره والابل تقاسى تعب السير ومشقة الحمولة فيهون عليها بالحداء*

١ ـ الاسراء ٣٧
٢ ـ لقمان ١٩
٣ ـ الفرقان ٦٣

ومنها أن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه وزيادة فى خلقه وقد يستدلون عليه بقوله تعالى(يزيد فى الخلق مايشاء)[١] وبان الله تعالى ذم الصوت الفظيع فقال(ان أنكر الاصوات لصوت الحمير)[٢] ❊

ومنها ان الله وصف أهل الجنة انهم فى روضة يحبرون وان ذلك هو السماع الطيب فكيف يكون حراما وهو فى الجنة ❊

ومنها ماثبت ان الله تعالى ماأذن لشيء كاذنه أى كاستماعه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن ❊

ومنها أن أبا موسى الاشعري استمع النبي صلى الله عليه وسلم لصوته وأثنى على حسن الصوت وقال لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داود وقال له أبو موسى لو أعلم انك استمعت لحبرته لك تحبيرا أى زينته وحسنته ❊

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم زينوا القرآن بأصواتكم وقوله ليس منا من لم يتغن بالقرآن. والصحيح انه من التغنى وهو تحسين الصوت به كذا ذكره العلامة ابن القيم وصححه ويعضده مافسره الامام أحمد فقال يحسن صوته مااستطاع ❊

ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم أقر عائشة على غناء القينتين يوم العيد وقال لابي بكر دعهما فان لكل قوم عيدا وهذا عيدنا أهل الاسلام ❊

ومنها أنه صلي الله عليه وسلم أذن فى العرس بالغناء وسماه لهوا ❊

ومنها أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحداء وأذن فيه ❊

ومنها أنه كان يسمع انشاد الصحابة وكانوا يرتجزون بين يديه فى حفر الخندق

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد مابقينا أبدا

ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة وحدا به الحادى في منصرفه من خيبر فجعل يقول

والله لولا الله مااهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الاقدام انلاقينا
ان الاولى قد بغوا علينا اذا أرادوا فتنة أبينا

فدعا لقائله

١ ـ فاطر ١
٢ ـ لقمان ١٩

ومنها أنه سمع قصيدة كعب بن زهير وأجازه

ومنها انه استنشد الاسود بن سريع قصائد حمد بها ربه واستنشد من شعر أمية ابن أبي الصلت مائة قافية وأنشد الاعشى شيئا من شعره فسمعه

ومنها أنه صدق لبيدا فى قوله

ألا كل شيء ماخلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

ودعا لحسان أن يؤيده الله بروح القدس ما دام ينافح عنه وكان يعجبه شعره وقال له اهجهم وروح القدس معك وأنشدت عائشة رضى الله عنها قول أبي كثير الهذلى *

واذا نظرت الى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

وقالت أنت أحق بهذا البيت فسر بقولها *

ومنها انهم ادعوا انه رخص فيه عبد الله بن عمر وعبد الله بن جعفر وأهل المدينة وبان كذا وكذا ولى لله حضروه وسمعوه فمن حرمه فقد قدح فى هؤلاء السادة القدوة الاعلام *

ومنها ان اجماع العلماء منعقد على اباحة أصوات الطيور المطربة الشجيه فلذة سماع صوت الآدمى أولى بالاباحة أو مساوية وبان السماع يحدو روح السامع وقلبه الى نحو محبوبه فان كان محبوبه حراما كان السماع معينا له على الحرام وهو حرام فى حقه وان كان مباحا كان السماع فى حقه مباحا وان كانت محبته رحمانية كان السماع فى حقه قربة وطاعة لانه يحرك المحبة الرحمانية ويهيجها وبان التذاذ الاذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن والشم بالروائح الطيبة والذوق بالطعم الطيب فاذا كان هذا حراما كانت هذه اللذات والادراكات محرمة *

والجواب عن ذلك وبالله التوفيق فيما تقدم من كلام شيخ الاسلام ابن تيمية والعلامة ابن القيم وغيرهما كفاية وماذكر حيد عن المقصود وروغان عن محل النزاع فان جهة كون الشيء مستلذا للحاسة ملائما لها لا يدل على اباحته ولا تحريمه ولا كراهته ولا استحبابه فان هذه اللذة تكون فى أحكام التكليف الخمسة فكيف يستدل بها على الاباحة من يعرف شروط الدليل ومواقع الاستدلال

وهل هذا الا بمنزلة من يستدل على اباحة الزنا بما يجد به فاعله من اللذة ولذته لاينكرها ذو طبع سليم وهل يستدل بوجود اللذة الملائمة على حل اللذيذ الملائم أحد وهل خلت غالب المحرمات من اللذات وهل أصوات المعازف التى صح عن النبي صلى الله عليه وسلم تحريمها وان فى أمته من يستحلها باصح الاسانيد وأجمع أهل العلم على تحريم بعضها وقال بعضهم بتحريم جملتها وقد حكى ابن الصلاح الاجماع على تحريم الغناء مع الدف والشبابة يعنى اذا كان معه آلة لهو وهل فى التذاذ الابل والطفل بالصوت الطيب دليل شرعى من اباحة أو تحريم . وأعجب من هذا الاستدلال علي الاباحة بان الله تعالى خلق الصوت الطيب وهو زيادة نعمة منه لصاحبه فيقال والصورة الحسنة الجميلة أليست زيادة فى النعمة والله تعالى خالقها ومعطى حسنها أفيدل ذلك على اباحة التمتع بها والالتذاذ بها على الاطلاق وهل هذا الا مذهب أهل الاباحة الجارين على رسوم الطبيعة ولعل فى ذم الله لصوت الحمار مايدل على اباحة الاصوات المطربات بالنغمات الموزونات والالحان اللذيذات من الصور المستحسنات بأنواع القصائد المستحسنات بالدفوف والشبابات هذا من المضحكات المعجبات. وأعجب من هذا الاستدلال على الاباحة بسماع أهل الجنة أنهم فى روضة يحبرون فما يخاف صاحب هذا الاستدلال فان هذا كمن يستدل على اباحة الخمر بان فى الجنة خمرا وعلى اباحة لبس الحرير بان لباس أهل الجنة الحرير وعلى حل أوانى الذهب والفضة والتحلى بها للرجال فان هذا كله مباح لاهل الجنة *

فان قيل قام الدليل علي تحريم هذا ولم يقم على تحريم السماع قيل هذا الآن استدلال آخر على الاستدلال على اباحته لاهل الجنة فعلم ان استدلالك باباحته لاهل الجنة استدلال باطل وقولك لم يقم دليل على تحريم السماع فيقال أى السماعات تعنى وأي المسموعات تريد فان منهما المحرم والمكروه والمباح والواجب والمستحب فعين نوعا يقع الكلام فيه نفيا واثباتا *

فان قلت سماع القصائد مامدح الله به ورسوله وكتابه وهجى به أعداؤه فهذه لم يزل المسلمون يروونها ويسمعونها ويدرسونها وهى التي سمعها الرسول وأصحابه وأثاب عليها وحرض حسان عليها وهى التى غرت أصحاب السماع الشيطاني

فقالوا تلك قصائد ويكفي هـذا والسنة كلام والبدعة كلام والتسبيح كلام والغيبة كلام ولـكن هل سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه سماعكم هذا المشتمل على قريب من مائة مفسدة ونظير هذا ما استدلوا به على ان الرسول استحسن الصوت الحسن وأذن فيـه كما تقدم من حديث أبي موسى الاشعرى وغيره فنقلوا هـذا الاستحسان الى صوت النسوان والمردان وغيرهم بالغناء المقرون بالدفوف بالصنوج والشبابات والاوتار وغـير ذلك من المعازف وذكر القدود والنغور والنهود والخصور ووصف فواتر العيون وسوادها وسواد الشعور ومحاسن الشباب وحمرة الخدود وذكر الوصل والصد والتجنى والهجران والعتاب والاستعطاف والاشتياق والقلق والفراق وما أشبه ذلك مما هو أفسـد للقلب من سكر الخمر وأى نسبة لسكر يوم ونحوه الى سكرة العشق التى لا يستفيق صاحبها الا في عسكر الهالـكين أسـيرا قتيلا حزينا.وهل تقاس سكرة الشراب الى سكرة الارواح بالسماع فان نازع منازع فى سكر السماع وتأثيره فى العقول والارواح خرجوا عن الذوق والحس فظهرت مكابرة القوم فكيف يحمى الطبيب والمريض عما يشوش عليـه صحته ويبيح له مافيه أعظم السقم والـكلام مع من وجد لا من فقد وأعجب من هذا من استدل على اباحة السماع المركب من الهيئة الاجتماعية اجتماع البنتين الصغيرتين وهما دون البلوغ عند امرأة صبية فى يوم عيد وفرح بابيات للعرب فى وصف الشجاعة والحروب ومكارم الاخلاق والشيم فأين هـذا من هذا والعجب أن هـذا من أكبر الحجج عليهم فان الصـديق سمى ذلك مزمار الشيطان واقره على هـذه التسمية مرخصا فيه لجويريتين غير مكلفتين ولا مفسدة فى إنشاده ولا في استماعه أفيدل هـذا على اباحة مايفعلونه من السماع اليوم وأعجب من هـذا كله الاستدلال على اباحته بما سمعه الرسول من الحدو المشتمل على الحق والتوحيد وهل حرم أحـد مطلق الشعر وقوله واستماعه وأعجب استدلالهم باباحته على اباحة أصوات الطيور اللذيذة وهل هذا الا من جنس قياس الذين قالوا انما البيع مثل الربا وأين أصوات الطيور الى نغمات النسوان والمردان والاوتار والعيدان والغناء منهن بما يحدو الارواح والقلوب الى مواصـلة كل محبوبة ومحبوب وأين

الفتنة بمن هو من جنسك الى الفتنة بصوت القمرى والبلبل والهزار والشحرور ونحوها وأعجب من هذا من قال انه من أنكره فقد أنكر على كذا كذا ولىّ لله فحجة عامية نعم ينكر أولياء الله على أولياء الله فقد أنكر عليهم من أولياء الله من هو أكثر منهم عددا وأعظم عند الله وعند المؤمنين وقد تقاتل أولياء الله فى صفين بالسيوف ولما سار بعضهم الى بعض كان يقال سار أهل الجنة الي الجنة وكون ولىّ الله يرتكب المكروه أو المحظور متأولا أو عاصيا لايمنع ذلك الانكار عليه ولا يخرجه عن أصل ولايته لله وهيهات هيهات أن يكون أحد من أولياء الله المتقدمين حضر هذا السماع المحدث المشتمل على هذه الهيئة التى تفتن القلوب أعظم فتنة *

وذكر شيخ الاسلام ابن تيمية فى موضع من كلامه قال اسحق بن موسى الطباع سألت مالكا عما يترخص فيه أهل المدينة من الغناء فقال انما يفعله عندنا الفساق وهذا النص عن مالك معروف فى كتب أصحاب مالك مشهور وهم أعرف بمذهبه وأضبط ممن ينقل عنه الغلط وعن أهل المدينة من طائفة بالمشرق لاعلم لهم بمذاهب الفقهاء ومن ذكر عن مالك انه ضرب بعود فقد افترى عليه وانما نبهت على هذا لان فيما جمعه أبو عبد الرحمن السلمى ومحمد بن طاهر المقدسى فى ذلك حكايات وآثارا يظن من لاخبرة له بالعلم وأحوال السلف انها صدق وكان الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى فيه من الخير والزهد والدين والتصوف مايحمله على أن يجمع من كلام الشيوخ والآثار التى توافق مقصوده كل مايجده ولهذا يوجد فى كتبه من الآثار الصحيحة والكلام ما ينتفع به فى الدين ويوجد فيها من الاثار السقيمة والكلام المردود مايضر من لاخبرة له وبعض الناس توقف فى روايته حتى ان البيهقى كان اذا روى عنه يقول حدثنا أبو عبد الرحمن من أصل سماعه وأكثر الحكايات التى يرويها أبو القاسم القشيرى صاحب الرسالة عنه فانه كان أجمع شيوخه لكلام الصوفية ومحمد بن طاهر له فضيلة جيدة فى معرفة الحديث ورجاله وهو من حفاظ وقته لكن كثير من المتأخرين أهل الحديث وأهل الزهد وغيرهم اذا صنفوا

فى باب ذكروا ماروى من غث وثمين ولم يميزوا بين ذلك اه كلامه *

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله فى موضع آخر ذكر من صنف فى السماع ومن روى فيه من الاحاديث الموضوعة والمكذوبة ثم قال وكثير من المتأخرين أهل الحديث وأهل الزهد وأهل الفقه والتصوف وغيرهم اذا صنفوا فى باب ذكروا ماروى فيه من غث وثمين ولم يميزوا ذلك كما يوجد فى كثير ممن يصنف فى الابواب مثل المصنفين فى فضائل الشهور والاوقات وفضائل الاعمال والعبادات وفضائل الاشخاص وغير ذلك من الابواب مثل ماصنف بعضهم فى فضائل صيام رجب وغيره وفى فضائل صلوات الايام والليالى صلاة يوم الاحد وصلاة يوم الاثنين والثلاثاء وصلاة أول جمعة فى رجب والتى أول رجب ونصف شعبان وإحياء ليلة العيدين وصلاة يوم عاشوراء وكل هذا كذب باتفاق أهل العلم بالحديث وأجود حديث روي عن النبى صلى الله عليه وسلم فى صيام رجب ما رواه ابن ماجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن صيام رجب وقد ثبت بالاسناد الصحيح عن عمر بن الخطاب أنه كان يضرب أيدى الناس فى رجب حتى يفطروا ويقول لاتشبهوه برمضان وكذا كره افراده بالصوم غير واحد من السلف والائمة وأجود مايروى من هذه الصلوات حديث صلاة التسبيح وقد رواه أبو داود والترمذى وغيرهما ومع هذا فلم يقل به أحد من الائمة الاربعة بل الامام أحمد ضعف الحديث وقال لايصح ولم يستحب هذه الصلاة. وأما ابن المبارك والمنقول عنه فشىء مثل الصلاة المرفوعة فان تلك فيها قعدة طويلة بعد السجدة الثانية وهذا يخالف الاصول فلا يجوز أن يثبت بمثل هذا الحديث ومن تدبر الاصول علم انه موضوع. وأما سائر هذه الاحاديث فانها كلها أحاديث موضوعة مكذوبة باتفاق أهل المعرفة مع انها توجد فى مثل كتاب أبى طالب وكتاب أبى حامد وكتاب الشيخ عبد القادر وتوجد فى مثل أمالى أبى القاسم بن عساكر وفيما صنفه أبو حفص ابن شاهين وعبد العزيز الكنانى وأبو على بن البناء وأبو الفضل بن ناصر وغيرهم وكذلك أبو الفرج ابن الجوزى ذكر مثل هذا فى كتاب فضائل الشهور ويذكر فى الموضوعات انه كذب موضوع *

والذين جمعوا الاحاديث فى الزهد والرقائق يذكرون ماروى فى هـذا الباب ومن أجل ماصنف فى هذا الباب كتاب الزهد لعبد الله بن المبارك وفيه أحاديث واهية وكذلك كتاب الزهد لهناد بن السرى ولوكيع وكذلك الزهد لاسـد بن موسى وغيرهم وأجود ماصنف في ذلك كتاب الزهد للامام احمد لـكنه مرتب على الاسماء وزهد ابن المبارك على الابواب وهذه الـكتب يذكر فيها زهد الانبياء والصحابة والتابعين. ثم ان المتأخرين على صنفين منهم من ذكر زهد المتقـدمين والمتأخرين كابى نعيم فى الحلية وأبى الفرج فى صفوة الصفوة ومنهم من اقتصر على ذكر المتأخرين من حين حدث اسم الصوفية كما فعل أبو عبـد الرحمن السلمى فى طبقات الصوفية وصاحبه أبو القاسم القشيرى في رسالته ثم الحـكايات التى يذكرها هؤلاء ونحوهم كابن خميس الموصلي وأمثاله يذكرون حكايات مرسلة بعضها صحيح وبعضها باطل قطعا والله أعلم *

وقال الشيخ رحمه الله والمقصود هنا ان المذكور عن سلف الامة وأئمتها من المنقولات ينبغي للانسان أن يميز بين صحيحه وسقيمه كما ينبغي مثـل ذلك فى المعقولات والنظريات وكذلك فى الاذواق والمواجيد والمـكاشفات والمخاطبات فان كل صنف من هذه الاصناف الثلاثة فيها حق وباطل فلا بد من التمييز بين هذا وهذا وجميع ذلك أن ماوافق كتاب الله وسنة رسوله الثابتة عنه وما كان عليه أصحابه فهو حق وما خالف ذلك فهو باطل فان الله تعالى يقول (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم)[1] الآية. *

﴿ فصل ﴾ وأما من زعم ان الملائكة أو الانبياء تحضر سماع المكاء والتصدية محبة له ورغبة فيه فهو كاذب مفتر بل انما تحضره الشياطين وهى التى تتنزل عليهم وتنفخ فيهم كما روى الطبرانى وغيره عن ابن عباس مرفوعا ان الشـيطان قال يارب اجعل لى بيتا قال بيتك الحمام قال اجعل لى قرآنا قال قرآنك الشعر قال اجعل لى مؤذنا قال مؤذنك المزمار وقد قال الله تعالى مخاطبا للشيطان (واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك)[2] وقد فسر ذلك بصوت الغناء. وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال انما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين صوت

١ - النساء ٥٩
٢ - الاسراء ٦٤

لهو ولعب ومزامير الشيطان وصوت لطم خدود وشق جيوب ودعاء بدعوى الجاهلية وقد كوشف جماعات من أهل المكاشفات بحضور الشياطين في مجامع السماعات الجاهلية ذات المكاء والتصدية وكيف يدور الشيطان عليهم حتى يتواجدوا الوجد الشيطاني حتى ان بعضهم صار يرقص فوق رؤس الحاضرين ورأي بعض المشايخ المكاشفين أن شيطانه قد حمله حتى رقص به فلما صرخ شيطانه هرب وسقط ذلك الرجل وهذه الامور لها أسرار وحقائق لا يشهدها الا أهل البصائر الايمانية والمشاهد الايقانية ولكن من اتبع ماجاءت به الشريعة وأعرض عن السبل المبتدعة فقد حصل له الهدى وخير الدنيا والآخرة وان من لم يعرف حقائق الامور فهو بمنزلة من سلك السبيل الي مكة خلف الدليل الهادى فانه يصل الى مقصوده ويجد الزاد والماء فى مواطنه وان لم يعرف كيف حصل ذلك وسببه ومن سلك خلف غير الدليل الهادى كان ضالا عن الطريق فاما أن يهلك واما أن يشقى مدة ثم يعود الى الطريق والدليل الهادى هو الرسول الذى بعثه الله الى الناس بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا وهاديا الى صراط مستقيم صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الارض وآثار الشيطان تظهر على أهل السماع الجاهلى مثل الازباد والارغاء والصراخات المنكرة ونحو ذلك مما يضارع أهل الصرع الذين يصرعهم الشيطان وكذلك يجدون فى نفوسهم من ثوران مراد الشيطان بحسب الصوت اما وجد فى الهوي المذموم واما غضب وعدوان على من هو مظلوم واما لطم وشق ثياب وصياح كصياح المحزون المحروم الى غير ذلك من الآثار الشيطانية التى تعترى أهل الاجتماع على شرب الخمر اذا سكروا بها فان السكر بالاصوات المطربة قد يصير من جنس السكر بالاشربة المطربة فتصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة وتمنع قلوبهم حلاوة القرآن وفهم معانيه واتباعه فيصيرون مضارعين للذين يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله ويوقع بينهم العدوة والبغضاء حتى يقتل بعضهم بعضا بأحواله الفاسدة الشيطانية كما يقتل العائن من أصابه بعينه ولهذا قال من قال من العلماء ان هؤلاء يجب عليهم القود والدية اذا عرف انهم قتلوا بالاحوال الفاسدة لانهم ظالمون وهم انما يغتبطون بما ينفذونه من مراداتهم المحرمة كما يغتبط الظلمة المسلطون. ومن

هذا الجنس حال فقراء الكافرين والمبتدعين والظالمين فانهم قد يكون لهم زهد وعبادة وهمة كما يكون للمشركين وأهل الكتاب وكما كان للخوارج المارقين الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرؤون القرآن لايجاوز حناجرهم» الحديث وقد يكون لهم مع ذلك أحوال باطنة كما يكون لهم مملكة ظاهرة فان سلطان الباطن مضاه لسلطان الظاهر ولا يكون من أولياء الله الا من كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون وما فعلوه من الاعانة على الظلم يستحقون العقاب عليه بقدر الذنب وباب القدرة والتمكن ظاهرا وباطنا ليس مستلزما لولاية الله بل قد يكون ولي الله متمكنا ذا سلطان وقد يكون مستضعفا الى أن ينصره الله وقد يكون عدو الله مستضعفا وقد يكون مسلطا الى أن ينتقم الله منه فخفراء السر في الباطن من جنس التتر في الظاهر هؤلاء في العباد بمنزلة هؤلاء في الاجناد وأما الغلبة فان الله قد يديل الكافرين كما كان يكون لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عدوهم لكن العاقبة للمتقين فان الله يقول (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد)[1] واذ كان في المسلمين ضعف وكان العدو مستظهرا عليهم كان ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم اما لتفريطهم في أداء الواجبات باطنا وظاهرا واما لعدوانهم بتعدي الحدود باطنا وظاهرا قال الله تعالى (ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا)[2] وقال تعالى (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم)[3] وقال تعالى (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور)[4] *

وقال الشيخ في موضع آخر وأما اتخاذ التصفيق والغناء والضرب بالدفوف والنفخ في الشبابات والاجتماع على ذلك دينا وطريقا الى الله وقربة فهذا ليس من دين الاسلام وليس مما شرعه لهم نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم ولا أحد من خلفائه ولا استحسن ذلك أحد من أئمة المسلمين بل ولم يكن أحد من أهل الدين يفعل ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عهد أصحابه ولا تابعيهم

١ - غافر ٥١
٢ - آل عمران ١٥٥
٣ - آل عمران ١٦٥
٤ - الحج ٤٠ - ٤١

باحسان ولا تابعي التابعين بل لم يكن أحد من أهل الدين من الاعصار الثلاثة لا بالحجاز ولا بالشام ولا باليمن ولا العراق ولا خراسان ولا المغرب ولا مصر يجتمع على مثل هذا السماع وانما ابتدع فى الاسلام بعد القرون الثلاثة ولهذا قال الشافعى لما رأى ذلك خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة *

وسئل شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله عن رجل يحب السماع والرقص فانكر عليه رجل فقال هذه الابيات

أنكروا رقصا وقالوا حرام　　فعليهم من أجل ذاك سلام
اعبد الله يا فقيه وصل　　والزم الشرع فالسماع حرام
بل حرام عليك ثم حلال　　عند قوم أحوالهم لا تلام
مثل قوم صفوا وبان لهم من　　جانب الطور جذوة وكلام
فاذا قوبل السماع بلهو　　فحرام على الجميع حرام

أجاب الحمد لله رب العالمين هذا الشعر يتضمن منكرا من القول وزورا بل أوله يتضمن مخالفة الشريعة وآخره يفتح باب الزندقة والالحاد المخالفة للحقيقة الالهية الدينية النبوية .وذلك أن قول القائل مثل قوم صفوا وبان لهم من جانب الطور جذوة وكلام يتضمن تمثيل هؤلاء بموسى بن عمران الذي نودى من جانب الطور ولما رأى النار قال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو جذوة من النار لعلكم تصطلون. وهذا قول طائفة من الناس يسلكون طريق الرياضة والتصفية ويظنون انهم بذلك يصلون الى أن يخاطبهم الله كما خاطب موسى بن عمران وهؤلاء ثلاثة أصناف صنف يزعمون انهم يخاطبون بأعظم مما خوطب به موسى بن عمران كما يقول ذلك من يقوله من أهل الوحدة والاتحاد القائلين بأن الوجود واحد كصاحب الفصوص وأمثاله فان هؤلاء يدعون أنهم أعلى من الانبياء وان الخطاب الذى يحصل لهم من الله أعلى مما يحصل لابراهيم وموسى وعيسى ومحمد * ومعلوم ان هذا الكفر أعظم من كفر اليهود والنصارى الذين يفضلون الانبياء على غيرهم لكن يؤمنون ببعض الانبياء ويكفرون ببعض *

والنوع الثانى من يقول ان الله يكلمه مثل كلام موسى بن عمران كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة ومتصوفتهم الذين يقولون ان تكليم موسى فيض فاض على قلبه من العقل الفعال ويقولون ان النبوة مكتسبة *

والنوع الثالث الذين يقولون ان موسى أفضل لكن صاحب الرياضة قد يسمع الخطاب الذى سمعه موسى ولكن موسى مقصود بالتكليم دون هذا كما يوجد هذا فى اخبار صاحب مشكاة الانوار وكذلك سلك مسلكه صاحب خلع النعلين وأمثالها وأما قوله فى أول الشعر لمن يخاطبه الزم الشرع يافقيه وصل يشعر بانك أنت تبع الشرع وأما نحن فلنا الى الله طريق غير الشرع ومن ادعى أن له الى الله طريقا يوصله الى رضوان الله وكرامته وثوابه غير الشريعة التى بعث الله بها رسوله فانه أيضا كافر يستتاب فان تاب والا ضربت عنقه كطائفة اسقطوا التكليف وزعموا ان العبد يصل الى الله بلامتابعة الرسل وطائفة يظنون ان الخواص من الاولياء يستغنون عن متابعة محمد صلى الله عليه وسلم كما استغنى الخضر عن متابعة موسى وجهل هؤلاء ان موسى لم يكن مبعوثا الى الخضر ومحمد صلى الله عليه وسلم رسول الى كل أحد ظاهرا وباطنا مع أن قضية الخضر لم تخالف شريعة موسى بل وافقتها ولكن الاسباب المبيحة للفعل لم يكن موسى علمها فلما علمها تبين أن الافعال توافق شريعته لا تخالفها *

وسئل شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله عن مؤذن يصعد الى المأذنة ينشد أبياتا يذكر فيها الفراق والبين وتفرق الاحباب فانكر عليه رجل فقال له لا تفعل هذا وعليك بالتسبيح والتحميد والقصائد الربانية فهل أصاب أم لا *

أجاب رضى الله عنه الحمد لله نعم ينهى المؤذن أن ينشد الابيات التى هى من جنس النياحة والمراثى وكذلك ما كان من جنس الغزل فان فى ذلك مفاسد كثيرة وليس ذلك من ذكر الله المشروع للمؤذن ولا بأس بالابيات المتضمنة لذكر الآيات والاخبار والتوبة والاستغفار والله أعلم *

(فصل)

نافع ان شاء الله لمن تدبره في قوله تعالى (فطرة الله التي فطر الناس عليها) قال العلماء من المفسرين والنحاة معناه الزموا واتبعوا دين الله الذى خلق الناس له ولهذا نصب على المصدر ومعنى ذلك فطر الله الناس على ذلك فطرة وفطر الناس عليها أى لها وهذه الفطرة أضافها الله اليه اضافة مدح لا اضافة ذم فعلم أنها فطرة محمودة لا مذمومة يبين ذلك قوله (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها) ولهذا نصب على المصدر الذي دل عليه الفعل الاول عند سيبويه وأصحابه فدل على أن اقامة الوجه للدين حنيفا هو فطرة الله التى فطر الناس عليها مثل قوله كتاب الله عليكم وسنة الله فهو عندهم منصوب بفعل مضمر لازم اضماره دل عليه الفعل المتقدم كأنه قال كتب الله عليكم وسن الله ذلك لكم وكذلك وفطر الله الناس على ذلك *

ثم اختلف العلماء والمفسرون فى تفسير الفطرة على أقوال وكذلك الخلاف فى قول النبي صلى الله عليه وسلم «كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة اقرؤا ان شئتم (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله» رواه البخارى ومسلم فالفطرة المراد بها الاسلام قاله أبو هريرة وابن شهاب * وسئل مجاهد عن الفطرة فقال هى الاسلام وكذلك قاله قتادة ثم قال مجاهد (لا تبديل لخلق الله) قال لا تبديل لدين الله وقاله سعيد بن جبير وقتادة والنخعى وروي عن ابن عباس وعكرمة فى احدى الروايتين عنهما والقول بان الفطرة الاسلام هو احدي الروايات عن الامام أحمد وقاله ابن عبد البر فى التمهيد وقال آخرون والفطرة ههنا الاسلام قال وهو المعروف عند عامة السلف وأهل التأويل قاله فى تفسير هذا الحديث المتقدم * ثم قال وأما قوله فطرة الله التى فطر الناس عليها فقد أجمعوا على أن قالوا دين الاسلام انتهى: وليس كما قال وذكر القرطبى فى ١ - الروم ٣
تفسيره أقوالا فى الفطرة منها دين الاسلام وهو المعروف عند عامة السلف الى

ان قال ومعنى هذا أن الطفل خلق سليما من الـكفر على الميثاق الذى أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه وانهم اذا ماتوا قبل أن يدركوا فى الجنة أولاد مسلمين كانوا أو أولاد كفار انتهى *

وقال أبو بكر النقاش اختلف أهل التأويل فى الفطرة فقيل على ملة ابراهيم ثم ذكر قريبا مما ذكره القرطبي *

وقد احتج لهذا القول بادلة *

منها حديث أبى هريرة الذى فى الصحيحين وقد تقدم *

ومنها ماثبت فى صحيح مسلم عن عياض بن حمار المجاشعى عن النبى صل الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل: خلقت عبادى حنفاء مسلمين فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى مالم انزل به سلطانا *

ومنها مارواه الترمذى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد من ولد كافر أو مسلم يولد على فطرة الاسلام ولـكن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم فهودتهم ونصرتهم ومجستهم وأمرتهم أن يشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا *

ومنها مافى الصحيحين خمس من الفطرة أى من فطرة الاسلام وفى مسلم ورواه أحمد وأبو داود عشر من الفطرة وفى لفظ عشر من سنن الاسلام *

وقال جماعة من الفقهاء والمفسرين كل مولود يولد على الفطرة التي خلق عليها فى المعرفة بربه عز وجل معرفة مخالفة لخلقة البهائم التى لاتصل بخلقتها الى معرفته والفاطر الخالق وقوله تعالى (ومالي لا أعبد الذي فطرني)[1] يعنى الذي خلقني ووجهوا هذا بقوله كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء يعنى سليمة هل تحسون فيها من جدعاء مقطوعة الاذن قالوا ففى هذا الحديث تمثيل أولاد بنى آدم وأولاد البهائم لا نقص فيهم *

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية يرد على من قال كل مولود يولد على ماسبق له فى علم الله أنه سائر اليه *

قال الشيخ ومعلوم ان جميع المخلوقات بهذه المثابة فجميع البهائم هى مولودة على

١ - يس ٢٢

ماسبق فى علم الله لها وحينئذ فيكون كل مخلوق مخلوقا على الفطرة وأيضا فلو كان المراد بذلك لم يكن لقوله فابواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه معنى فانهما فعلا به ماهو الفطرة التى ولد عليها فلا فرق بين التهويد والتنصير *

ثم قال بعد أسطر فتمثيله صلى الله عليه وسلم بالبهيمة التى ولدت جمعاء ثم جدعت يبين ان أبويه غيرا ماولد عليه *

ثم قال بعد ذلك وقولكم خلقوا خاليين من المعرفة والانكار من غير أن يكون الفطرة تقتضى واحدا منها بل يكون القلب كاللوح الذى يقبل كتابة الايمان والكفر وليس هو لاحدها أقبل منه للآخر فهذا قول فاسد جدا فحينئذ لا فرق بالنسبة الى الفطرة بين المعرفة والانكار والتهويد والتنصير والاسلام وانما ذلك بحسب الاسباب فكان ينبغى أن يقال فابواه يسلمانه ويهودانه وينصرانه فلما ذكر أن أبويه يكفرانه وذكر الملل الفاسدة دون الاسلام علم ان حكمه فى حصول سبب مفصل غير حكم الكفر *

ثم قال بعد ذلك ففى الجملة كل ما كان قابلا للمدح والذم على السواء لا يستحق مدحا ولا ذما والله تعالى يقول (فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها)[1] فأمره بلزوم فطرته التي فطر الناس عليها *

وأيضا فالنبي صلى الله عليه وسلم شبهها بالبهيمة المجتمعة الخلق وشبه مايطرأ عليها من الكفر بجدع الانف ومعلوم ان كمالها محمود ونقصها مذموم فكيف تكون قبل النقص لامحمودة ولامذمومة اه *

وقد ذكر الخلال فى جامعه فى كتاب أحكام الملل باب الحكم المترتب على الفطرة *

(أنبأ) المروزى أن أبا عبد الله قال فى سبى أهل الحرب انهم مسلمون اذا كانوا صغارا وان كانوا مع أحد الابوين ويحتج بالحديث وذكر عنه نصوصا كثيرة فى هذا الباب *

وقد سئل الزهرى عن رجل عليه رقبة مؤمنة أيجزيه رضيع يعتقه قال نعم لانه ولد على الفطرة وهى الاسلام وقال الزهرى يصلى على كل مولود متوفى وان كان

[1] ١ - الروم ٣٠

الفية لانه ولد على فطرة الاسلام والاسلام هو قول لااله الاالله وذلك فى قوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للاسلام)[١] قال ابن عباس وأكثر المفسرين لقول لا اله الا الله ولهذا كان معلوما بالفطرة أنه لابد لكل موجود من موجد ولكل مصنوع من صانع كما قال تعالى (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون)[٢] يقول أخلقوا من غير خالق خلقهم أم خلقوا أنفسهم مع اعترافهم (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولون الله)[٣] ﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله﴾[٤] الآيات الثلاث ﴿

ولما كان علم النفوس بحاجتهم وفقرهم الى الرب قبل علمهم بحاجتهم الى الاله المعبود وقصدهم لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة كان اقرارهم بالله اقرارا فطريا من جهة ربوبيته أسبق من اقرارهم به من جهة ألوهيته ولهذا انما بعثت الرسل تدعوهم الى عبادة الله وحده لاشريك له فتفاصيل الامر والنهى انما تعرف من جهة الرسل ﴿

وأما الرب تعالى فهو معروف بالفطرة (قالت رسلهم أفى الله شك)[٥] فالمشركون من عباد الاصنام وغيرهم من أهل الكتاب معترفون بالله مقرون به انه ربهم وخالقهم ورازقهم وانه رب السموات والارض والشمس والقمر وانه المقصود الاعظم ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم لابى عمران بن حصين كم تعبد اليوم الها قال ستة فى الارض وواحد فى السماء قال فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك قال الذى فى السماء رواه الترمذي . فالله تعالى فطر الخلق كلهم على معرفته فطرة توحيده حتى من خلق مجنونا مطبقا مصطلما لايفهم شيئا مايحلف الا به ولا يلهج بلسانه بأكثر من اسمه المقدس فطرة بالغة ﴿

ولقد حدثنا شيخنا ابن قاضي الجبل عن بعض العلماء لا استحضره قال لو ترك طفل رضيع في بيت لا يكلم وله من يقوم بأمره لعرف ربه ونطق بالسريانية وكونه نطق بفطرته التي فطر عليها لم يستبعد. فنوع الانسان أشرف من كثير من المخلوقات قال ابن عباس من جميع المخلوقات قاله فى قوله (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا

١ ـ الزمر ٢٢
٢ ـ الطور ٣٥
٣ ـ لقمان ٢٥
٤ ـ المؤمنون ٨٦ ـ ٨٧
٥ ـ إبراهيم ١٠

تفضيلا) ولا شك انه أفضل من الجمادات وقد فطر الله الجمادات على تسبيحه وتحميده وتنزيهه نطقا لا يفهمه الا الذى أنطقها به قال تعالى (تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا)[1] قال شيخنا ابن قاضي الجبل فى هذه الآية قال تسبيحها تسبيح حقيقي ولهذا قال انه كان حليما غفورا أي اذا كانت الجمادات التى لا تمتنع تسبح بحمد خالقها فهو حليم غفور اذالم يعاجل المقصرين الذين كملت النعمة فى حقهم بالعقوبة وقال تعالى (ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والارض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه)[2] الآية.وقال تعالى (سبح لله مافى السموات وما فى الارض وهو العزيز الحكيم)[3] وقال تعالى (يسبح لله ما فى السموات وما فى الارض)[4] والآيات كثيرة فى هذا الباب وقد أتى بلفظ الماضى الدال على وقوع التسبيح وصدوره بلفظ المضارع الدال على استمرار التسبيح وتجدده كل وقت ولا يستنكر معرفتها بخالقها وتسبيحها بحمده اذ قد فطرها عليه كما فطر بنى ادم على الاقرار بربوبيته ألست بربكم قالوا بلى لم يتخلف منهم أحد وكما أخبر الله عن عباده أنهم يسبحونه بكرة وعشيا فى قوله تعالى (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال)[5] وقال تعالى (فأوحي اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا)[6] وقال تعالى (اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا)[7] وكذلك أخبر سبحانه عن الجبال فقال تعالى فى حق داود (انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق)[8] قال أبو هريرة كان داود اذا سبح أجابته الجبال والطير بالتسبيح والذكر .وقال أبو الفرج ابن الجوزى قد روي أن داود كان اذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت حتى يشتاق هو فيسبح وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلي الله عليه وسلم مر بجبل جمدان فقال هذا جمدان سبق المفردون قالوا وما المفردون يارسول الله قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات فهذا جبل سبق المفردين بذكر الله الى ذكر الله بل قد أخبر سبحانه أنه خاطب الجمادات فقال تعالى (ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبي معه والطير)[9] والتأويب هو ترجيع التسبيح وأخبر سبحانه عن الحجارة ان

١ ـ الاسراء ٤٤
٢ ـ النور ٤١
٣ ـ الحشر ١ الصف ١
٤ ـ الجمعة ١ التغابن ١
٥ ـ النور ٣٥ ـ ٣٦
٦ ـ مريم ١١
٧ ـ الأحزاب ٤١ ـ ٤٢
٨ ـ صّ ١٨
٩ ـ سبأ ١٠

منها لما يهبط من خشية الله وهذا يدل على انها تعرف ربها معرفة تليق بها فان الخشية تستلزم العلم بالمخشي وكذلك قوله (ثم استوي الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين)[١] وهذا خطاب من يعرف ربه ويعقل أمره وليس هذا خطاب تكوين لمعدوم فانه خاطبهما بعد وجودهما وكذلك قوله (اذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت)[٢] ومعنى أذنت أصغت واستمعت لقوله وأمره وكذلك أخباره عن الارض يوم القيامة انها يومئذ تحدث أخبارها وفى الترمذي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال أتدرون ما أخبارها قالوا الله ورسوله أعلم قال أن تشهد على كل عبد بما عمل علي ظهرها من خير أو شر وهذه شهادة نطق لما تحملته من الشهادة فى هذه الدار لما أوحى لها فانه تعالى قال (بأن ربك أوحى لها)[٣] وكذلك أخبر سبحانه وتعالى عن سجود المخلوقات له فقال تعالى (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب)[٤] ولو كان سجودها هو مجرد دلالتها على الصانع كما يقوله بعض المفسرين لما اختص بكثير من الناس بل جميع العالم دال على صانعه وأمثال هذا كثير فى القرآن وما كان بهذه المثابة كيف يستنكر معرفته لربه وسجوده له وتسبيحه بحمده. ولو لم يكن فى هذه الآيات الا قوله تعالى (سبح لله مافى السموات ومافى الارض وهو العزيز الحكيم)[٥] في أوائل هذه السور فانه سبحانه أتى بلفظ ما المتناولة لغير أولى العلم قطعا اما اختصاصا واما تغليبا ولا يصح حمل ماذكرنا من الآيات على أولى العلم وتخصيصها بهم اذ لو أريد ذلك لجيء بلفظ من المختصة بمن يعقل وان كان قد وقع فى القرآن ما لمن يعقل ومن لما لا يعقل ففيه بحث ليس هذا محل ذكره *

والمقصود اذا كانت هذه الجمادات قد فطرت على معرفة ربها وتسبيحه وتنزيهه والانسان أشرف منها فلأن يفطر هو على معرفته بربه بطريق الاولى والاحرى لما ركب الله فيه من العقل والتمييز والفطنة لاسيما وقد نطق الكتاب والسنة بأنه فطره على الاسلام والاسلام كلمة التوحيد كما تقدم وان كان الاسلام فى الاصل هو الاستسلام والانقياد *

١ ـ فصلت ١١
٢ ـ الانشقاق ١ ـ ٢
٣ ـ الزلزلة ٥
٤ ـ الحج ١٨
٥ ـ الحشر ١
الصف ١

﴿ فصل ﴾ ومن تمام الكلام على ان معرفة الله تعالى فطرية وتقدم الاستدلال بالآية والحديث فان أول مايبدأ به فى الاستدلال الكتاب والسنة ثم أقوال العلماء والمفسرين وان كان في أصل المسئلة الناس متنازعون فى أصل المعرفة بالصانع هل هى فطرية أو نظرية وان شيخ الاسلام ابن تيمية يفصل فيقول يختلف باختلاف الناس ولكن الصحيح انها فطرية لانه قد ثبت ان النبى صلى الله عليه وسلم قال كل مولود يولد على الفطرة ولكن قد يعرض للفطرة مايفسدها فتحتاج حينئذ الى النظر فهى في الاصل ضرورية وقد تكون نظرية. ثم المعرفة الواجبة لاتتعلق بنظر خاص بل قد تحصل ضرورية فتصفية النفس ورياضتها من أعظم الاسباب فى حصول المعرفة الضرورية ولكن قد تحتاج الى أمور يجب الايمان بها فيتوقف على النظر فيجب النظر لماطرأ على الفطرة من الفساد فان كون هذا العالم لا بدله من صانع وخالق ومدبر فهذا ضرورى فكونه لا يعرف هذا الا بطريق النظر فيه نظر وأى نظر بل هو معلوم عقلا وواجب عقلا وقد أركزه الله تعالى فى فطرة مخلوقاته متحركها وساكنها ناطقها وصامتها حيوانها وجمادها كما تقدم أنها مسبحة بحمده عارفة به *

فني كل شيء له آية تدل على انه واحد

ومع دلالتها على الوحدانية مسبحة بحمده معترفة به تسجد له وان جميع المخلوقات خلا كفار الثقلين تسبح بحمده وتسبيح كل شيء بحسبه فلولا ان كل شيء يسبح بحمده وينزهه ويعظمه بما لانفهمه نحن ولا يعلمه الا الذى أنطقه بهلما أخبرنا به وانه دال على عظمته *

وقد روينا في جزء الفريابى في كتاب الذكر له باسناده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال ان الجبل لينادى الجبل مقابله باسمه هل مر بك اليوم ذاكر الله عز وجل فان قال نعم فيقول هنيئالك لكن مامر على اليوم أحد يذكر الله *

وروى أيضا باسناده عن أنس رضى الله عنه قال مامن صباح ولارواح الاتنادى بقاع الارض بعضها بعضا ياجارة هل مر بك اليوم عبد فصلى عليك لله أوذكر الله عليك فمن قائلة لا ومن قائلة نعم فاذ لقالت نعم رأت بذلك لها فضلا . فكل فطرة سليمة لم تجتالها

الشياطين ولم تفسد عليها فطرتها تصدق بذلك وتقر به وتزداد ايمانا ولا يقول هذه أخبار آحاد وآثار لا تفيد شيئا في هذا الباب وانما هذه من باب الفرجة والمطالعة

قلنا يكفينا ما تقدم لنا من أخبار الله تعالى في القرآن من الدليل القطعي عن الحجارة ان منها لما يهبط من خشية الله وهذا يدل على أنها تعرف ربها معرفة تليق بها والا لما هبطت من خشيته فان الخشية تستلزم العلم بالمخشي. قد تقدم ذلك *

قال ابن عبد السلام للعلماء في الحجارة وانها تهبط من خشية الله ثلاثة مذاهب قالت الصوفية هي حيوان وفيها جزء حي تسبح الله تعالى وتخر له وتسجد له وقال آخرون هذا من مجاز التشبيه وقال الاشعري الله تعالى يخلق لها حياة عند ارادة ذلك منها نحو جبل الطور انتهى كلامه ذكره في النكت *

قلت ما ذكره من هذه الاقوال * أما القول الاول فهو قول بعض جهلة الصوفية والافكون الحجارة حيوانا انما يعلم بالفطرة بطلانه * وأما القول الثاني كونه من مجاز التشبيه فان هذا انما يشهد الكتاب والسنة ببطلانه. أما الكتاب فما تقدم لنا من الايات على تسبيح كل شيء بحمده وأما السنة فتسبيح الحصى في كف النبي صلى الله عليه وسلم ثم في كف غيره من الصحابة تسبيحا يسمعه الحاضرون . وقال النبي صلى الله عليه وسلم اني لاعرف حجرا كان يسلم علي قبل أن أبعث فهذا الحجر عرف ربه وعرف رسوله ولو لم ينطق بكلام مسموع مفهوم مخصوص بذكر مبين لما أخبر عنه ولهذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن جبل جمدان فقال هذا جمدان يحبنا ونحبه وكذلك أخبر عن أحد أنه يحبنا ونحبه وهذا جبل يبغضنا ونبغضه *

قال ابن عباس لما أراد الله تعالى أن يتجلى لموسى تطاولت الجبال ليتجلى لها وتواضع زبير يعني الطور فتجلى له وهذا يدل على أنها تعرف ربها

وروى ابن الجوزي عن معاوية بن قرة عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله وجعله دكا قال صار لعظمته ستة أجبال فوقعت ثلاثة بالمدينة: أحد وورقان ورضوى ووقعت بمكة ثلاثة: ثبير وحراء وثور

بل هو سبحانه وتعالى قد خاطب الجمادات فقال تعالى (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان)[1] فهذا

١ - الأحزاب ٧٢

الاباء والاستعفاء بعد أن عقلت خطابه وفهمته وعلمت عجزها*

وليس المقصود ذلك وانما المقصود ان الانسان أشرف عند الله وأعظم من الجبال حتى من البيت لما روى ابن ماجه عن ابن عمر قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول ما أطيبك وأطيب ريحك وأعظم حرمتك والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك*

فمع شرف الانسان لا يركب الله في فطرته وعقله ما يعرفه ربه من غير دليل نظرى يحتاج فهمه الى عسر وقد ينتقض عليه أو يشككه فيه من هو ألحن بحجته منه*

هذا الهدهد طير من الطيور وفي نظرنا عديم العقل يصيح كغيره من الطيور قد خاطب سليمان بأعظم التوحيد وأعلمه بغير ذلك فقال (أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين)[1] الى قوله (الله لا اله الا هو رب العرش العظيم)[2] هذا كله كلام الهدهد كما اتفق على ذلك المفسرون فمعرفة الله تعالى فطرية قد فطر الله تعالى عليها جميع المخلوقات

فان أريد بالمعرفة المعرفة التامة وهي معرفته بصفات الكمال ونعوت الجلال فيما لم يزل ولا يزال ومعرفة أسمائه وما أمر به وما نهى عنه وما أخبر به وما أراده من عباده شرعا وما كرهه منهم ولم يرضه ولم يرد وقوعه فهذا ما يعلم الا بالسمع من جهة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فعبادة الله تعالى والايمان به انما يجب بالسمع ويلزم بالبلاغ

قال الامام احمد في رواية المروزي معرفة الله تعالى في القلب تتفاضل وتزيد وهذا يدل على أن المعرفة أصلها في القلب فطرية ثم انها تزيد وتتمكن بتظاهر الادلة والقاضى أبو يعلى في المعتمد استدل بهذه الرواية على أنها كسبية وقال لانها لو كانت فطرية لم تزد وقال في رواية يعقوب ان المعرفة لا تزيد ولا تنقص وهذه الرواية عكس الاولى وحملها القاضى على انه أراد بالمعرفة ههنا الاقرار بالاسلام وهو لا يزيد ولا ينقص لانه موقوف على الشهادتين وفيما قاله نظر لانه صدر في أول المسألة فقال معرفة الله تحصل بادلته الظاهرة وحججه القاهرة وهي أنفسنا والسموات والارض وما بينهما وذلك ان آثار الصنعة لازمة لهذه الاشياء تدل على صانع صنعها ومنشئ انشأها ذكره في المعتمد

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في الكلام على سورة القلم وذكر أن أول ما أوجب الله على نبيه وأمره به اقرأ باسم ربك الذي خلق ثم قال بعد كلام كثير

[1] ـ النمل ٢٢
[2] ـ النمل ٢٦

فقد بين أن الاقرار بالاعتراف بالخالق فطري ضروري فى نفوس الناس وان كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج الى نظر يحصل له به المعرفة وهذا قول جمهور الناس وعليه حذاق النظار أن المعرفة تحصل بالضرورة وقد تحصل بالنظر لمن فسدت فطرته كما اعترف بذلك خلائق من أئمة المتكلمين انتهى *

وقال الشيخ أيضاً فى شرح الاصفهانية وأما طريقة القرآن فى اثبات الصانع فانا قد بينا فى غير هذا الموضع اختلاف الناس في الاقرار بالصانع هل هو فطرى أو نظرى و بينا قول من قال انه فطرى وأن كل مولود يولد على الفطرة وأنه قد يصير نظرياً لبعض الناس لما يعرض له من الشبه ويستدل على ذلك بالادلة الكثيرة انتهى فاذا قلنا هذا محدث وكل محدث فلا بد له من محدث أو هذا ممكن وكل ممكن فلا بد له من موجب أو هذا موجود وكل موجود فلا بد له من موجد أو هذا مخلوق وكل مخلوق فلا بد له من خالق أو هذا مصنوع وكل مصنوع فلا بد له من صانع ونحو ذلك فهذا صحيح معلوم بالفطرة وقد يقول من يتحذلق بذهنه و يتهم أذهان الناس بالفساد ويركن الى ذهنه وعقله فيقول هذا يدل على محدث مطلق وواجب مطلق وواحد مطلق لا يمتنع تصوره من وقوع الشركة فيه فلهذا يكله الله تعالى الى ذهنه وفهمه وعقله فما يرشده الله الى الصواب ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً فمن يهد الله فهو المهتد *

فمن طلب الهداية من الله عز وجل واعترف بالعجز وعرف ربه بالقدرة ونفسه بالعجز وعلم أنه لا بد أن ينتهى الى فاعل قديم لا يكون الا واحداً وواجب بنفسه لا يكون الا واحداً فهو واحد مطلق عندنا أليس هو معيناً فى نفس الامر وآيات الله سبحانه وتعالى دالة على نفسه المقدسة الشريفة فهذا وأمثاله ممن فسدت فطرته لا سيما فى معرفة ربه فلا بد من النظر ولهذا قدمنا أنها فطرية وأن الشيخ رحمه الله قال وقد يعرض لبعض الناس من الشبه ما يفسد فطرته فلا بد له من النظر وهذا الذى عرض هو ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم فى نفس الحديث أن كل مولود يولد على فطرة الاسلام ولكن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم

فمنهم من هودته ومنهم من نصرته ومنهم من مجسته وتقول ومنهم من وسوست له بما تشككه فى خالقه وقد أخبر فقال عن رسله انهم قالوا لقومهم أفي الله شك فاطر السموات والارض يعنى خالق السموات والارض ومالى لا أعبد الذي فطرنى أى خلقنى أفى الخالق شك وقد قال هل من خالق غير الله *

قال شيخ الاسلام ابن تيمية ذهب طوائف من النظار الى أن معرفة الله واجبة ولا طريق اليها الا بالنظر فأوجبوا النظر على كل أحد وهذا القول انما اشتهر فى الامة عن المعتزلة ونحوهم ولهذا قال أبو جعفر السمنانى وغيره ايجاب الاشعري النظر فى المعرفة بقية بقيت عليه من الاعتزال وقد دخل في هذا القول طوائف من الفقهاء من أصحاب الائمة الاربعة كالقاضي أبي يعلى وأتباعه مثل أبي الفرج الشيرازى وأبى الخطاب وابن عقيل وغيرهم ومع هذا فقد اختلف كلام الاشعرى واصحابه فى ايجاب النظر فقال أبو اسحاق الاسفراينى من اعتقد ما يجب اعتقاده هل يكتفى به اختلف الاصحاب فيه ثم ذكر كلامه وكلام الاشعرى وأصحابه مطولا وذكر في المسألة قولين عنهم حتى ان أبا اسحاق نفسه اختلف كلامه ثم قال واختلفوا أيضاً فى النظر فى قواعد الدين هل هو من فروض الاعيان أو من فروض الكفايات والذين أوجبوا النظر منهم من قال لا يصح الايمان الا به ومنهم من قال يصح الايمان بدونه لكن تاركه عاص وهذه الاقوال كلها ما يقوم الدليل من الكتاب والسنة الا على بعضها *

ورأيت بخط بعض الفضلاء من أصحابنا وقال طوائف من العلماء النظر لا يجب على أحد إما لان الواجب الاعتقاد الجازم دون المعرفة وذلك لا يحتاج الى نظر واما لان المعرفة لها طرق غير النظر فتحصل ضرورة وقد تحصل الهاماً وقد تحصل بالتصفية وهو قول طوائف من النظار والفقهاء وأهل الحديث والصوفية وغيرهم وهو قول طائفة من أصحاب احمد والشافعى وغيرهما والله أعلم *

وقال بعض العلماء يجب النظر فى حال دون حال وعلى شخص دون شخص فوجوبه من العوارض التى تجب على بعض الناس فى بعض الاحوال لا من اللوازم العامة فيقال كل علم وجب ولم يحصل الا بالنظر وجب النظر وأما اذا حصل

ضرورة أو حصل العلم بدون النظر أو لم يكن العلم واجباً لم يكن النظر واجباً *

وذكر شيخ الاسلام ابن تيمية فى موضع من مصنفاته هذا الكلام وقال هذا أعدل الاقوال وكلام الائمة والسلف انما يدل عليه والذين أوجبوا النظر ليس معهم ما يدل على عموم وجوبه انما يدل على أنه قد يجب فانهم قالوا الواجب لا يحصل الا به لقوله تعالى (قل انظروا ماذا في السموات والارض وما تغنى الآيات والنذر) الآية . وقوله (قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى) وقوله (فلينظر الانسان مما خلق) فهذه النصوص خطاب مع المتكبرين الجاحدين فأمروا بالنظر ليعرفوا الحق ويقروا به ولا ريب أن النظر يجب على هؤلاء والذين خالفوا فى وجوب النظر ومنعوا قالوا لا نسلم وجوب المعرفة ولا نسلم انحصار طريقها فى النظر *

والمقصود ان الذين أوجبوا لله علي عباده أن يؤمنوا بالله ورسوله وأن يطيعوا الله ورسوله فهذا فرض على كل أحد ووجوب الايمان بالله معلوم بالاضطرار من دين الاسلام ونصوص القرآن متظاهرة به فالعلم بمعرفة الله ضرورى والا لو كان نظريا لكان يجب علي الرسل أول مايدعونهم الى النظر وهذا مما علم فساده من دين الاسلام فان كل كافر اذا أراد الدخول فى دين الاسلام أول مايؤمن بالشهادتين فلو قال أنا أقر بالخالق لم يكن بذلك مسلما ولو قال أنا أعرف الله انه رب العالمين ورازقهم ومدبرهم لم يصر بذلك مسلما فمعرفة الله فطرية حاصلة لجمهور الخلق *

فان قيل اذا كانت معرفته تعالى فطرية ضرورية وهى ثابتة في فطرة كل أحد وكيف ينكر ذلك كثير من النظار نظار المسلمين أو غيرهم وفي زعمهم أنهم الذين يقيمون الادلة العقلية علي المطالب الالهية *

فيقال أول من عرف فى الاسلام بانكار هذه المعرفة هم أهل الكلام الذين اتفق السلف على ذمهم من الجهمية والقدرية وهم عند سلف الامة من أضل الطوائف وأجهلهم هذا معنى ماذكر شيخ الاسلام ابن تيمية وكذلك ما أركزه الله فى فطرة كل أحد انه اذا دعا لم يلتفت يمنة ولا يسرة بل يجد فى قلبه ضرورة تطلب العلو ولهذا قال امام الحرمين لما أورد عليه معنى هذا قال حيرني الهمداني *

وأما العلم الذى لايحصل الا بالنظر فيجب لاجله النظر لفهم القرآن الذى لايحصل الا بتدبره والنظر فيه وكذلك يجب النظر فى مسائل النزاع التى لا يعلم الحق فيها الا بالنظر فاذا أراد معرفة الحق فيها وجب عليه النظر فاذا اجتهد غاية الاجتهاد و بذل وسعه وأداه النظر الى غير الحق فيها فخطؤه مغفور له وله أجر اجتهاده وان أصاب الحق فله أجران *

فالله تعالى يلهمنا الرشاد * ويوفقنا للسداد * فى أقوالنا وأفعالنا ممـا يحبه ربنا ويرضاه ويفعل ذلك باخواننا من المؤمنين آمين انه ولى ذلك والقادر عليه والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد النبى الامى وآله وصحبه وسلم *

﴿ تمت الرسالة التاسعة ويليها الرسالة العاشرة ان شاء الله تعالى ﴾

الرسالة العاشرة

فى شرح حديث ابى ذر رضى الله عنه

لشيخ الاسلام تقى الدين أبى العباس احمد بن تيمية الحرانى

المتوفى سنة ٧٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل شيخ الاسلام احمد بن عبد الحليم بن تيمية عن معنى حديث أبى ذر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن الله تبارك وتعالى انه قال « ياعبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ياعبادى كلكم ضال الا من هديته فاستهدونى أهدكم . ياعبادى كلكم جائع الا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم . ياعبادى كلكم عار الا من كسوته فاستكسونى أكسكم . ياعبادى انكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم ياعبادى انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكي شيئا . ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم مانقص ذلك من ملكي شيئا . ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل انسان منهم مسألته مانقص ذلك مما عندى الا كما ينقص المخيط اذا دخل البحر . ياعبادى انما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله عز وجل

ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه »

فأجاب رضي الله عنه الحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة الا بالله*

أما قوله تعالى يا عبادى انى حرمت الظلم على نفسى ففيه مسألتان كبيرتان كل منهما ذات شعب وفروع. احداهما فى الظلم الذى حرمه الله على نفسه ونفاه عن نفسه بقوله (وماظلمناهم)[1] وقوله (ولا يظلم ربك أحدا)[2] وقوله (وما ربك بظلام للعبيد)[3] وقوله (ان الله لايظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها)[4] وقوله (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا)[5]. ونفى ارادته بقوله (وما الله يريد ظلما للعالمين)[6] وقوله (وما الله يريد ظلما للعباد)[7] ونفى خوف العباد له بقوله (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما)[8] . فان الناس تنازعوا فى معنى هذا الظلم تنازعا صاروا فيه بين طرفين متباعدين ووسط بينهما وخيار الامور أوساطها وذلك بسبب البحث فى القدر ومجامعته للشرع اذ الخوض فى ذلك بغير علم تام أوجب ضلال عامة الامم ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عن التنازع فيه فذهب المكذبون بالقدر القائلون بأن الله لم يخلق أفعال العباد ولم يرد أن يكون الا ما أمر بأن يكون وغلاتهم المكذبون بتقدم علم الله وكتابه بما سيكون من أفعال العباد من المعتزلة وغيرهم الى أن الظلم منه هو نظير الظلم من الآدميين بعضهم لبعض وشبهوه ومثلوه فى الافعال بأفعال العباد حتى كانوا هم ممثلة الافعال وضربوا لله الامثال ولم يجعلوا له المثل الاعلى بل أوجبوا عليه وحرموا ما رأوا انه يجب على العباد ويحرم بقياسه على العباد واثبات الحكم فى الاصل بالرأى وقالوا عن هذا اذا أمر العبد ولم يعنه بجميع مايقدر عليه من وجوه الاعانة كان ظالما له والتزموا انه لايقدر أن يهدي ضالا كما قالوا انه لا يقدر أن يضل مهتديا وقالوا عن هذا اذا أمر اثنين بأمر واحد وخص أحدهما باعانته على فعل المأمور كان ظالما الى أمثال ذلك من الامور التى هي من باب الفضل والاحسان جعلوا تركه لها ظلما وكذلك ظنوا أن التعذيب لمن كان فعله مقدرا ظلم له ولم يفرقوا بين التعذيب لمن قام به سبب استحقاق ذلك ومن لم يقم وان كان ذلك الاستحقاق خلقه لحكمة أخرى عامة أو خاصة وهذا الموضع زلت فيه أقدام وضلت فيه افهام

١ - هود ١٠١
٢ - الكهف ٤٩
٣ - فصلت ٤٦
٤ - النساء ٤٠
٥ - النساء ٧٧
٦ - آل عمران ١٠٨
٧ - غافر ٣١
٨ - طه ١١٢

فعارض هؤلاء آخرون من أهل الكلام المثبتين للقدر فقالوا ليس للظلم منه حقيقة يمكن وجودها بل هو من الامور الممتنعة لذاتها فلا يجوز أن يكون مقدوراولا أن يقال انه هو تارك له باختياره ومشيئته وانما هو من باب الجمع بين الضدين وجعل الجسم الواحد فى مكانين وقلب القديم محدثا والمحدث قديما والا فهما قدر فى الذهن وكان وجوده ممكنا والله قادر عليه فليس بظلم منه سواء فعله أو لم يفعله وتلقى هذا القول عن هؤلاء طوائف من أهل الاثبات من الفقهاء واهل الحديث من اصحاب مالك والشافعى واحمد وغيرهم ومن شراح الحديث ونحوهم وفسروا هذا الحديث بما ينبنى على هذا القول وربما تعلقوا بظاهر من أقوال مأثورة كما روينا عن إياس بن معاوية انه قال ما ناظرت بعقلى كله احدا الا القدرية قلت لهم ما الظلم قالوا ان تأخذ ماليس لك او ان تتصرف فيما ليس لك قلت فلله كل شيء وليس هذا من اياس الا ليبين ان التصرفات الواقعة هى فى ملكه فلا يكون ظلما بموجب حدهم وهذا مما لا نزاع بين اهل الاثبات فيه فانهم متفقون مع الايمان بالقدر على ان كل ما فعله الله فهو عدل وفى حديث الكرب الذى رواه الامام احمد عن عبدالله ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب عبدا قط هم ولا حزن فقال اللهم انى عبدك ابن عبدك بن أمتك ناصيتى بيدك ماض فىّ حكمك عدل فىّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همى وغمى الا أذهب الله همه وغمه وابدله مكانه فرحا. قالوا يارسول الله أفلا نتعلمهن قال بلى ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن فقد بين أن كل قضائه فى عبده عدل (ولهذا يقال كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ويقال أطعتك بفضلك والمنة لك وعصيتك بعلمك أو بعدلك والحجة لك فاسألك بوجوب حجتك على انقطاع حجتى الا ماغفرت لى) وهذه المناظرة من اياس كما قال ربيعة بن أبى عبد الرحمن لغيلان حين قال له غيلان نشدتك الله أترى الله يحب أن يعصى فقال نشدتك الله أترى الله يعصى قسرا يعني قهرا فكأنما القمه حجرا (فان قوله يحب أن يعصى لفظ فيه اجمال

وقد لايتأتى في المناظرة تفسير المجملات خوفا من لدد الخصم فيؤتي بالواضحات فقال افتراه يعدى قسرا فان هذا الزام له بالعجز الذى هو لازم للقدرية ولمن هو شر منهم من الدهرية الفلاسفة وغيرهم وكذلك اياس رأى ان هذا الجواب المطابق لحدهم خاصم لهم ولم يدخل معهم في التفصيل الذى يطول) وبالجملة فقوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلايخاف ظلما ولا هضما)[١] قال أهل التفسير من السلف لايخاف أن يُظلم فيحمل عليه سيئات غيره ولايهضم فينقص من حسناته ولا يجوز ان يكون هذا الظلم هو شيء ممتنع غير مقدور عليه فيكون التقدير لايخاف ماهو ممتنع لذاته خارج عن الممكنات والمقدورات فان مثل هذا اذاً لم يكن وجوده ممكنا حتى يقولوا انه غير مقدور ولو أراده كخلق المثل له فكيف يعقل وجوده فضلا ان يتصور خوفه حتى ينفي خوفه ثم أى فائدة فى نفى خوف هذا وقد علم من سياق الكلام ان المقصود بيان أن هذا العامل المحسن لايجزي على احسانه بالظلم والهضم (فعلم أن الظلم والهضم المنفي يتعلق بالجزاء كما ذكره أهل التفسير * وان الله لايجزيه الا بعمله ولهذا كان الصواب الذي دلت عليه النصوص ان الله لايعذب فى الآخرة الا من أذنب كما قال لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين . فلو دخلها أحد من غير أتباعه لم تمتلئ منهم ولهذا ثبت فى الصحيحين في حديث تحاج الجنة والنار من حديث أبي هريرة وأنس أن النار تمتلئ ممن ألقي فيها حين ينزوي بعضها الى بعض وتقول قط قط بعد قولها هل من مزيد وأما الجنة فيبقى فيها فضل عمن يدخلها من اهل الدنيا فينشىء الله لها خلقا آخر ولهذا كان الصواب الذى عليه الائمة فيمن لم يكلف في الدنيا من أطفال المشركين ونحوهم ماصح به الحديث وهو أن الله اعلم بما كانوا عاملين فلا نحكم لكل منهم بالجنة ولا لكل منهم بالنار بل هم ينقسمون بحسب مايظهر من العلم فهم اذا كلفوا يوم القيامة فى العرصات كما جاءت بذلك الآثار وكذلك قوله تعالى(من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد)[٢] يدل الكلام على أنه لايظلم محسنا فينقصه من احسانه أو يجعله لغيره ولا يظلم مسيئا فيجعل عليه سيئات غيره بل لها ما كسبت وعليها ماا كتسبت وهذا كقوله لاأم

١ ـ طه ١١٢
٢ ـ فصلت ٤٦

لم ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم الذي وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى وان ليس للانسان الا ماسعي)[1] . فاخبر انه ليس على أحد من وزر غيره شيء وأنه لا يستحق الا ماسعاه وكلا القولين حق على ظاهره

وان ظن بعض الناس أن تعذيب الميت ببكاء أهله عليه ينافى الاول فليس كذلك اذ ذلك النائح يعذب بنوحه لايحمل الميت وزره ولكن الميت يناله ألم من فعل هذا كما يتألم الانسان من أمور خارجة عن كسبه وان لم يكن جزاء الكسب والعذاب أعم من العقاب كما قال صلى الله عليه وسلم « السفر قطعة من العذاب » .

وكذلك ظن قوم انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحى ينافى قوله (وان ليس للانسان الا ماسعى) فليس الامر كذلك فان انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحى بالنسبة الى الآية كانتفاعه بالعبادات المالية ومن ادعى أن الآية تخالف أحدهما دون الاخر فقوله ظاهر الفساد بل ذلك بالنسبة الى الآية كانتفاعه بالدعاء والاستغفار والشفاعة وقد بينا فى غير موضع نحوا من ثلاثين دليلا شرعيا يبين انتفاع الانسان بسعى غيره اذ الآية انما نفت استحقاق السعي وملكه وليس كل مالا يستحقه الانسان ولا يملكه لايجوز أن يحسن اليه مالكه ومستحقه بما ينتفع به منه فهذا نوع وهذا نوع وكذلك ليس كل مالا يملكه الانسان لايحصل له من جهته منفعة فان هذا كذب فى الامور الدينية والدنيوية وهذه النصوص النافية للظلم تثبت العدل فى الجزاء وانه لا يبخس عامل عمله وكذلك قوله فيمن عاقبهم . (وماظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء)[2]: وقوله (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين)[3] بين أن عقاب المجرمين عدلا لذنوبهم لالأنا ظلمناهم فعاقبناهم بغير ذنب والحديث الذى فى السنن لو عذب الله أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرا من أعمالهم . يبين أن العذاب لووقع لكان لاستحقاقهم ذلك لالكونه بغير ذنب وهذا يبين أن من الظلم المنفى عقوبة من لم يذنب وكذلك قوله

١ - النجم ٣٦ - ٣٩
٢ - هود ١٠١
٣ - الزخرف ٧٦

تعالى (وقال الذى آمن ياقوم انى أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود و الذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد)[١]. يبين ان هذا العقاب لم يكن ظلما لاستحقاقهم ذلك وان الله لايريد الظلم و الامر الذى لايمكن القدرة عليه لايصلح أن يمدح الممدوح بعدم ارادته وانما يكون المدح بترك الافعال اذا كان الممدوح قادرا عليها فعلم ان الله قادر على مانزه نفسه عنه من الظلم وانه لايفعله وبذلك يصح قوله (انى حرمت الظلم على نفسى) وان التحريم هو المنع وهذا لايجوز أن يكون فيما هو ممتنع لذاته فلا يصلح أن يقال حرمت على نفسى أو منعت نفسي من خلق مثلى أو جعل المخلوقات خالقة ونحو ذلك من المحالات

وأكثر مايقال فى تأويل ذلك مايكون معناه انى أخبرت عن نفسى بأن مالا يكون مقدوراً لايكون منى وهذا المعني مما يتيقن المؤمن انه ليس مراد الرب وأنه يجب تنزيه الله ورسوله عن إرادة مثل هذا المعنى الذي لايليق الخطاب بمثله اذ هو مع كونه شبه التكرير وإيضاح الواضح ليس فيه مدح ولا ثناء ولا مايستفيده المستمع فعلم أن الذى حرمه على نفسه هو أمر مقدور عليه لكنه لايفعله لانه حرمه على نفسه وهو سبحانه منزه عن فعله مقدس عنه يبين ذلك أن ماقاله الناس فى حدود الظلم يتناول هذا دون ذلك كقول بعضهم الظلم وضع الشيء فى غير موضعه كقولهم من أشبه أباه فما ظلم أى فما وضع الشبه غير موضعه ومعلوم أن الله سبحانه حكم عدل لا يضع الاشياء الا مواضعها ووضعها غير مواضعها ليس ممتنعاً لذاته بل هو ممكن لكنه لا يفعله لانه لايريده بل يكرهه ويبغضه اذ قد حرمه على نفسه *

وكذلك من قال الظلم اضرار غير مستحق فان الله لا يعاقب أحداً بغير حق وكذلك من قال هو نقص الحق وذكر أن أصله النقص كقوله (كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً)[٢] وأما من * قال التصرف فى ملك الغير فهذا ليس بمطرد ولا منعكس فقد يتصرف الانسان فى ملك غيره بحق ولا يكون ظالما وقد يتصرف فى ملكه بغير حق فيكون ظالما وظلم العبد نفسه كثير فى القرآن وكذلك من قال فعل المأمور خلاف ما أمر به ونحو ذلك ان سلم صحة مثل هذا الكلام فالله سبحانه قد كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم فهو لا يفعل

١ ـ غافر ٣٠ ـ ٣١
٢ ـ الكهف ٣٣

خلاف ما كتب ولا يفعل ما حرم وليس هذا الجواب موضع بسط هذه الامور التي نبهنا عليها فيه وانما نشير الى النكت *

وبهذا يتبين القول المتوسط وهو أن الظلم الذى حرمه الله على نفسه مثل أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها ويعاقب البرىء على ما لم يفعل من السيئات ويعاقب هذا بذنب غيره أو يحكم بين الناس بغير القسط ونحو ذلك من الافعال التى ينزه الرب لقسطه وعدله وهو قادر عليها وانما استحق الحمد والثناء لانه ترك هذا الظلم وهو قادر عليه وكما أن الله منزه عن صفات النقص والعيب فهو أيضاً منزه عن أفعال النقص والعيب وعلى قول الفريق الثانى ما ثم فعل يجب تنزيه الله عنه أصلا والكتاب والسنة واجماع سلف الامة وأئمتها يدل على خلاف ذلك ولكن متكلمو الاثبات لما ناظروا متكلمة النفى ألزموهم لوازم لم ينفصلوا عنها الا بمقابلة الباطل بالباطل وهذا مما عابه الائمة وذموه كما عاب الاوزاعى والزبيدى والثورى واحمد بن حنبل وغيرهم مقابلة القدرية بالغلو فى الاثبات وأمروا بالاعتصام بالكتاب والسنة وكما عابوا أيضاً على من قابل الجهمية نفات الصفات بالغلو فى الاثبات حتى دخل فى تمثيل الخالق بالمخلوق وقد بسطنا الكلام فى هذا وهذا وذكرنا كلام السلف والائمة فى هذا فى غير هذا الموضع ولو قال قائل هذا مبنى على مسئلة تحسين العقل وتقبيحه فمن قال العقل يعلم به حسن الافعال وقبحها فانه ينزه الرب عن بعض الافعال ومن قال لا يعلم ذلك الا بالسمع فانه يجوز جميع الافعال عليه لعدم النهى فى حقه قيل له ليس بناء هذه علي تلك بلازم وبتقدير لزومها ففى تلك تفصيل وتحقيق قد بسطناه فى موضعه *

وذلك أنا فرضنا أنا نعلم بالعقل حسن بعض الافعال وقبحها لكن العقل لا يقول ان الخالق كالمخلوق حتى يكون ما جعله حسناً لهذا أو قبيحاً له جعله حسناً للآخر وقبيحاً له كما يفعل مثل ذلك القدرية لما بين الرب والعبد من الفروق الكثيرة

وان فرضنا أن حسن الافعال وقبحها لا يعلم الا بالشرع فالشرع قد دل على

ان الله قد نزه نفسه عن أفعال واحكام فلا يجوز ان يفعلها تارة بخبره مثنيا على نفسه بأنه لا يفعلها وتارة بخبره أنه حرمها على نفسه وهذا يبين المسألة الثانية (فنقول الناس لهم فى افعال الله باعتبار مايصلح منه ويجوز ومالا يجوز منه ثلاثة اقوال طرفان ووسط فالطرف الواحد طرف القدرية وهم الذين حجروا عليه ان يفعل الا ماظنوا بعقلهم أنه الجائز له حتى وضعوا له شريعة التعديل والتجويز فأوجبوا عليه بعقلهم امورا كثيرة وحرموا عليه بعقلهم امورا كثيرة لا بمعنى ان العقل آمر له وناه فان هذا لا يقوله عاقل بل بمعنى ان تلك الافعال مما علم بالعقل وجوبها وتحريمها ولكن ادخلوا فى ذلك المنكرات مابنوه على بدعتهم فى التكذيب بالقدر وتوابع ذلك والطرف الثانى طرف الغلاة فى الرد عليهم وهم الذين قالوا لا ينزه الرب عن فعل من الافعال ولا نعلم وجه امتناع الفعل منه الا من جهة خبره أنه لا يفعله المطابق لعلمه بأنه لا يفعله وهؤلاء منعوا حقيقة ما أخبر به من أنه كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم قال الله تعالى (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة)[1]. وفي الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «ان الله لما قضى الخلق كتب على نفسه كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش أن رحمتى تغلب غضبى» ولم يعلم هؤلاء ان الخبر المجرد المطابق للعلم لا يبين وجه فعله وتركه اذ العلم يطابق المعلوم فعلمه بأنه يفعل هذا وأنه يفعل هذا ليس فيه تعرض لانه كتب هذا على نفسه وحرم هذا على نفسه كما لو أخبر عن كائن من كان أنه يفعل كذا ولا يفعل كذا لم يكن فى هذا بيان لكونه محموداً ممدوحاً على فعل هذا وترك هذا ولا فى ذلك ما يبين قيام المقتضى لهذا والمانع من هذا (فان الخبر المحض كاشف عن المخبر عنه ليس فيه بيان ما يدعو الى الفعل ولا الى الترك) بخلاف قوله كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم فان التحريم مانع من الفعل وكتابته على نفسه داعية الى الفعل وهذا بين واضح اذ ليس المراد بذلك مجرد كتابته أنه يفعل وهو كتابة التقدير كما قد ثبت فى الصحيح أنه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء فانه قال كتب على نفسه الرحمة ولو أريد

[1] ١ ـ الأنعام ٥٤

كتابة التقدير لـكان قد كتب علي نفسه الغضب كما كتب على نفسـه الرحمة اذا كان المراد مجرد الخبر عما سيكون ولـكان قد حرم على نفسه كل ما لم يفعله من الاحسان كما حرم الظلم وكما أن الفرق ثابت في حقنا بين قوله (كتب عليكم القصاص في القتلى)[1] و بين قوله (وكل شيء فعلوه في الزبر)[2] وقوله (ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها)[3] وقوله «فيبعث اليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال له أكتب رزقه وأجله وعمـله وشقي أو سعيد» فهكذا الفرق أيضا ثابت في حق الله ونظير ما ذكره من كتابته على نفسه كما تقدم قوله تعالى (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)[4] وقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح «يامعاذ أتدري ما حق الله على عباده . قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً أتدري ما حق العباد على الله اذا فعلوا ذلك . قلت الله ورسوله أعلم قال حقهم عليه ألا يعذبهم» ومنه قوله في غير حديث «كان حقاً على الله أن يفعل به كذا» فهذا الحق الذي عليه هو أحقه على نفسه بقوله ونظيره تحريمه على نفسه وايجابه على نفسه ما أخبر به من قسمه ليفعلن وكلمته السابقة كقوله (ولولا كلمة سبقت من ربك)[5] وقوله (لأملأن جهنم)[6] (ولنهلكن الظالمين)[7] فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار[8] (فلنسئلن الذين أرسل اليهم)[9] ونحو ذلك من صيغ القسم المتضمنة معنى الايجاب والمنع بخلاف القسم المتضمن للخبر المحض ولهذا قال الفقهاء اليمين اما أن توجب حقا أو منعا أو تصديقا أو تكذيبا واذا كان معقولا في الانسان انه يكون آمرا مأمورا كقوله (ان النفس لأمارة بالسوء)[10] وقوله (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى)[11] مع أن العبد له آمر وناه فوقه والرب الذي ليس فوقه أحد لأن يتصور أن يكون هو الآمر الكاتب على نفسه الرحمة والناهي المحرم على نفسه الظلم أولي وأحرى وكتابته على نفسه ذلك تستلزم ارادته لذلك ومحبته له ورضاه بذلك وتحريمه الظلم على نفسه يستلزم بغضه لذلك وكراهته له وارادته ومحبته للفعل توجب وقوعه منه وبغضه له وكراهته لان يفعله يمنع وقوعه منه *

١ ـ البقرة ١٧٨
٢ ـ القمر ٥٢
٣ ـ الحديد ٢٢
٤ ـ الروم ٤٧
٥ ـ يونس ١٩ ، هود ١١٠
٦ ـ الاعراف ١٨ ، هود ١١٩
٧ ـ إبراهيم ١٣
٨ ـ آل عمران ١٩٥
٩ ـ الاعراف ٦
١٠ ـ يوسف ٥٣
١١ ـ النازعات ٤٠

فأما مايحبه ويبغضه من أفعال عباده فذلك نوع آخر ففرق بين فعله هو وبين ماهو مفعول مخلوق له وليس فى مخلوقه ماهو ظلم منه وان كان بالنسبة الى فاعله الذي هو الانسان هو ظلم كما أن أفعال الانسان هي بالنسبة اليه تكون سرقة وزنا وصلاة وصوما والله تعالى خالقها بمشيئته وليست بالنسبة اليه كذلك اذ هذه الاحكام هى للفاعل الذى قام به هذا الفعل كما أن الصفات هى صفات للموصوف الذي قامت به لا للخالق الذي خلقها وجعلها صفات *

والله تعالى خلق كل صانع وصنعته كما جاء ذلك فى الحديث وهو خالق كل موصوف وصفته ثم صفات المخلوقات ليست صفات له كالالوان والطعوم والروائح لعدم قيام ذلك به وكذلك حركات المخلوقات ليست حركات له ولا أفعالا له بهذا الاعتبار لكونها مفعولات هو خلقها وبهذا الفرق تزول شبه كثيرة والامر الذى كتبه على نفسه يستحق عليه الحمد والثناء وهو مقدس عن ترك هذا الذى لو ترك لكان تركه نقصا وكذلك الامر الذي حرمه على نفسه يستحق الحمد والثناء على تركه وهو مقدس عن فعله الذى لو كان لاوجب نقصا وهذا كله بين ولله الحمد عند الذين اوتو العلم والايمان وهو أيضا مستقر فى قلوب عموم المؤمنين ولكن القدرية شبهوا على الناس بشبههم فقابلهم من قابلهم بنوع من الباطل كالكلام الذى كان السلف والائمة يذمونه وذلك ان المعتزلة قالوا قد حصل الاتفاق على أن الله ليس بظالم كما دل عليه الكتاب والسنة والظالم من فعل الظلم كما أن العادل من فعل العدل هذا هو المعروف عند الناس من مسمى هذا الاسم سمعا وعقلا قالوا ولو كان الله خالقا لافعال العباد التى هى الظلم لكان ظالما فعارضهم هؤلاء بأن قالوا ليس الظالم من فعل الظلم بل الظالم من قام به الظلم وقال بعضهم الظالم من اكتسب الظلم وكان منهيا عنه وقال بعضهم الظالم من فعل محرما عليه او مانهى عنه ومنهم من قال من فعل الظلم لنفسه وهؤلاء يعنون ان يكون الناهى له والمحرم عليه غيره الذي يجب عليه طاعته ولهذا كان تصور الظلم منه ممتنعا عندهم لذاته كامتناع ان يكون فوقه آمر له وناه ويمتنع عند الطائفتين ان يعود الى الرب من أفعاله حكم لنفسه وهؤلاء لم يمكنهم أن ينازعوا أولئك فى أن العادل من فعل العدل بل سلموا

ذلك لهم وان نازعهم بعض الناس منازعة عنادية والذي يكشف تلبيس المعتزلة أن يقال لهم الظالم والعادل الذى يعرفه الناس وان كان فاعلا للظلم والعدل فذلك يأتم به أيضا ولا يعرف الناس من يسمى ظالما ولم يقم به الفعل الذي به صار ظالما بل لا يعرفون ظالما الامن قام به الفعل الذي فعله وبه صار ظالما وان كان فعله متعلقا بغيره وله مفعول منفصل عنه لكن لا يعرفون الظالم الا بأن يكون قدقام به ذلك فكونكم أخذتم فى حد الظالم انه من فعل الظلم وعينتم بذلك من فعله فى غيره فهذا تلبيس وافساد للشرع والعقل واللغة كما فعلتم فى مسمى المتكلم حيث قلتم هو من فعل الكلام ولو فى غيره وجعلتم من أحدث كلاما منفصلا عنه قائما بغيره متكلما وان لم يقم به هو كلام أصلا وهذا من أعظم البهتان والقرمطة والسفسطة ولهذا ألزمهم السلف أن يكون ما أحدثه من الكلام فى الجمادات وكذلك أيضا ماخلقه فى الحيوانات ولا يفرق حينئذ بين نطق وأنطق وانما قالت الجلود أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء ولم تقل نطق الله بذلك ولهذا قال من قال من السلف كسليمان بن داود الهاشمى وغيره مامعناه انه على هذا يكون الكلام الذى خلق فى فرعون حتي قال أنا ربكم الاعلى كالكلام الذي خلق فى الشجرة حتي قالت (انى أنا الله لااله الا أنا) فاما أن يكون فرعون محقا أو تكون الشجرة كفرعون والى هذا المعنى ينحو الاتحادية من الجهمية وينشدون *

وكل كلام في الوجود كلامه   سواء علينا نثره ونظامه

وهذا يستوعب أنواع الكفر ولهذا كان من الامر البين للخاصة والعامة ان من قال المتكلم لا يقوم به كلام أصلا فان حقيقة قوله انه ليس بمتكلم اذ ليس المتكلم الا هذا ولهذا كان أولوهم يقولون ليس بمتكلم ثم قالوا هومتكلم بطريق المجاز وذلك لما استقر فى الفطر ان المتكلم لا بد أن يقوم به كلام وان كان مع ذلك فاعلا له كما يقوم بالانسان كلامه وهو كاسب له اما ان يجعل مجرد احداث الكلام فى غيره كلاما له فهذا هوالباطل وهكذا القول فى الظلم فهب ان الظالم من فعل الظلم فليس هو من فعله فى غيره ولم يقم به فعل أصلا بل لا بد ان يكون قد قام به فعل وان كان متعديا الى غيره فهذا جواب *

ثم يقال لهم الظلم فيه نسبة واضافة فهو ظلم من الظالم بمعنى أنه عدوان وبغى منه وهو ظلم للمظلوم بمعنى أنه بغى واعتدي عليه وأما من لم يكن متعدى عليه به ولاهو منه عدوان على غيره فهو فى حقه ليس بظلم لامنه ولا له والله سبحانه اذا خلق أفعال العباد فذلك من جنس خلقه لصفاتهم فهم الموصوفون بذلك فهو سبحانه اذا جعل بعض الاشياء أسود وبعضها أبيض أو طويلا أو قصيرا او متحركا او ساكنا او عالما او جاهلا أو قادرا او عاجزا او حيا أو ميتا او مؤمنا او كافرا او سعيدا أو شقيا او ظالما او مظلوما كان ذلك المخلوق هو الموصوف بأنه الابيض والاسود والطويل والقصير والحى والميت والظالم والمظلوم ونحو ذلك والله سبحانه لا يوصف بشىء من ذلك وأما احداثه للفعل الذي هو ظلم من شخص وظلم لآخر بمنزلة احداثه الاكل والشرب الذي هو أكل من شخص وأكل لآخر وليس هو بذلك آكلا ولا مأكولا ونظائر هذا كثيرة وان كان فى خلق أفعال العباد لازمها او متعديها حكم بالغة كماله حكمة بالغة فى خلق صفاتهم وسائر المخلوقات لكن ليس هذا موضع تفصيل ذلك وقد ظهر بهذين الوجهين تدليس القدرية *

وأما تلك الحدود التى عورضوا بها فهى دعاو ومخالفة أيضا للمعلوم من الشرع واللغة والعقل أومشتملة على نوع من الاجمال فان قول القائل الظالم من قام به الظلم يقتضى انه لابد أن يقوم به لكن يقال له وان لم يكن فاعلاله آمرا له لابد أن يكون فاعلا له مع ذلك فان أراد الاول كان اقتصاره على تفسير الظالم بمن قام به الظلم كاقتصار أولئك على تفسير الظالم في فعل الظلم *

والذى يعرفه الناس عامهم وخاصهم ان الظالم فاعل للظلم وظلمه فعل قائم به وكل من الفريقين جحد بعض الحق وأما قولهم من فعل محرما عليه أومنهيا عنه ونحو ذلك فالاطلاق صحيح لكن يقال قد دل الكتاب والسنة على أن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة وكان حقا عليه نصر المؤمنين وكان حقا عليه أن يجزى المطيعين وأنه حرم الظلم علي نفسه فهو سبحانه الذى حرم بنفسه على نفسه الظلم كما أنه هو الذى كتب بنفسه على نفسه الرحمة لا يمكن ان يكون غيره محرما عليه أوموجبا عليه فضلا عن أن يعلم ذلك بعقل اوغيره واذا كان كذلك فهذا الظلم الذى حرمه على نفسه هو ظلم بلا ريب وهو أمر ممكن

مقدور عليه وهو سبحانه يتركه مع قدرته عليه بمشيئته واختياره لانه عادل ليس بظالم كما يترك عقوبة الانبياء والمؤمنين وكما يترك أن يحمل البرىء ذنوب المعتدين *

(فصل)

قوله « وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » . ينبغي أن يعرف أن هذا الحديث شريف القدر عظيم المنزلة ولهذا كان الامام احمد يقول هو أشرف حديث لاهل الشام وكان أبو ادريس الخولانى اذا حدث به جثا على ركبتيه. وراويه أبو ذر الذى ماأظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة منه وهو من الاحاديث الالهية التى رواها الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه وأخبر أنها من كلام الله تعالى وان لم تكن قرآنا. وقد جمع فى هذا الباب زاهر السحامى وعبد الغنى المقدسى وأبو عبد الله المقدسى وغيرهما وهذا الحديث قد تضمن من قواعد الدين العظيمة فى العلوم والاعمال والاصول والفروع فان تلك الجملة الاولى وهى قوله « حرمت الظلم على نفسى » يتضمن جل مسائل الصفات والقدر اذا أعطيت حقها من التفسير

وانما ذكرنا فيها مالا بد من التنبيه عليه من أوائل النكت الجامعة وأما هذه الجملة الثانية وهي قوله « وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » فانها تجمع الدين كله فان مانهي الله عنه راجع الى الظلم وكل ماأمر به راجع الى العدل ولهذا قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط[1] وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) فاخبر أنه ارسل الرسل وانزل الكتاب والميزان لاجل قيام الناس بالقسط وذكر انه أنزل الحديد الذى به ينصر هذا الحق فالكتاب يهدي والسيف ينصر وكفى بربك هاديا ونصيرا ولهذا كان قوام الناس باهل الكتاب واهل الحديد كما قال من قال من السلف صنفان اذا صلحوا صلح الناس الأمراء والعلماء .وقالوا فى قوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم)[2] أقوالا تجمع العلماء والامراء ولهذا نص الامام احمد وغيره على دخول الصنفين فى هذه الآية اذ كل منهما

١ - الحديد ٢٥
٢ - النساء ٥٩

تجب طاعته فيما يقوم به من طاعة الله وكان نواب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته كعلي ومعاذ وأبي موسى وعتاب بن اسيد وعثمان بن أبي العاص وامثالهم يجمعون الصنفين وكذلك خلفاؤه من بعده كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونوابهم ولهذا كانت السنة أن الذي يصلي بالناس هو صاحب الكتاب والذي يقوم بالجهاد هو صاحب الحديد . الى أن تفرق الامر بعد ذلك فاذا تفرق صار كل من قام بأمر الحرب من جهاد الكفار وعقوبات الفجار يجب أن يطاع فيما أمر به من طاعة الله في ذلك وكذلك من قام بجمع الاموال وقسمها يجب ان يطاع فيما يأمر به من طاعة الله في ذلك وكذلك من قام بالكتاب بتبليغ أخباره وأوامره وبيانها يجب أن يصدق ويطاع فيما أخبر به من الصدق في ذلك وفيما يأمر به من طاعة الله في ذلك ●

والمقصود هنا أن المقصود بذلك كله هو أن يقوم الناس بالقسط ولهذا لما كان المشركون يحرمون أشياء ما انزل الله بها من سلطان ويأمرون باشياء ما انزل الله بها من سلطان أنزل الله في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما يذمهم على ذلك وذكر ما أمر به هو وما حرمه هو فقال (قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين)[١] وقال تعالى (قل انما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالا تعلمون)[٢] وهذه الآية تجمع أنواع المحرمات كما قد بيناه في غير هذا الموضع وتلك الآية تجمع أنواع الواجبات كما بيناه أيضا. وقوله (أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) أمر مع القسط بالتوحيد الذي هو عبادة الله وحده لاشريك له وهذا أصل الدين وضده هو الذنب الذي لا يغفر قال تعالى (ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء)[٣] وهو الدين الذي أمر الله به جميع الرسل وأرسلهم به الى جميع الامم قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون)[٤] وقال تعالى (واسئل من ارسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون)[٥] وقال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)[٦] وقال تعالى (شرع

١ - الاعراف ٢٩
٢ - الاعراف ٣٣
٣ - النساء ١١٦
٤ - الأنبياء ٢٥
٥ - الزخرف ٤٥
٦ - النحل ٣٦

لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)[١] وقال تعالى (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم وان هذه أمتكم أمه واحدة وأنا ربكم فاتقون)[٢] ولهذا ترجم البخاري فى صحيحه باب ما جاء فى ان دين الانبياء واحد وذكر الحديث الصحيح في ذلك وهو الاسلام العام الذي اتفق عليه جميع النبيين قال نوح عليه السلام (وأمرت أن أكون من المسلمين)[٣] وقال تعالى فى قصة ابراهيم (اذ قال له ربه أسلم قال اسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون)[٤] وقال موسى (ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين)[٥] وقال تعالى (قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بانا مسلمون)[٦] وقال فى قصة بلقيس (رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)[٧] وقال (انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا)[٨] وهذا التوحيد الذى هو أصل الدين هو أعظم العدل وضده وهو الشرك أعظم الظلم كما أخرجا فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال لما نزلت هذه الآية (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم)[٩] شق ذلك على اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا أينا لم يظلم نفسه فقال ألم تسمعوا الى قول العبد الصالح ان الشرك لظلم عظيم: وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال « قلت يارسول الله أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك قلت . ثم أى قال ثم ان تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزانى بحليلة جارك » فانزل الله تصديق ذلك (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون)[١٠] الآية وقد جاء عن غير واحد من السلف وروي مرفوعا « الظلم ثلاثة دواوين فديوان لا يغفر الله منه شيئا وديوان لا يترك الله منه شيئا وديوان لا يعبأ الله به شيئا » فاما الديوان الذى لا يغفر الله منه شيئا فهو الشرك فان الله لا يغفر ان يشرك به وأما الديوان الذي

ـ الشورى ١٣
ـ المؤمنون ٥١ ـ ٥٢
ـ يونس ٧٢
ـ البقرة ١٣١ ـ ١٣٢
ـ يونس ٨٤
ـ آل عمران ٥٢
ـ النمل ٤٤
ـ المائدة ٤٤
ـ الأنعام ٨٢
١٠ ـ الفرقان ٦٨

لا يترك الله منه شيئا فهو ظلم العباد بعضهم بعضا فان الله لا بد أن ينصف المظلوم من الظالم وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئا فهو ظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه أى مغفرة هذا الضرب ممكنة بدون رضى الخلق فان شاء عذب هذا الظالم لنفسه وان شاء غفر له وقد بسطنا الكلام فى هذه الابواب الشريفة والاصول الجامعة في القواعد وبينا أنواع الظلم وبينا كيف كان الشرك أعظم أنواع الظلم ومسمى الشرك جليله ودقيقه فقد جاء فى الحديث « الشرك فى هذه الامة أخفى من دبيب النمل » وروى أن هذه الآية نزلت فى أهل الرياء (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)[1] وكان شداد بن أوس يقول يا بقايا العرب يا بقايا العرب انما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية قال ابو داود السجستانى صاحب السنن المشهورة الخفية حب الرياسة وذلك ان حب الرياسة هو أصل البغي والظلم كما ان الرياء هو من جنس الشرك أو مبدأ الشرك والشرك أعظم الفساد كما ان التوحيد أعظم الصلاح ولهذا قال تعالى (ان فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين)[2] الى أن ختم السورة بقوله (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الارض ولا فساداً)[3] وقال (وقضينا الى بني اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين ولتعلن علواً كبيراً)[4] وقال (من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس او فساد فى الارض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعا)[5] وقالت الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء)[6] فاصل الصلاح التوحيد والايمان وأصل الفساد الشرك والكفر كما قال عن المنافقين (واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض قالوا انما نحن مصلحون ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)[7] وذلك ان صلاح كل شيء ان يكون بحيث يحصل له وبه المقصود الذى يراد منه ولهذا يقول الفقهاء العقد الصحيح ما ترتب عليه أثره وحصل به مقصوده والفاسد ما لم يترتب عليه أثره ولم يحصل به مقصوده والصحيح المقابل للفاسد في اصطلاحهم هو الصالح وكان يكثر فى كلام السلف هذا لا يصلح او يصلح كما كثر فى كلام المتأخرين يصح ولا

١ ـ الكهف ١١٠
٢ ـ القصص ٤
٣ ـ القصص ٨٣
٤ ـ الاسراء ٤
٥ ـ المائدة ٣٢
٦ ـ البقرة ٣٠
٧ ـ البقرة ١١

يصح والله تعالى انما خلق الانسان لعبادته وبدنه تبع لقلبه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « ألا ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد واذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب » وصلاح القلب في أن يحصل له وبه المقصود الذي خلق له من معرفة الله ومحبته وتعظيمه وفساده في ضد ذلك فلا صلاح للقلوب بدون ذلك قط والقلب له قوتان العلم والقصد كما ان للبدن الحس والحركة الارادية فكما اذا الي خرجت قوي الحس والحركة عن الحال الفطري الطبيعي فسدت فاذا خرج القلب عن الحال الفطرية التي يولد عليها كل مولود وهي ان يكون مقرا لربه مريدا له فيكون هو منتهى قصده وارادته وذلك هي العبادة اذ العبادة كمال الحب بكمال الذل فمتى لم تكن حركة القلب ووجهه وارادته لله تعالى كان فاسدا اما بأن يكون معرضا عن الله وعن ذكره غافلا عن ذلك مع تكذيب او بدون تكذيب أو بان يكون له ذكر وشعور ولكن قصده وارادته غيره لكون الذكر ضعيفا لم يجتذب القلب الى ارادة الله ومحبته وعبادته والا فمتى قوى علم القلب وذكره أوجب قصده وعلمه قال تعالى[1] (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم) فأمر نبيه بأن يعرض عمن كان معرضا عن ذكر الله ولم يكن له مراد الا مايكون في الدنيا وهذه حال من فسد قلبه ولم يذكر ربه ولم ينب اليه فيريد وجهه ويخلص له الدين ثم قال (وذلك مبلغهم من العلم) فاخبر أنهم لم يحصل لهم علم فوق مايكون في الدنيا فهي أكبر همهم ومبلغ علمهم وأما المؤمن فأكبر همه هو الله واليه انتهى علمه وذكره وهذا الآن باب واسع عظيم قد تكلمنا عليه في مواضعه واذا كان التوحيد أصل صلاح الناس والاشراك أصل فسادهم والقسط مقرون بالتوحيد إذ التوحيد أصل العدل وارادة العلو مقرونة بالفساد اذ هو أصل الظلم فهذا مع هذا وهذا مع هذا كالمزوزين في قرن فالتوحيد وما يتبعه من الحسنات هو صلاح وعدل ولهذا كان الرجل الصالح هو القائم بالواجبات وهو البر وهو العدل والذنوب التي فيها تفريط أو عدوان في حقوق الله تعالى وحقوق عباده وهي فساد وظلم ولهذا سمي قطاع الطريق مفسدين وكانت عقوبتهم حقا لله تعالى

١ ـ النجم ٢٩ ـ ٣٠

لاجتماع الوصفين والذى يريد العلو على غيره من أبناء جنسه هو ظالم له باغ اذ ليس كونك عاليا عليه باولى من كونه عاليا عليك وكلاهما من جنس واحد فالقسط والعدل أن يكونوا أخوة كما وصف الله المؤمنين بذلك والتوحيد وان كان أصل الصلاح فهو أعظم العدل ولهذا قال تعالى (قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون)[1] ولهذا كان تخصيصه بالذكر فى مثل قوله (قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين)[2] لا يمنع أن يكون داخلا فى القسط كما أن ذكر العمل الصالح بعد الايمان لا يمنع أن يكون داخلا في الايمان كما فى قوله (وملائكته وجبريل وميكال) (ومن النبيين ميثاقهم ومنك)[3] هذا اذا قيل إن اسم الايمان يتناوله سواء قيل انه في مثل هذا يكون داخلا فى الاول فيكون مذكورا مرتين أو قيل بل عطفه عليه يقتضى انه ليس داخلا فيه هنا وان كان داخلا فيه منفردا كما قيل مثل ذلك فى لفظ الفقراء والمساكين وأمثال ذلك مما تتنوع دلالته بالافراد والاقتران *

لكن المقصود ان كل خير فهو داخل فى القسط والعدل وكل شر فهو داخل فى الظلم ولهذا كان العدل أمرا واجبا فى كل شيء وعلى كل أحد والظلم محرما فى كل شيء ولكل أحد فلا يحل ظلم أحد أصلا سواء كان مسلما أو كافرا أو كان ظالما بل الظلم انما يباح أو يجب فيه العدل عليه أيضا قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن)[4] أي يحملنكم شنآن أي بغض قوم وهم الكفار على عدم العدل (قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) وقال تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم)[5] وقال تعالى (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به)[6] وقال تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها)[7] وقد دل على هذا قوله فى الحديث « ياعبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » فان هذا خطاب لجميع العباد ان لا يظلم أحد أحدا وأمر العالم فى الشريعة مبني على هذا وهو العدل فى الدماء والأموال والابضاع والانساب والاعراض ولهذا جاءت السنة بالقصاص فى ذلك ومقابلة العادي بمثل فعله لكن المماثلة قد

١ ـ آل عمران ٦٤
٢ ـ الأعراف ٢٩
٣ ـ الأحزاب ٧
٤ ـ المائدة ٨
٥ ـ البقرة ١٩٤
٦ ـ النحل ١٢٦
٧ ـ الشورى ٤٠

يكون علمها أو عملها متعذرا ومتعسرا ولهذا يكون الواجب مايكون أقرب اليها بحسب الامكان ويقال هذا أمثل وهذا أشبه وهذه الطريقة المثلى لما كان أمثل بما هو العدل والحق فى نفس الامر اذذاك معجوز عنه ولهذا قال تعالى (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفسا الا وسعها)[1] فذكر أنه لم يكلف نفسا الا وسعها حين أمر بتوفية الكيل والميزان بالقسط لان الكيل لابد له أن يتفضل احد المكيلين على الآخر ولو بحبة أو حبات وكذلك التفاضل فى الميزان قد يحصل بشيء يسير لايمكن الاحتراز منه فقال تعالى (لانكلف نفسا الا وسعها) ولهذا كان القصاص مشروعا اذ أمكن استيفاؤه من غير جنف كالاقتصاص فى الجروح التي تنتهى الى عظم وفى الاعضاء التى تنتهى الى مفصل فاذا كان الجنف واقعا فى الاستيفاء عدل الى بدله وهو الدية لانه أشبه بالعدل من اتلاف زيادة فى المقتص منه وهذه حجة من رأي من الفقهاء انه لاقود الا بالسيف فى العنق قال لان القتل بغير السيف وفي غير العنق لانعلم فيه المماثلة بل قد يكون التحريق والتغريق والتوسيط ونحو ذلك أشد ايلاما لكن الذين قالوا يفعل به مثل مافعل قولهم اقرب الى العدل فانه مع تحرى التسوية بين الفعلين يكون العبد قد فعل مايقدر عليه من العدل وما حصل من تفاوت الالم خارج عن قدرته وأما اذا قطع يديه ورجليه ثم وسطه فقوبل ذلك بضرب عنقه بالسيف أو رض رأسه بين حجرين فضرب بالسيف فههنا قد تيقنا عدم المعادلة والمماثلة وكنا قد فعلنا ماتيقنا انتفاء المماثلة فيه وأنه يتعذر معه وجودها بخلاف الاول فان المماثلة قد تقع اذ التفاوت فيه غير متيقن وكذلك القصاص فى الضربة واللطمة ونحو ذلك عدل عنه طائفة من الفقهاء الى التعزير لعدم امكان المماثلة فيه والذى عليه الخلفاء الراشدون وغيرهم من الصحابة وهو منصوص أحمد ماجاءت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثبوت القصاص به لان ذلك أقرب الى العدل والمماثلة فانا اذا تحرينا أن نفعل به من جنس فعله ونقرب القدر من القدر كان هذا أمثل من أن نأتى بجنس من العقوبة تخالف عقوبته جنسا وقدرا وصفة وهذا النظر أيضا فى ضمان الحيوان والعقار ونحو ذلك بمثله تقريبا أو بالقيمة كما نص أحمد على ذلك فى مواضع ضمان الحيوان وغيره ونص

١ ـ الأنعام ١٥٢

عليه الشافعي فيمن حرب حائط غيره أنه يبنيه كما كان وبهذا قضى سليمان عليه السلام فى حكومة الحرث التى حكم فيها هو وأبوه كما قد بين ذلك فى موضعه فجميع هذه الابواب المقصود للشريعة فيها تحري العدل بحسب الامكان وهو مقصود العلماء لكن أفهمهم من قال بما هو أشبه بالعدل فى نفس الامر وان كان كل منهم قد أوتى علما وحكما لانه هو الذى أنزل الله به الكتب وأرسل به الرسل وضده الظلم كما قال سبحانه « ياعبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » ولما كان العدل لا بد أن يتقدمه علم اذ من لا يعلم لا يدرى ما العدل والانسان ظالم جاهل الا من تاب الله عليه فصار عالما عادلا صار الناس من القضاة وغيرهم ثلاثة أصناف العالم العادل والجاهل والظالم فهذان من أهل النار كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « القضاة ثلاثة قاضيان فى النار وقاض في الجنة رجل علم الحق وقضي به فهو فى الجنة ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو فى النار » فهذان القسمان كما قال من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ ومن قال فى القرآن برأيه فاخطأ فليتبوأ مقعده من النار وكل من حكم بين اثنين فهو قاض سواء كان صاحب حرب أو متولى ديوان أو منتصبا للاحتساب بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى الذي يحكم بين الصبيان فى الخطوط فان الصحابة كانوا يعدونه من الحكام ولما كان الحكام مأمورين بالعدل بالعلم وكان المفروض انما هو بما يبلغه جهد الرجل قال النبي صلى الله عليه وسلم « اذا اجتهد الحاكم فاصاب فله أجران واذا اجتهد فاخطأ فله أجر »

﴿ فصل ﴾

فلما ذكر فى أول الحديث ماأوجبه من العدل وحرمه من الظلم على نفسه وعلى عباده ذكر بعد ذلك احسانه الى عباده مع غناه عنهم وفقرهم اليه وانهم لا يقدرون على جلب منفعة لانفسهم ولا دفع مضرة الا أن يكون هو الميسر لذلك وأمر العباد ان يسألوه ذلك وأخبر انهم لا يقدرون على نفعه ولا ضره مع عظم من يوصل اليهم

من النعماء ويدفع عنهم من البلاء وجلب المنفعة ودفع المضرة اما ان يكون فى الدين أو فى الدنيا ٭

فصارت أربعة أقسام الهداية والمغفرة وهما جلب المنفعة ودفع المضرة فى الدين والطعام والكسوة وهما جلب المنفعة ودفع المضرة فى الدنيا وان شئت قلت الهداية والمغفرة يتعلقان بالقلب الذى هو ملك البدن وهو الاصل فى الاعمال الارادية والطعام والكسوة يتعلقان بالبدن الطعام لجلب المنفعة واللباس لدفع المضرة وفتح الامر بالهداية فانها وان كانت الهداية النافعة هى المتعلقة بالدين فكل أعمال الناس تابعة لهدي الله اياهم كما قال سبحانه (سبح اسم ربك الاعلى الذى خلق فسوى والذي قدر فهدى)[1] وقال موسى (ربنا الذى أعطى كلّ شيء خلقه ثم هدي)[2] وقال تعالى (وهديناه النجدين)[3] وقال (انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا)[4] ولهذا قيل الهدى أربعة أقسام أحدها الهداية الى مصالح الدنيا فهذا مشترك بين الحيوان الناطق والاعجم وبين المؤمن والكافر والثانى الهدى بمعنى دعاء الخلق الى ماينفعهم وأمرهم بذلك وهو نصب الادلة وارسال الرسل وانزال الكتب فهذا أيضا يشترك فيه جميع المكلفين سواء آمنوا أو كفروا كما قال تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى)[5] وقال تعالى (انما أنت منذر ولكل قوم هاد)[6] وقال تعالي (وانك لتهدى الى صراط مستقيم)[7] فهذا مع قوله (انك لاتهدى من أحببت)[8] يبين أن الهدى الذى أثبته هو البيان والدعاء والامر والنهى والتعليم ومايتبع ذلك ليس هو الهدى الذى نفاه وهو القسم الثالث الذى لايقدر عليه الا الله والقسم الثالث الهدى الذي هو جعل الهدى فى القلوب وهو الذي يسميه بعضهم بالالهام والارشاد وبعضهم يقول هو خلق القدرة على الايمان كالتوفيق عندهم ونحو ذلك وهو بناء على أن الاستطاعة لاتكون الا مع الفعل فمن قال ذلك من أهل الاثبات جعل التوفيق والهدى ونحو ذلك خلق القدرة على الطاعة وأما من قال انهما استطاعتان احداهما قبل الفعل وهى الاستطاعة المشروطة فى التكليف كما قال تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا)[9] وقال النبي

[1] - الأعلى ١ - ٣
[2] - طه ٥٠
[3] - البلد ١٠
[4] - الانسان ٣
[5] - فصلت ١٧
[6] - الرعد ٧
[7] - الشورى ٥٢
[8] - القصص ٥٦
[9] - آل عمران ٩٧

صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين «صل قائما فان لم تستطع فقاعدا فان لم تستطع فعلى جنب» وهذه الاستطاعة يقترن بها الفعل تارة والترك أخرى وهى الاستطاعة التى لم تعرف القدرية غيرها كما أن أولئك المخالفين لهم من أهل الاثبات لم يعرفوا الا المقارنة وأما الذى عليه المحققون من أئمة الفقه والحديث والكلام وغيرهم فاثبات النوعين جميعا كما بسطناه فى غير هذا الموضع فان الادلة الشرعية والعقلية تثبت النوعين جميعا والثانية المقارنة للفعل وهي الموجبة له وهى المنفية عمن لم يفعل فى مثل قوله (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون)[1] وفى قوله (لا يستطيعون سمعا)[2] وهذا الهدى الذى يكثر ذكره في القرآن فى مثل قوله (اهدنا الصراط المستقيم)[3] وقوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا)[4] وفى قوله (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) وأمثال ذلك وهذا هو الذى تنكر القدرية ان يكون الله هو الفاعل له ويزعمون أن العبد هو الذي يهدى نفسه وهذا الحديث وأمثاله حجة عليهم حيث قال «ياعبادى كلكم ضال الا من هديته فاستهدوني أهدكم» فأمر العباد بأن يسألوه الهداية كما أمرهم بذلك في أم الكتاب فى قوله (اهدنا الصراط المستقيم) وعند القدرية ان الله لا يقدر من الهدى الا على ما فعله من ارسال الرسل ونصب الادلة وازاحة العلة ولا مزية عندهم للمؤمن على الكافر فى هداية الله تعالى ولا نعمة له على المؤمن اعظم من نعمته على الكافر فى باب الهدى وقد بين الاختصاص فى هذه بعد عموم الدعوة فى قوله (والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم)[6] فقد جمع الحديث تنزيهه عن الظلم الذى يجوزه عليه بعض المثبتة وبيان انه هو الذى يهدى عباده رداً على القدرية فأخبر هناك بعدله الذى ينكره بعض المثبتة واخبر هنا باحسانه وقدرته الذى تنكره القدرية وان كان كل منهما قصده تعظيما لا يعرف ما اشتمل عليه قوله

والقسم الرابع الهدى فى الآخرة كما قال تعالى (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد)[7]

١ ـ هود ٢٠
٢ ـ الكهف ١٠١
٣ ٣ ـ الفاتحة ٥
٤ ـ الأنعام ١٢٥
٦ ـ يونس ٢٥
٧ ـ الحج ٢٣ ـ ٢٤

وقال (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجري من تحتهم الانهار فى جنات نعيم)[١] فقوله يهديهم ربهم بايمانهم كقوله (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء)[٢] على أحد القولين فى الآية وهذا الهدى ثواب الاهتداء في الدنيا كما أن ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا وكما أن قصد الشر فى الدنيا جزاؤه الهدى الى طريق النار كما قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم)[٣] وقال (ومن كان فى هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا)[٤] وقال (فاما يأتينكم مني هدي فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسي)[٥] وقال (من يهدى الله فهو المهتد ومن يضلل فان تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما)[٦] الآية فاخبر أن الضالين فى الدنيا يحشرون يوم القيامة عميا وبكما وصما فان الجزاء أبداً من جنس العمل كما قال صلى الله عليه وسلم « الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء » وقال « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل له الله به طريقا الى الجنة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » وقال « من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » وقد قال تعالى (وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم)[٧] وقال (ان تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفوا قديرا)[٨] وأمثال هذا كثير فى الكتاب والسنة ولهذا أيضا يجرى الرجل فى الدنيا على ما فعله من خير الهدى بما يفتح عليه من هدي آخر ولهذا قيل من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم وقد قال تعالى (ولو أنهم فعلوا مايوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا الى قوله مستقيما)[٩] وقال (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام)[١٠] وقال (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم)[١١]

يونس ٩
الطور ٢١
الصافات ٢٢
الاسراء ٧٢
طه ١٢٣ ـ ١٢٦
الاسراء ٩٧
النور ٢٢
النساء ١٤٩
النساء ٦٦
ـ النساء ٦٨
ـ المائدة ١٦
ـ الحديد ٢٨

وقال (ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا)[١] فسروه بالنصر والنجاة كقوله (يوم الفرقان)[٢] وقد قيل نور يفرق به بين الحق والباطل ومثله قوله (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب)[٣] وعد المتقين بالمخارج من الضيق ويرزق المنافع ومن هذا الباب قوله (والذين اهتدوا زادهم هدي وآتاهم تقواهم)[٤] وقوله (انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى)[٥] ومنه قوله (انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا)[٦] وبازاء ذلك ان الضلال والمعاصي تكون بسبب الذنوب المتقدمة كما قال الله (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم)[٧] وقال (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية)[٨] وقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم)[١٠] الى قوله (لا يؤمنون) الى قوله (يعمهون) وهذا باب واسع ولهذا قال من قال من السلف ان من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وأن من عقوبة السيئة السيئة بعدها وقد شاع في لسان العامة ان قوله (اتقوا الله ويعلمكم الله) من الباب الأول حيث يستدلون بذلك على أن التقوي سبب تعليم الله وأكثر الفضلاء يطعنون في هذه الدلالة لانه لم يربط الفعل الثاني بالاول ربط الجزاء بالشرط فلم يقل واتقوا الله ويعلمكم ولا قال فيعلمكم وانما أتى بواو العطف وليس من العطف ما يقتضي ان الاول سبب الثاني وقد يقال العطف قد يتضمن معنى الاقتران والتلازم كما يقال زرني وازورك وسلم علينا ونسلم عليك ونحو ذلك مما يقتضي اقتران الفعلين والتعاوض من الطرفين كما لو قال لسيده اعتقني ولك على ألف أو قالت المرأة لزوجها طلقني ولك ألف أو اخلعني ولك ألف فان ذلك بمنزلة قولها بألف أو على ألف وكذلك أيضا لو قال أنت حر وعليك ألف أو أنت طالق وعليك ألف فانه كقوله على ألف أو بالف عند جمهور الفقهاء والفرق بينهما قول شاذ ويقول أحد المتعاوضين للآخر أعطيك هذا وآخذ هذا ونحو ذلك من العبارات فيقول الآخر نعم وان لم يكن أحدهما هو السبب الاخر دون العكس فقوله واتقوا الله ويعلمكم الله قد يكون من هذا الباب فكل من تعليم الرب وتقوى العبد يقارب الآخر ويلازمه ويقتضيه فمتى علمه الله العلم النافع اقترن به التقوي بحسب ذلك ومتى اتقاه زاده من العلم وهلم جرا

١ - الانفال ٢٩
٢ - الانفال ٤١
٣ - الطلاق ٢
٤ - محمد ١٧
٥ - الكهف ١٣
٦ - الفتح ١ - ٣
٧ - الصف ٥
٨ - النساء ١٥٥
٩ - المائدة ١٣
١٠ - الأنعام ١٠٩

﴿ فصل ﴾

واما قوله « ياعبادى كلكم جائع الا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم وكلكم عار الا من كسوته فاستكسونى أكسكم » . فيقتضى أصلين عظيمين أحدهما وجوب التوكل على الله فى الرزق المتضمن جلب المنفعة كالطعام ودفع المضرة كاللباس وانه لايقدر غير الله على الأطعام والكسوة قدرة مطلقة وانما القدرة التى تحصل لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك ولهذا قال (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف)[1] وقال (ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم)[2]. فالمأمور به هو المقدور للعباد وكذلك قوله (أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة)[3] وقوله (واطعموا القانع والمعتر)[4] وقوله (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير)[5] وقال (واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه)[6] . فمن يترك المأمور به اكتفاء بما يجرى به القدر ومن هنا يعرف ان السبب المأمور به أو المباح لاينافى وجوب التوكل على الله فى وجود السبب بل الحاجة والفقر الى الله ثابتة مع فعل السبب اذ ليس فى المخلوقات ماهو وحده سبب تام لحصول المطلوب ولهذا لايجب ان تقترن الحوادث بما قد يجعل سببا الا بمشيئة الله تعالى فانه ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن فمن ظن الاستغناء بالسبب عن التوكل فقد ترك ما أوجب الله عليه من التوكل وأخل بواجب التوحيد ولهذا يخذل أمثال هؤلاء اذا اعتمدوا على الاسباب فمن رجا نصراً أو رزقا من غير الله خذله الله كما قال على رضى الله عنه « لايرجون عبد الا ربه ولا يخافن الا ذنبه » وقد قال تعالى (مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم)[7] وقال تعالى (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده)[8] وقال (قل أرأيتم ماتدعون من دون الله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون)[9] . وهذا كما ان من أخذ يدخل فى التوكل تاركا لما أمر به

١ ـ البقرة ٢٣٣
٢ ـ النساء ٥
٣ ـ البلد ١٤ ـ ١٦
٤ ـ الحج ٣٦
٥ ـ الحج ٢٨
٦ ـ يس ٤٧
٧ ـ فاطر ٢
٨ ـ هود ١٠٧
٩ ـ الزمر ٣٨

من الاسباب فهو أيضا جاهل ظالم عاص لله بترك ماأمره فان فعل المأمور به عبادة[2] الله وقد قال تعالى (فاعبده وتوكل عليه)[1] وقال (إياك نعبد وإياك نستعين) وقال (قل هو ربي لااله الاهو عليه توكلت واليه متاب)[3] وقال شعيب عليه السلام (عليه توكلت واليه أنيب)[4] وقال (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت واليه أنيب)[5] وقال (قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتي تؤمنوا بالله وحده الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير)[6] فليس من فعل شيئا أمر به وترك ماأمر به من التوكل بأعظم ذنبا ممن فعل توكلا ماأمر به وترك فعل ماأمر به من السبب اذ كلاهما مخل ببعض ماوجب عليه وهما مع اشتراكهما فى جنس الذنب فقد يكون هذا ألوم وقد يكون الآخر مع أن التوكل فى الحقيقة من جملة الاسباب وقد روي أبو داود فى سننه أن النبي صلى الله عليه وسلم « قضى بين رجلين فقال المقضى عليه حسبي الله ونعم الوكيل فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فان غلبك أمر فقل حسبى الله ونعم الوكيل » وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير أحرص على ماينفعك واستعن بالله ولا تعجز فان أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فان اللوم يفتح عمل الشيطان فنى » قوله صلى الله عليه وسلم « احرص على ماينفعك واستعن بالله ولا تعجز » أمر بالتسبب المأمور به وهو الحرص على المنافع وأمر مع ذلك بالتوكل وهو الاستعانة بالله فمن اكتفى باحدهما فقد عصى أحد الامرين ونهى عن العجز الذي هو ضد الكيس كما قال فى الحديث الآخر « ان الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس » وكما فى الحديث الشامى « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله » فالعاجز فى الحديث مقابل الكيس ومن قال العاجز الذى هو مقابل البر فقد حرف

١ ـ هود ١٢٣
٢ ـ الفاتحة ٤
٣ ـ الرعد ٣٠
٤ ـ هود ٨٨
٥ ـ الشورى ١٠
٦ ـ الممتحنة ٤

الحديث ولم يفهم معناه ومنه الحديث « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس » ومن ذلك ماروى البخاري فى صحيحه عن ابن عباس قال « كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون يقولون نحن المتوكلون فاذا قدموا سألوا الناس فقال الله تعالى (وتزودوا فان خير الزاد التقوى[1]) فمن فعل ماأمر به من التزود فاستعان به على طاعة الله وأحسن منه الى من يكون محتاجا كان مطيعا لله فى هذين الامرين بخلاف من ترك ذلك متلفتا الى ازواد الحجيج كلا على الناس وان كان مع هذا قلبه غير ملتفت الى معين فهو ملتفت الى الجملة لكن ان كان المتزود غير قائم بما يجب عليه من التوكل على الله ومواساة المحتاج فقد يكون في تركه لما أمر به من جنس هذا التارك للتزود المأمور به وفى هذه النصوص بيان غلط طوائف طائفة تضعف أمر السبب المأمور به فتعده نقصا أو قدحا فى التوحيد والتوكل وان تركه من كمال التوكل والتوحيد وهم فى ذلك ملبوس عليهم وقد يقترن بالغلط اتباع الهوى فى اخلاد النفس الى البطالة ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الاسباب يتعلقون باسباب دون ذلك فاما ان يعلقوا قلوبهم بالخلق رغبة ورهبة واما أن يتركوا لاجل ماابتلوا له من الغلو فى التوكل واجبات أو مستحبات انفع لهم من ذلك كمن يصرف همته فى توكله الى شفاء مرضه بلا دواء أو نيل رزقه بلاسعى فقد يحصل ذلك لكن كان مباشرة الدواء الخفيف والسعى اليسير وصرف تلك الهمة والتوجه فى عمل صالح انفع له بل قد يكون أوجب عليه من تبتله لهذا الامر اليسير الذى قدره درهم أو نحوه وفوق هؤلاء من يجعل التوكل والدعاء أيضا نقصا وانقطاعا عن الخاصة ظنا أن ملاحظة مافرغ منه فى القدر هو حال الخاصة وقد قال فى هذا الحديث « كلكم جائع الا من اطعمته فاستطعمونى أطعمكم وقال فاستكسونى أكسكم » وفى الطبرانى وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ليسئل احدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله اذا انقطع فانه ان لم ييسره لم يتيسر » وهذا قد يلزمه أن يجعل أيضا استهداء الله وعمله بطاعته من ذلك .

وقولهم يوجب دفع المأمور به مطلقا بل دفع المخلوق والمأمور وانما غلطوا من حيث ظنوا سبق التقدير يمنع ان يكون بالسبب المامور به كمن يتزندق فيترك

١ - البقرة ١٩٧

الاعمال الواجبة بناء على ان القدر قد سبق باهل السعادة وأهل الشقاوة ولم يعلم ان القدر سبق بالامور على ماهي عليه فمن قدره الله من اهل السعادة كان مما قدره الله بتيسيره لعمل اهل السعادة ومن قدره من اهل الشقاوة كان مماقدره انه ييسره لعمل أهل الشقاء كما قد أجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا السؤال فى حديث علي بن ابى طالب وعمران بن حصين وسراقة بن جعشم وغيرهم ومنه حديث الترمذى حدثنا ابن عمر حدثنا سفيان عن الزهرى عن أبى خزامة عن أبيه قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله أرأيت أدوية نتداوي بها ورقى نسترقى بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا «فقال هى من قدر الله» وطائفة تظن أن التوكل انما هو من مقامات الخاصة المتقربين الى الله بالنوافل وكذلك قولهم فى أعمال القلوب وتوابعها كالحب والرجاء والخوف والشكر ونحو ذلك وهذا ضلال مبين بل جميع هذه الامور فروض على الاعيان باتفاق أهل الايمان ومن تركها بالكلية فهو اما كافر واما منافق لكن الناس هم فيها كما هم فى الاعمال الظاهرة فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ونصوص الكتاب والسنة طافحة بذلك وليس هؤلاء المعرضون عن هذه الامور علما وعملا بأقل لوما من التاركين لما أمروا به من أعمال ظاهرة مع تلبسهم ببعض هذه الاعمال بل استحقاق الذم والعقاب يتوجه الى من ترك المأمور من الامور الباطنة والظاهرة وان كانت الامور الباطنة مبتدأ الامور الظاهرة وأصولها والامور الظاهرة كمالها وفروعها التى لاتتم الا بها ٭

فصل

وأما قوله «ياعبادى انكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا» وفى رواية «وأنا أغفر الذنوب ولا أبالى فاستغفرونى أغفر لكم» فالمغفرة العامة لجميع الذنوب نوعان أحدهما المغفرة لمن تاب كما فى قوله تعالى (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله) الى قوله (ثم لاتنصرون فهذا) السياق مع سبب نزول الآية يبين أن المعنى لاييأس مذنب من مغفرة الله ولو كانت ذنوبه

١ ـ الزمر ٥٣

ما كانت فان الله سبحانه لايتعاظمه ذنب أن يغفره لعبده التائب وقد دخل فى
هذا العموم الشرك وغيره من الذنوب فان الله تعالى يغفر ذلك لمن تاب منه قال
تعالى (فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين)[١] الى قوله (فان تابوا وأقاموا
الصلاة وآتو الزكاة فخلوا سبيلهم)[٢] وقال فى الآية الاخرى (فان تابوا وأقاموا
الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين)[٣] وقال (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث
ثلاثة)[٤] الى قوله (أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم)[٥] وهذا القول الجامع
بالمغفرة لكل ذنب للتائب منه كما دل عليه القرآن والحديث هو الصواب عند
جماهير أهل العلم وان كان من الناس من يستثنى بعض الذنوب كقول بعضهم ان
توبة الداعية الى البدع لاتقبل باطنا للحديث الاسرائيلى الذى فيه فكيف من
أضللت وهذا غلط فان الله قد بين فى كتابه وسنة رسوله أنه يتوب على أئمة الكفر
الذين هم أعظم من أئمة البدع وقد قال تعالى (ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات
ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق)[٦] قال الحسن البصرى انظروا
الى هذا الكرم عذبوا أولياءه وفتنوهم ثم هو يدعوهم الى التوبة وكذلك توبة
القاتل ونحوه وحديث أبي سعيد المتفق عليه فى الذى قتل تسعة وتسعين نفساً
يدل على قبول توبته وليس فى الكتاب والسنة ماينافي ذلك ولا نصوص الوعيد
فيه وفى غيره من الكبائر بمنافية لنصوص قبول التوبة فليست آية الفرقان بمنسوخة
بآية النساء اذ لامنافاة بينهما فانه قد علم يقينا أن كل ذنب فيه وعيد فان لحوق الوعيد
مشروط بعدم التوبة اذ نصوص التوبة مبينة لتلك النصوص كالوعيد فى الشرك
وأكل الربا وأكل مال اليتيم والسحر وغير ذلك من الذنوب ومن قال من العلماء
توبته غير مقبولة فحقيقة قوله التي تلائم أصول الشريعة أن يراد بذلك أن التوبة
المجردة تسقط حق الله من العقاب وأما حق المظلوم فلا يسقط بمجرد التوبة وهذا
حق ولا فرق فى ذلك بين القاتل وسائر الظالمين فمن تاب من ظلم لم يسقط بتوبته
حق المظلوم لكن من تمام توبته أن يعوضه بمثل مظلمته وان لم يعوضه في الدنيا
فلا بد له من العوض فى الآخرة فينبغى للظالم التائب أن يستكثر من الحسنات

١ ـ التوبة ٥
٢ ـ التوبة ٥
٣ ـ التوبة ١١
٤ ـ المائدة ٧٣
٥ ـ المائدة ٧٤
٦ ـ البروج ١٠

حتى اذا استوفى المظلومون حقوقهم لم يبق مفلسا ومع هذا فاذا شاء الله أن يعوض المظلوم من عنده فلا راد لفضله كما اذا شاء أن يغفر مادون الشرك لمن يشاء ولهذا في حديث القصاص الذى ركب فيه جابر بن عبد الله الى عبد الله بن أنيس شهرا حتى شافهه به وقد رواه الامام احمد وغيره واستشهد به البخارى فى صحيحه وهو من جنس حديث الترمذى صحاحه أو حسانه قال فيه « اذا كان يوم القيامة فان الله يجمع الخلائق فى صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب انا الملك انا الديان لاينبغي لاحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا لاحد من أهل النار قبله مظلمة ولا ينبغى لاحد من أهل النار أن يدخل النار ولا لاحد من اهل الجنة حتى أقصه منه » فبين فى الحديث العدل والقصاص بين أهل الجنة وأهل النار . وفى صحيح مسلم من حديث أبي سعيد « أن أهل الجنة اذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فاذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة » وقد قال سبحانه لما قال (ولا يغتب بعضكم بعضا). والاغتياب من ظلم الاعراض قال (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم)[١]. فقد نبههم على التوبة من الاغتياب وهو من الظلم وفى الحديث الصحيح « من كان عنده لاخيه مظلمة فى دم أو مال أو عرض فليأته فليستحل منه قبل أن يأتى يوم ليس فيه درهم ولا دينار الا الحسنات والسيئات فان كان له حسنات والا أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ثم يلقى فى النار » أو كما قال وهذا فيما علمه المظلوم من العوض فاما اذا اغتابه أو قذفه ولم يعلم بذلك فقد قيل من شرط توبته اعلامه وقيل لايشترط ذاك وهذا قول الا كثرين وهما روايتان عن أحمد لكن قوله مثل هذا أن يفعل مع المظلوم حسنات كالدعاء له والاستغفار وعمل صالح يهدي اليه يقوم مقام اغتيابه وقذفه قال الحسن البصري كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته وأما الذنوب التي يطلق الفقهاء فيها نفى قبول التوبة مثل قول أ كثرهم لاتقبل توبة الزنديق وهو المنافق وقولهم اذا تاب المحارب قبل القدرة عليه تسقط عنه حدود الله وكذلك قول كثير منهم أو أ كثرهم فى سائر الجرائم كما هو أحد

١ ـ الحجرات ١٢

قولى الشافعى وأصح الروايتين عن أحمد وقولهم فى هؤلاء اذا تابوا بعد الرفع الى الامام لم تقبل توبتهم فهذا انما يريدون به رفع العقوبة المشروعة عنهم أى لاتقبل توبتهم بحيث يخلى بلا عقوبة بل يعاقب اما لان توبته غير معلومة الصحة بل يظن به الكذب فيها واما لان رفع العقوبة بذلك يفضى الى انتهاك المحارم وسد باب العقوبة على الجرائم ولا يريدون بذلك أن من تاب من هؤلاء توبة صحيحة فان الله لايقبل توبته فى الباطن اذ ليس هذا قول أحد من أئمة الفقهاء بل هذه التوبة لاتمنع الا اذا عاين أمر الآخرة كما قال تعالى (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار)[١] الآية قال أبو العالية سألت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقالوا لى كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب وأما من تاب عند معاينة الموت فهذا كفرعون الذي قال الله فيه (فلما أدركه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين)[٢] قال الله (آلان وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين)[٣] وهذا استفهام انكار بين به ان هذه التوبة ليست هى التوبة المقبولة المأمور بها فان استفهام الانكار اما بمعنى النفى اذ قابل الاخبار واما بمعنى الذم والنهى اذ قابل الانشاء وهذا من هذا ومثله قوله تعالى (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا)[٤] . الآية بين ان التوبة بعد رؤية البأس لاتنفع وان هذه سنة الله التى قد خلت فى عباده كفرعون وغيره وفى الحديث «ان الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر» وروى مالم يعاين وقد ثبت فى الصحيحين انه صلى الله عليه وسلم «عرض على عمه التوحيد فى مرضه الذى مات فيه وقد عاد يهوديا كان يخدمه فعرض عليه الاسلام فاسلم فقال الحمد لله الذى أنقذه بى من النار ثم قال لاصحابه آووا اخاكم» ومما يبين أن المغفرة العامة فى الزمر هى للتائبين انه قال فى سورة النساء (ان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون

١ ـ النساء ١٧ ـ ١٨
٢ ـ يونس ٩٠
٣ ـ يونس ٩١
٤ ـ غافر ٨٣ ـ ٨٥

ذلك لمن يشاء)[١] فقيد المغفرة بما دون الشرك وعلقها على المشيئة وهناك أطلق وعمم فدل هذا التقييد والتعليق على أن هذا فى حق غير التائب ولهذا استدل أهل السنة بهذه الآية على جواز المغفرة لاهل الكبائر فى الجملة خلافا لمن أوجب نفوذ الوعيد بهم من الخوارج والمعتزلة وان كان المخالفون لهم قد أسرف فريق منهم من المرجئة حتى توقفوا فى لحقوق الوعيد باحد من أهل القبلة كما يذكر عن غلاتهم انهم نفوه مطلقا ودين الله وسط بين الغالى فيه والجافى عنه ونصوص الكتاب والسنة مع اتفاق سلف الامة وأئمتها متطابقة على أن من أهل الكبائر من يعذب وانه لا يبقى فى النار من في قلبه مثقال ذرة من ايمان . النوع الثانى من المغفرة العامة التى دل عليها قوله «ياعبادي انكم تخطؤن بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا» المغفرة بمعنى تخفيف العذاب أو بمعنى تأخيره الى أجل مسمى وهذا عام مطلقا ولهذا شفع النبى صلى الله عليه وسلم فى أبى طالب مع موته على الشرك فنقل من غمرة من نار حتى جعل ضحضاح من نار فى قدميه نعلان من نار يغلي منهما دماغه قال ولولا أنا لكان فى الدرك الاسفل من النار ، وعلى هذا المعنى دل قوله سبحانه (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة)[٢] (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة)[٣] (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير)[٤] *

فصل

وأما قوله عز وجل «ياعبادى انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى» فانه هو بين بذلك انه ليس هو فيما يحسن به اليهم من اجابة الدعوات وغفران الزلات بالمستعيض بذلك منهم جلب منفعة أو دفع مضرة كما هى عادة المخلوق الذي يعطي غيره نفعا ليكافئه عليه بنفع أو يدفع عنه ضررا ليتقى بذلك ضرره فقال انكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ولن تبلغوا ضري فتضرونى فلست اذاً أحسنكم بهداية المستهدي وكفاية المستكفى المستطعم والمستكسى بالذى أطلب

١ ـ النساء ٤٨ ، ٦
٢ ـ فاطر ٤٥
٣ ـ النحل ٦١
٤ ـ الشورى ٣٠

ان تنفعونى ولا أنا اذا غفرت خطايا كم بالليـل والنهار أتقى بذلك أن تضرونى فانكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ولن تبلغوا ضري فتضرونى اذهم عاجزون عن ذلك بل مايقدرون عليه من الفعل لايقدرون عليه الا بتقديره وتدبيره فكيف بما لايقدرون عليه فكيف بالغني الصمد الذى يمتنع عليه أن يستحق من غيره نفعا أو ضرا وهذا الـكلام كما بين أن مايفعله بهم من جلب المنافع ودفع المضار فانهم لن يبلغوا ان يفعلوا به مثل ذلك فـكذلك يتضمن ان مايامرهم به من الطاعات وما ينهاهم عنه من السيئات فانه لا يتضمن استجلاب نفعهم كامر السيد لعبده أو الوالد لولده والامير لرعيته ونحو ذلك ولا دفع مضرتهم كنهي هؤلاء أو غيرهم لبعض الناس عن مضرتهم فان المخلوقين يبلغ بعضهم نفع بعض ومضرة بعض وكانوا فى أمرهم ونهيهم قد يكونون كذلك والخالق سبحانه مقدس عن ذلك فبين تنزيهه عن لحوق نفعهم وضرهم فى احسانه اليهم بما يكون من أفعاله بهم وأوامره لهم قال قتادة ان الله لم يامر العباد بما أمرهم به لحاجته اليهم ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا به عليهم ولـكن أمرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم *

فصل

ولهذا ذكر هذين الاصلين بعد هذا فذكر أن برهم وفجورهم الذي هو طاعتهم ومعصيتهم لايزيد فى ملـكه ولا ينقص وان اعطاءه اياهم غاية مايسألونه نسبته الى ماعنده أدنى نسبة وهذا بخلاف الملوك وغيرهم ممن يزداد ملـكه بطاعة الرعية وينقص ملكه بالمعصية واذا أعطى الناس مايسألونه أنفذ ماعنده ولم يغنهم وهم فى ذلك يبلغون مضرته ومنفعته وهو يفعل مايفعله من احسان وعفو وأمر ونهى لرجاء المنفعة وخوف المضرة فقال ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم مازاد ذلك فى ملـكى شيئا ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا علي أفجر قلب رجل منكم مانقص ذلك من ملكى شيئا اذ ملـكه وهو قدرته على التصرف فلا تزداد بطاعتهم ولا تنقص بمعصيتهم

كما تزداد قدرة الملوك بكثرة المطيعين لهم وتنقص بقلة المطيعين لهم فان ملكه متعلق بنفسه وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وهو الذي يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء والملك قد يراد به القدرة علي التصرف والتدبير و يراد به نفس التدبير والتصرف ويراد به المملوك نفسه الذى هو محل التدبير ويراد به ذلك كله وبكل حال فليس بر الابرار وفجور الفجار موجبا لزيادة شيء من ذلك ولا نقصه بل هو بمشيئته وقدرته يخلق مايشاء فلوشاء أن يخلق مع فجور الفجار ماشاء لم يمنعه من ذلك مانع كما يمنع الملوك فجوررعاياهم التى تعارض أوامرهم عما يختارونه من ذلك ولو شاء ان لايخلق مع بر الابرار شيئا مما خلقه لم يكن برهم محوجا له الى ذلك ولا معينا له كما يحتاج الملوك ويستعينون بكثرة الرعايا المطيعين *

فصل

ثم ذكر حالهم فى النوعين سؤال بره وطاعة أمره اللذين ذكرهما فى الحديث حيث ذكر الاستهداء والاستطعام والاستكساء وذكر الغفران والبر والفجور فقال لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل انسان منهم مسألته مانقص ذلك مما عندى الا كما ينقص المخيط اذا دخل البحر *

والخياط والمخيط مايخاط به اذ الفعال والمفعل والمفعال من صيغ الآلات التى يفعل بها كالمسعر والحلاب والميشار *

فبين أن جميع الخلائق اذا سألوا وهم فى مكان واحد وزمان واحد فأعطى كل انسان منهم مسألته لم ينقصه ذلك مما عنده الا كما ينقص الخياط وهى الابرة اذا غمس فى البحر. وقوله لم ينقص مما عندى فيه قولان أحدهما أنه يدل على أن عنده أمورا موجودة يعطيهم منها ماسألوه اياه وعلى هذا فيقال لفظ النقص على حاله لان الاعطاء من الكثير وان كان قليلا فلا بد أن ينقصه شيئا ما ومن رواه لم ينقص من ماسكى يحمل على ماعنده كما فى هذا اللفظ فان قوله مما عندى فيه

تخصيص ليس هو فى قوله من ملكي وقد يقال المعطى اما ان يكون أعيانا قائمة بنفسها أو صفات قائمة بغيرها فأما الاعيان فقد تنقل من محل الى محل فيظهر النقص فى المحل الاول وأما الصفات فلا تنقل من محلها وان وجد نظيرها فى محل آخر كما يوجد نظير علم المعلم في قلب المتعلم من غير زوال علم المعلم وكما يتكلم المتكلم بكلام المتكلم قبله من غير انتقال كلام المتكلم الاول الى الثانى وعلى هذا فالصفات لاتنقص مما عنده شيئا وهى من المسئول كالهدي وقد يجاب عن هذا بانه هو من الممكن فى بعض الصفات ان لايثبت مثلها فى المحل الثانى حتى تزول عن الاول كاللون الذى ينقص وكالروائح التى تعبق بمكان وتزول كما دعا النبي صلى الله عليه وسلم على حمى المدينة أن تنقل الى مهيعة وهى الجحفة وهل مثل هذا الانتقال بانتقال عين العرض الاول أو بوجود مثله من غير انتقال عينه فيه للناس قولان اذ منهم من يجوز انتقال الاعراض بل من يجوز أن تجعل الاعراض أعيانا كما هو قول ضرار والنجار وأصحابهما كبرغوث وحفص الفرد لكن ان قيل هو بوجود مثله من غير انتقال عينه فذلك يكون مع استحالة العرض الأول وفنائه فيعدم عن ذلك المحل ويوجد مثله فى المحل الثانى والقول الثانى أن لفظ النقص هنا كلفظ النقص فى حديث موسى والخضر الذى فى الصحيحين من حديث ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه أن الخضر قال لموسى لما وقع عصفور على قارب السفينة فنقر فى البحر فقال ياموسى مانقص علمى وعلمك من علم الله الا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر ومن المعلوم ان نفس علم الله القائم بنفسه لايزول منه شيء بتعلم العباد وانما المقصود أن نسبة علمى وعلمك الى علم الله كنسبة ماعلق بمنقار العصفور الى البحر ومن هذا الباب كون العلم يورث كقوله العلماء ورثة الانبياء ومنه قوله (وورث سليمان داود)[1] ومنه توريث الكتاب أيضا كقوله(ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا)[2] ومثل هذه العبارة من النقص ونحوه تستعمل فى هذا وان كان العلم الاول ثابتا كما قال سعيد بن المسيب لقتادة وقد أقام عنده أسبوعا سأله فيه مسائل عظيمة حتى عجب من حفظه وقال نزفتني ياأعمى وانزاف القليب ونحوه هو رفع مافيه

١ ـ النمل ١٦
٢ ـ فاطر ٣٢

بحيث لايبقى فيه شيء ومعلوم أن قتادة لو تعلم جميع علم سعيد لم يزل علمه من قلبه كما يزول الماء من القليب لكن قد يقال التعليم انما يكون بالكلام والكلام يحتاج الى حركة وغيرها مما يكون بالمحل ويزول عنه ولهذا يوصف بأنه يخرج من المتكلم كماقال تعالى (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون الا كذبا)[1] ويقال قدأخرج العالم هذا الحديث ولم يخرج هذا فاذا كان تعليم العلم بالكلام المستلزم زوال بعض مايقوم بالمحل وهذا نزيف وخروج كان كلام سعيد بن المسيب على حقيقته ومضمونه أنه فى تلك السبع الليالى من كثرة ماأجابه وكلمه ففارقه أمور قامت به من حركات وأصوات بل ومن صفات قائمة بالنفس كان ذلك نزيفا ومما يقوى هذا المعنى أن الانسان وان كان علمه فى نفسه فليس هو أمرا لازما للنفس لزوم الألوان للمتلونات بل قد يذهل الانسان عنه ويغفل وقد ينساه ثم يذكره فهو شيء يحضر تارة ويغيب أخرى واذا تكلم به الانسان وعلمه فقد تكل النفس وتعيي حتى لايقوى على استحضاره الا بعد مدة فتكون فى تلك الحال خالية عن كمال تحققه واستحضاره الذى يكون به العالم عالما بالفعل وان لم يكن نفس مازال هو بعينه القائم فى نفس السائل والمستمع ومن قال هذا يقول كون التعليم يرسخ العلم من وجه لاينافى ماذكرناه واذا كان مثل هذا النقص والنزيف معقولا فى علم العباد كان استعمال لفظ النقص في علم الله بناء على اللغة المعتادة فى مثل ذلك وان كان هو سبحانه منزها عن اتصافه بضد العلم بوجه من الوجوه أو عن زوال علمه عنه لكن فى قيام أفعال به وحركات نزاع بين الناس من المسلمين وغيرهم وتحقيق الأمر أن المراد ماأخذ علمي وعلمك من علم الله ومانال علمي وعلمك من علم الله وماأحاط علمي وعلمك من علم الله كما قال (ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء)[2] الا كما نقص أو أخذ أو نال هذا العصفور من هذا البحر أى نسبة هذا الى هذا كنسبة هذا الى هذا وان كان المشبه به جسما ينتقل من محل الى محل ويزول عن المحل الاول وليس المشبه كذلك فان هذا الفرق هو فرق ظاهر يعلمه المستمع من غير التباس كما قال صلى الله عليه وسلم «انكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر» فشبه الرؤية بالرؤية وهى وان كانت متعلقة بالمرئى فى الرؤية المشبهة والرؤية المشبه بها

١ - الكهف ٥
٢ - البقرة ٢٥٥

لـكن قد علم المستمعون أن المرئى ليس مثل المرئى فكذلك هنا شبه النقص بالنقص وان كان كل من الناقص والمنقوص والمنقوص منه المشبه ليس مثل الناقص والمنقوص والمنقوص منه المشبه به ولهذا كل أحد يعلم أن المعلم لايزول علمه بالتعليم بل يشبهونه بضوء السراج الذى يحدث يقتبس منه كل أحد ويأخذون ماشاءوا من الشهب وهو باق بحاله وهذا تمثيل مطابق فان المستوقد من السراج يحـدث الله في فتيلته أو وقودة نارا من جنس تلك النار وان كان قد يقال انها تستحيل عن ذلك الهواء مع أن النار الاولى باقية . كذلك المتعلم يجعل فى قلبه مثـل علم المعلم مع بقاء علم المعلم ولهذا قال على رضي الله عنه العلم يزكو على العمل أو قال على التعليم والمال ينقصه النفقة وعلى هذا فيقال في حديث أبى ذر ان قوله مما عندي وقوله من ملـكى هو من هذا الباب وحينئذ فله وجهان أحدهما ان يكون ماأعطاهم خارجا عن مسمى ملـكه ومسمى ماعنده كما أن علم الله لا يدخل فيه نفس علم موسى والخضر والثانى أن يقال بل لفظ الملك وما عنـده يتناول كل شيء وما أعطاهم فهو جزء من ملـكه ومما عنده ولـكن نسبت الى الجملة هذه النسبة الحقيرة ومما يحقق هذا القول الثانى أن الترمذى روى هذا الحديث من طريق عبد الرحمن بن غنم عن أبى ذر مرفوعا فيه «لوأن أولـكم وآخركم وإنسكم وجنكم ورطبكم ويابسكم سألونى حتى تنتهى مسألة كل واحد منهم فأعطيتهم ماسألونى مانقص ذلك مما عندى كمغرز إبرة لوغمسها أحدكم فى البحر وذلك انى جواد ماجد واجد عطائى كلام وعذابي كلام انما أمرى لشيء اذا أردته أن أقول له كن فيكون » فذكر سبحانه أن عطاءه كلام وعذابه كلام يدل على أنه هو أراد بقوله من ملـكى ومما عندي أي من مقدورى فيكون هذا فى القـدرة كحديث الخضر فى العلم والله أعلم و يؤيد ذلك أن فى اللفظ الآخر الذى فى نسخة أبى مسهر لم ينقص ذلك من ملـكى شيئا الا كما ينقص البحر وهذا قد يقال فيه انه استثناء منقطع أى لم ينقص من ملـكى شيئا لـكن يكون حاله حال هذه النسبة وقد يقال بل هو تام والمعنى على ماسبق *

﴿ فصل ﴾

ثم ختمه بتحقيق ماينه فيه من عدله واحسانه فقال « ياعبادى انما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه فبين أنه محسن الى عباده فى الجزاء على أعمالهم الصالحة احسانا يستحق به الحمد لانه هو المنعم بالامر بها والارشاد اليها والاعانة عليها ثم احصأها ثم توفية جزائها فكل ذلك فضل منه واحسان اذ كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل وهو وان كان قد كتب على نفسه الرحمة وكان حقا عليه نصر المؤمنين كما تقدم بيانه فليس وجوب ذلك كوجوب حقوق الناس بعضهم على بعض الذي يكون عدلا لافضلا لان ذلك انما يكون لكون بعض الناس أحسن الي البعض فاستحق المعاوضة وكان احسانه اليه بقدرة المحسن دون المحسن اليه ولهذا لم يكن المتعاوضان ليخص أحدهما بالتفضل على الآخر لتكافئهما وهو قد بين فى الحديث أن العباد لم يبلغوا ضره فيضرره ولن يبلغوا نفعه فينفعوه فامتنع حينئذ أن يكون لاحد من جهة نفسه عليه حق بل هو الذى أحق الحق على نفسه بكلماته فهو المحسن بالاحسان وباحقاقه وكتابته على نفسه فهو فى كتابة الرحمة على نفسه واحقاقه نصر عباده المؤمنين ونحو ذلك محسن احسانا مع احسان فليتدبر اللبيب هذه التفاصيل التى يتبين بها فصل الخطاب فى هذه المواضع التى عظم فيها الاضطراب فمن بين موجب على ربه بالمنع أن يكون محسنا متفضلا ومن بين مسوى بين عدله واحسانه وماتنزه عنه من الظلم والعدوان وجاعل الجميع نوعا واحدا وكل ذلك حيد عن سنن الصراط المستقيم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل *

وكما بين أنه محسن فى الحسنات متم احسانه باحصائها والجزاء عليها بين أنه عادل فى الجزاء على السيئات فقال « ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه » كما تقدم بيانه فى مثل قوله (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم)[1] وعلى هذا الاصل استقرت الشريعة الموافقة لفطرة الله التى فطر الناس عليها كما فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى عن شداد بن أوس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه

[1] ١ ـ هود ١٠١

قال « سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربى لا اله الا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ماصنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لى فانه لا يغفر الذنوب الا أنت » ففي قوله أبوء لك بنعمتك على اعتراف بنعمته عليه فى الحسنات وغيرها وقوله وأبوء بذنبي اعتراف منه بأنه مذنب ظالم لنفسه وبهذا يصير العبد شكورا لربه مستغفرا لذنبه فيستوجب مزيد الخير وغفران الشر من الشكور الغفور الذي يشكر اليسير من العمل ويغفر الكثير من الزلل.

وهنا انقسم الناس ثلاثة أقسام فى اضافة الحسنات والسيئات التى هى الطاعات والمعاصى الى ربهم والى نفوسهم فشرهم الذي اذا أساء أضاف ذلك الى القدر واعتذر بان القدر سبق بذلك وأنه لا خروج له عن القدر فركب الحجة على ربه فى ظلمه لنفسه وان أحسن أضاف ذلك الى نفسه ونسى نعمة الله عليه فى تيسيره لليسرى وهذا ليس مذهب طائفة من بنى آدم ولكنه حال شرار الجاهلين الظالمين الذين لا حفظوا حدود الامر والنهى ولا شهدوا حقيقة القضاء والقدر. كما قال فيهم الشيخ ابو الفرج بن الجوزى أنت عند الطاعة قدرى وعند المعصية جبرى أى مذهب وافق هواك تمذهبت به وخير الاقسام وهو القسم المشروع وهو الحق الذي جاءت به الشريعة أنه اذا أحسن شكر نعمة الله عليه وحمده اذا أنعم عليه بان جعله محسنا ولم يجعله مسيئا فانه فقير محتاج فى ذاته وصفاته وجميع حركاته وسكناته الى ربه ولا حول ولا قوة الا به فلو لم يهده لم يهتد كما قال أهل الجنة (الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق)[1] واذا أساء اعترف بذنبه واستغفر ربه وتاب منه وكان كابيه آدم الذى (قال ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)[2] ولم يكن كابليس الذي قال (بما أغويتنى لأزينن لهم فى الارض ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين)[3] ولم يحتج بالقدر على ترك مأمور ولا فعل محظور مع ايمانه بالقدر خيره وشره وان الله خالق كل شيء وربه ومليكه وأنه ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء ونحو ذلك وهؤلاء هم الذين أطاعوا الله فى قوله فى هذا

١ ـ الاعراف ٤٣
٢ ـ الاعراف ٢٣
٣ ـ الحجر ٣٩ ـ ٤٠

الحديث الصحيح « فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه » ولكن بسط ذلك وتحقيق نسبة الذنب الى النفس مع العلم بان الله خالق أفعال العباد فيه أسرار ليس هذا موضعها ومع هذا فقوله تعالى (وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ماأصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك)[1] ليس المراد بالحسنات والسيئات فى هذه الاية الطاعة والمعاصى كما يظنه كثير من الناس حتى يحرف بعضهم القرآن ويقرأ فمن نفسك ومعلوم أن معنى هذه القراءة يناقض القراءة المتواترة وحتى يضمر بعضهم القول على وجه الانكار له وهو قول الله الحق فيجعل قول الله الصدق الذي يحمد ويرضى قولا للكفار يكذب به ويذم ويسخط بالاضمار الباطل الذى يدعيه من غيرأن يكون فى السياق مايدل عليه *

ثم ان من جهل هؤلاء ظنهم أن فى هذه الاية حجة للقدرية واحتجاج بعض القدرية بها وذلك أنه لاخلاف بين الناس في أن الطاعات والمعاصى سواء من جهة القدر . فمن قال ان العبد هو الموجد لفعله دون الله أو هو الخالق لفعله وأن الله لم يخلق أفعال العباد فلا فرق عنده بين الطاعة والمعصية . ومن أثبت خلق الافعال وأثبت الجبر أو نفاه أو أمسك عن نفيه واثباته مطلقا وفصل المعنى أو لم يفصله فلا فرق عنده بين الطاعة والمعصية فتبين أن ادخال هذه الآية فى القدر في غاية الجهالة وذلك ان الحسنات والسيئات فى الآية المراد به المسار والمضار دون الطاعات والمعاصى كما فى قوله تعالى (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون)[2] وهو الشر والخير فى قوله (ونبلوكم بالشر والخير فتنة)[3] وكذلك قوله (ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها)[4] وقوله تعالى (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى)[5] وقوله تعالى (وما أرسلنا فى قرية من نبي الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فاخذناهم بغتة وهم لايشعرون)[6] وقوله تعالى (واذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم

١ ـ النساء ٧٨ ـ ٧٩
٢ ـ الاعراف ١٦٨
٣ ـ الأنبياء ٣٥
٤ ـ آل عمران ١٢٠
٥ ـ هود ١٠
٦ ـ الاعراف ٩٤ ـ ٩٥

سيئة يطيروا بموسى ومن معه)[1] فهذه حال فرعون وملائه مع موسى ومن معه كحال الكفار والمنافقين والظالمين مع محمد وأصحابه « اذا أصابهم نعمة وخير قالوا لنا هذه أو قالوا هذه من عند الله وان أصابهم عذاب وشر تطيروا بالنبى والمؤمنين وقالوا هذه بذنوبهم » وانما هو بذنوب أنفسهم لا بذنوب المؤمنين وهو سبحانه ذكر هذا فى بيان حال الناكلين عن الجهاد الذين يلومون المؤمنين على الجهاد فاذا أصابهم نصر ونحوه قالوا هذا من عند الله وان أصابتهم محنة قالوا هذه من عند هذا الذى جاءنا بالامر والنهي والجهاد قال الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا خذوا حذركم)[2] الي قوله (وان منكم لمن ليبطئن)[3] الى قوله (ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال الى قوله أينما تكونوا يدرككم الموت)[4] وان تصبهم حسنة هؤلاء المذمومين يقولون هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك أى بسبب أمرك ونهيك قال الله تعالى (فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا[5] ماأصابك من حسنة) من نعمة (فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك)[6] أى فبذنبك كما قال (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم)[7] وقال (وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم)[8] وأما القسم الثالث فى هذا الباب فهم قوم لبسوا الحق بالباطل وهم بين أهل الايمان أهل الخير وبين شرار الناس وهم الخائضون فى القدر بالباطل فقوم يرون أنهم هم الذين يهدون أنفسهم ويضلونها ويوجبون لها فعل الطاعة وفعل المعصية بغير إعانة منه وتوفيق للطاعة ولا خذلان منه فى المعصية وقوم لايثبتون لانفسهم فعلا ولا قدرة ولا أمراء ثم من هؤلاء من يبخل عن الامر والنهى فيكون أكفر الخلق وهم فى احتجاجهم بالقدر متناقضون اذ لابد من فعل يحبونه وفعل يبغضونه ولا بد لهم ولكل أحد من دفع الضرر الحاصل بأفعال المعتدين فاذا جعلوا الحسنات والسيئات سواء سيئة لم يمكنهم أن يذموا أحدا ولا يدفعوا ظالما ولا يقابلوا مسيئا وان يبيحوا للناس من أنفسهم كل مايشتهيه مشتهٍ ونحو ذلك من الامور التي لايعيش عليها بنو آدم اذ هم مضطرون الى شرع فيه أمر ونهي أعظم من

١ - الاعراف ١٣١
٢ - النساء ٧١
٣ - النساء ٧٢
٤ - النساء ٧٧
٥ - النساء ٧٨
٦ - النساء ٧٨ - ٧٩
٧ - الشورى ٣٠
٨ - الروم ٣٦

اضطرارهم الى الاكل واللباس وهذا باب واسع لشرحه موضع غير هـذا وانما نبهنا على مافى الحـديث من الـكلمات الجامعة والقواعد النافعة بنكت مختصرة تنبه الفاضل على مافى الحقائق من الجوامع والفوارق التى تفصل بين الحق والباطل في هـذه المضايق بحسب مااحتملته أوراق السائل والله ينفعنا وسائر اخواننا المؤمنين بما علمناه و يعلمنا ماينفعنا و يزيدنا علما ولا حول ولا قوة الا بالله ولا ملجأ منه الا اليـه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن واستغفر الله العظيم لى ولجميع اخواننا المؤمنين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليما *

بحمد الله وحسن توفيقه قد تم الجزء الثالث من مجموعة الرسائل

المنيرية لجامعها وناشرها إدارة الطباعة المنيرية لصاحبها

ومديرها محمد منير الدمشقي من علماء الازهر

المعمور وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم

(تمت الرسالة العاشرة والحمد لله)

فهرست الجزء الثالث من مجموعه الرسائل المنيريه

تم الجزء الثالث

شرح

جامع بيان العلم وفضله

وما ينبغي في روايته وحمله

(للامام الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر النمرى)

(القرطبي الأندلسى)

الأربعين حديثا النووية

للامام العلامة الحافظ الفقيه الاصولى المجتهد القدوة شيخ الاسلام تقى الدين أبي الفتح الشهير بابن دقيق العيد

ارشاد الفحول

الى تحقيق الحق من علم الأصول

للامام المجتهد العلامة الربانى قاضى قضاة القطر اليمانى

محمد بن على بن محمد الشوكانى

(صاحب نيل الأوطار وغـيره)

تهذيب الأسماء واللغات

(للامام الورع المتقن أبى زكريا محى الدين النووى جزء ٤)

مجموعة الرسائل المنيرية

الجزء الثالث

يشتمل على ١٠ رسائل

(١) شرح حديث « ماذئبان جائعان أرسلا في غنم » الخ للحافظ ابن رجب (٢) المؤمل للرد إلى الأمر الأول للعلامة ابن أبي شامة . (٣) استخراج الجدال من القرآن الكريم لابن الحنبلي . (٤) كفاية التعبد وتحفة التزهد للحافظ المنذري . (٥) ارشاد السائل إلى دلائل المسائل للعلامة الشوكاني . (٦) معنى قول الإمام المطلبي إذا صح الحديث فهو مذهبي للسبكي . (٧) خلاف الأمة في العبادات ومذهب أهل السنة والجماعة . (٨) في توحد الملة وتعدد الشرائع وتنوعها . (٩) رسالة في السماع والرقص والكلام على حديث يولد المولود على الفطرة . (١٠) شرح حديث أبي ذر الأربعة للإمام ابن تيمية .

(عنيت بنشرها وتصحيحها والتعليق عليها للمرة الأولى سنة ١٣٤٦ هـ)

إدارة الطباعة المنيرية

توزيـــع

مكتبة طيبة
الرياض

دار الكلمة الطيبة
القاهرة